نساء صغيرات

٤

نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مع

الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية

القاهرة

الطبعة الأولى : سنة ١٩٥٧

الطبعة الثانية : سنة ١٩٦٨

الطبعة الثالثة : سنة ١٩٨٣

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

نساء صغيرات

٤

تأليف

لويزا م. ألكوت

ترجمة

أمينة السعيد

دار المعارف

هذه الترجمة مرخص بها وقد قامت الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق.

This is a translation of chapters XXXV to XLVII from Little Women by Louisa M. Alcott. Copyright, 1947, Grosset and Dunlap.

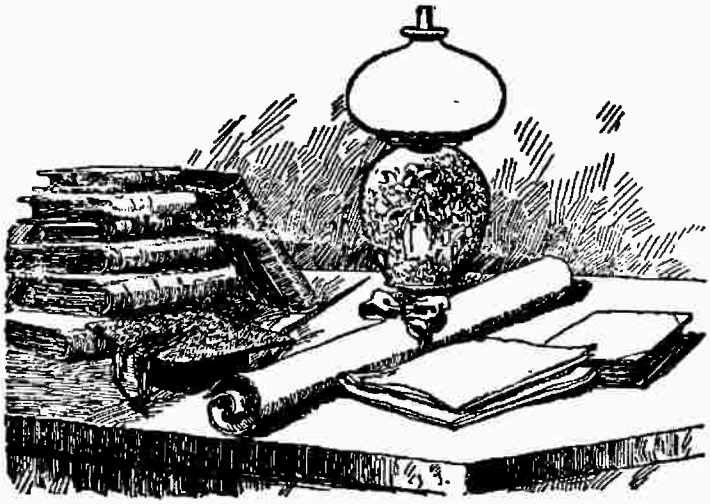

الفصل الخامس والثلاثون

آلام قلب

لأمر ما عكف لورى على دروسه يستذكرها فى ذلك العام . ومهما تكن الأسباب التى جعلته يحرص على السبق ، فقد استطاع بفضل هذا الحرص أن يتخرج فى الكلية ، ويحصل فى امتحانه على مرتبة الشرف ، كما ألقى خطاب التخرج باللغة اللاتينية فى فصاحة ديموستينيس ورشاقة فيلبس . وشهد حفل التخرج جده ومستر ومسز مارش ، وجون وميج وجو وبث ، وكان جده شديد الفخر به ، كما ابتهج جميعهم بما حقق من نجاح وكانت فرحتهم به صادرة عن شعور عميق صادق ، قد لا يقدره الأولاد

فى حينه حق التقدير ، ولكنهم لا يلقون مثله بعد ذلك فى حياتهم مهما بلغت انتصاراتهم ، فليس هناك أعظم ولا أصدق من التقدير الذى ناله لنجاحنا فى الصغر .

وعندما انتهى الحفل خرج لورى يودع الأخوات ويرافقهن حتى العربة ، قال :

— سأبقى الليلة هنا لأحضر وليمة العشاء ، وغداً أعود إلى البيت مبكراً ، فأجدكن فى انتظارى كالمعتاد ، أليس كذلك يابنات ؟

ورغم أنه اختار أن يتوجه بالحديث إلى الأخوات جميعهن ، إلا أنه كان يعنى جو وحدها ، فهى التى ظلت محافظة على عهدها القديم ، ولم تجسر يوماً على رفض طلب لفتاها الفائز العظيم ، فأجابت بحرارة تقول :

— سأكون بانتظارك ياتيدى ، سواء أمطرت السماء أم أشرقت الشمس ، وسأسير أمامك أعزف على القيثارة أنشودة النصر التى تقول :

« هاهوذا البطل قد عاد . . مرحباً بالظافر العظيم » .

وشكرها لورى بنظرة ارتاعت لها ، فقد خيل إليها أنه موشك على الإفضاء إليها بأمر تخشاه ، فقالت تحدث نفسها : « يا إلهى ! إنه سيتكلم ، فكيف أتصرف ياترى إذا ما فعل ؟! »

ولكن تأملات المساء لم تلبث أن بددت بعض مخاوفها ، ثم جاءتها أعمال الصباح التالى بمزيد من الطمأنينة ، فقالت تحدث نفسها مرة أخرى : « يجب ألا يأخذنى الغرور فأظن أنه سيفاتحنى فى أمر

الزواج ، بعد ما أظهرت له ما ينم عن نفورى من ذلك . »

وخرجت للقائه فى الموعد المحدد ، وهى ترجو ألا يقدم على مفاتحتها فى شىء ، حتى لا تضطر إلى الرفض فتجرح شعوره المرهف. وتوقفت فى طريقها ببيت ميج ، وغرضها أن تقضى بعض الوقت فى مداعبة الصغيرين ديزى وديميجون ، فتروح بذلك عن نفسها ، وتقوى عزيمتها على مجابهة الخطر الذى تتوقعه عند ما يأتى لورى وينفرد بها ، ولكن ما إن رأته قادماً من بعيد بقامته الفارعة وخطواته المسرعة ، حتى تملكتها رغبة قوية فى أن تولى الأدبار عائدة إلى البيت .

وصاح بها لورى ، حين أصبح على مسمع منها قائلا :

— أين القيثارة يا جو؟

واستردت جو هدوءها ، وقد رأت أن هذه التحية لا يمكن أن تنم عن الغرام ، فقالت :

— نسيتها !

وكان من عادة جو أن تتأبط ذراعه فى مثل هذه المناسبات ، ولكنها لم تفعل ذلك الآن . ولم يحتج لورى ولم يلح عليها ، فرأت فى تحفظه بادرة سيئة . وراح لورى يتحدث إليها فى مسائل كثيرة متباينة ، وكان يتكلم بسرعة غير معتادة ، وعندما عرجا من الطريق الرئيسى إلى الممر الضيق المؤدى إلى البيت ، تمهل فى مشيته ، ثم تلعثم فى حديثه وخانته فصاحته ، فراح يتوقف بين الفينة والفينة ، توقفاً ينم عن قلقه وعصبيته . ونهضت جو

إلى إنقاذ الموقف تخلصاً من هذا الصمت الذى تكرر وقوعه ، فقالت تصل ما انقطع من الحديث :

ـ من حقك الآن أن تتمتع بعطلة طويلة طيبة .

قال :

ـ وهذا ما أنوى أن أفعله .

وكان فى لهجته عزم وتصميم جعلاها ترفع رأسها بسرعة لتنظر فى وجهه ، فإذا بعينيها تلتقيان بعينيه ، وكانت فيهما نظرة أدركت منها أن اللحظة التى تخشاها قد حانت ، فمدت يدها نحوه مذعورة ، وقالت فى توسل ورجاء :

ـ لا . . لا يا تيدى . لا تتكلم . . أرجوك !

قال بمزيد من الانفعال وقد تخضب وجهه حياء :

ـ لا فائدة من التهرب ، فيجب أن أتكلم ، وعليك أن تسمعى . لم يعد بدّ من أن نعبّر عما بنفوسنا ، وكلما أسرعنا بالتصريح كان ذلك خيراً لنا .

وغلبت جوَ على أمرها ، فقالت فى حلم وصبر :

ـ قل ما تشاء ، فكلى آذان صاغية .

وكان الهوى قد ملك لب لورى الفتى الحازم ، وكان قد جمع أمره على أن يصارحها بحبه ولو استشهد فى سبيل ذلك ، فانطلق يفضى لها بما فى قلبه ، وبالرغم من الجهود التى بذلها فى الاحتفاظ بثباته ورباطة جأشه ،

كان صوته يخونه من وقت لآخر . قال :

ـ لقد أحببتك يا جو منذ عرفتك ، ولا حيلة لى فى ذلك ، فقد كنت طيبة معى رفيقة بى . وكم حاولت فيما مضى أن أكشف لك عن قلبى ، فكنت فى كل مرة تتحايلين على إسكاتى ؛ أما الآن فلا بد أن أسمعك نجواى وأبثك هواى ، ولا بد أيضاً أن أسمع إجابتك ، وأعرف صدى حبى فى نفسك ، فقد فرغ صبرى وفاضت أشجانى .

قالت جو ، وقد بدت لها فرصة الخلاص من الموقف أعسر مما كانت تتوقع :

ـ ظننت أنك تعرف رأيى فى ذلك ، وكنت أرجو أن توفر مشقة مثل هذا الموقف .

قال يدافع عن نفسه :

ـ وأنَّى لى أن أعرف رأيك ؟ إن الفتيات لغز محيِّر : يقلن « لا » وهن يعنين « نعم » ، ويخرجن الرجال عن صوابهم لمجرد الاستمتاع بمثل هذا الموقف . .

قالت :

ـ ولكنى ما قصدت شيئاً غير ما أقول ، وما رغبت يوماً أن تقع فى حبى إلى هذا الحد ، ولقد حاولت من قبل أن أشفيك من هذا الحب إن أمكن ، فرحلت عنك وغبت غيبة طويلة .

قال :

ـ هذا ما أدركته فى حينه ، ولم يدهشنى تصرفك ، ولكن البعد الذى أردت به شفائى زادنى حبًّا على حب ، وحفزنى إلى مضاعفة جهودى لأرضيك ، لقد هجرت لعبة البليارد ، وأقلعت عن كل ماتكرهين ، وانتظرت صابراً أن تمنحينى قلبك ، ولو أنى لست جديراً بك .

وغلبته عاطفته فاختنقت الكلمات فى حلقه وتوقفت . وراح يتنحنح بشدة ليعيد إلى صوته صفاءه العادى ، فقالت چو :

ـ أنت أعظم منى ، وأكثر مما أستحق ، وإنى لشاكرة لك ، فخور بك ، معتزة بشخصك ؛ ولكنى لا أستطيع أن أمنحك الحب الذى تريده ، ولست أرى سبباً لذلك ، وكم حاولت أن أغير قلبى فأخفقت ، ولن يرضيك أن أكذبك القول فأدعى شعوراً لا أحس به .

فحملق لورى فى وجهها ، وأمسك بيديها ، وشخص إليها وفى عينيه نظرة لم تستطع چو أن تنساها قبل مضى وقت طويل ، ثم قال :

ـ أحقًّا ؟ ! أصدقاً ما أسمعه يا چو ؟ !

أجابت :

ـ نعم ، كل الحق ومنتهى الصدق يا عزيزى .

وكانا قد بلغا فى سيرهما الحوش القريب من البيت . فما كادت چو تنتهى من كلماتها هذه ، حتى ترك الفتى يديها تفلت من بين يديه ، واستدار كمن يهم بالرحيل ، ولكنه لأول مرة فى حياته ، أحس أن سور الحديقة عقبة لايستطيع اجتيازها ، فمال نحو أحد الأعمدة واستند برأسه

عليه ، ووقف هكذا صامتاً واجماً . وجزعت چو لألمه البالغ ، وأخذت تربت على كتفه مهدئة ، وقد تذكرت كيف كان هو يهدئ روعها فيما مضى .

وصاحت فى لهجة من غلبها الألم وتأنيب الضمير :

— إنى آسفة ياتيدى . . . آسفة كل الأسف . . . حياتى فداؤك إن كان فيها خير لك . ليتك لا تأخذ الأمور بمثل هذه الحدة . . . ما حيلتى فى كل هذا ، وأنت تعلم أن الحب يأتى طواعية لا قسراً ؟ الحب لا يكون حباً إلا إذا نبع من أعماق القلوب .

فصاح لورى من جانب العمود يقول بصوت مبحوح :

— قد يأتى الحب إذا حملت نفسك عليه .

أجابت چو فى حزم :

— لا أظن أن هذا الضرب من الحب أصيل ، ولست على استعداد لتجربته .

ولزم الاثنان الصمت ، وران عليهما سكوت شامل لم يلبث أن قطعه تغريد عصفور فوق الشجرة القريبة من النهر ، وتلاه صوت الريح وهى تجر ذيولها فوق الحشائش الطويلة ، وعندئذ قالت چو فى رزانة وهى تجلس على عارضة خشبية :

— اسمع يالورى . أريد أن أحدثك بأمر .

وانتفض كمن أصابته رصاصة ، ورفع رأسه يصيح بها وفى صوته عنف :

ـ لا تحدثيني به يا چو ، فلن أحتمله .

قالت وهى تعجب من العنف الذى اعتراه فجأة :

ـ و بماذا تظن أنى سأحدثك ؟

قال :

ـ بأنك تحبين ذلك العجوز !

قالت تسأله ، وقد ظنته يعنى مستر لورنس العجوز :

ـ أى عجوز ؟

قال :

ـ ذلك الأستاذ المجنون الذى كنت تكثرين الكتابة عنه ! إذا قلت إنك تحبينه ، فثق أن اليأس سيدفعنى إلى عمل خطير !

وكان فى لهجته مايوحى بأنه جاد فيما يقول ، والتمعت عيناه وتشنجت قبضتاه ، بشكل يدعو إلى القلق ، ولكن الخبر كان مفاجأة كادت معها چو تطلق ضحكة عالية ، غير أنها أمسكت عن ذلك وقالت بحرارة ، وقد سرى الانفعال إليها بدورها :

ـ بالله لا تمعن فى تهديدك ياتيدى ، فهو ليس عجوزاً ولا شريراً ، إنه رجل طيب عطوف ، وأنا أعتبره أحسن أصدقائى بعدك ، وسأغضب إذا مضيت فى إهانة أستاذى ، فخل عنك ، واطمئن إلى أنى لا أنوى أن أحبه ، أو أحب أى إنسان آخر .

قال :

— ولكنك ستحبينه مع الزمن ، ولست أدرى ماذا يحدث لى عندئذ ؟

قالت :

— سوف تحب فتاة أخرى بدورك ، تنسيك متاعبك وأشجانك ، شأنك فى ذلك شأن كل فتى عاقل .

قال وهو يضرب الأرض بقدمه تأكيداً لكلماته المفعمة بالحب والعاطفة :

— لن أحب غيرك ، ولن أنساك يا چو . . أبداً . . أبداً .

فتنهدت چو وقالت تحدث نفسها ، وقد أدركت أن معالجة العواطف الثائرة أصعب بكثير مما كانت تتخيل : « ترى كيف أتصرف معه ! ؟ » ثم استطردت تقول له مهدئة :

— إنك لم تستمع لما كنت أريد أن أقول لك ، فاجلس وأصغ إلىّ ! إنى أريد أن أحسن التصرف لأسعدك .

وبعث قولها بارقة أمل فى قلب لورى ، فألقى بنفسه على الحشائش تحت قدميها ، وأسند رأسه إلى العارضة الخشبية التى تجلس عليها ، ثم رفع إليها نظرة كلها أمل واستعطاف ، وأشاعت حال الفتى القلق فى نفس چو ، إذ كيف يمكنها أن تقسو على فتاها ، وهو يرنو إليها هكذا بنظرات واهة تنبعث من عينين مازالت تنديهما دموع المرارة لقسوتها عليه ؟

ومدت يدها وأدارت رأسه بعيداً عنها ، وراحت تربت على شعره المتموج الذى أرسله طويلا من أجلها . قالت :

إنى أتفق مع أمى أننا لا يصلح أحدنا للآخر ، فكلانا سريع الغضب مما يقضى على سعادتنا ، إذا . . .

وتوقفت چو قليلا قبل أن تقول الكلمة التى تختم حديثها ، ولكن لورى أكمل فى صوت خشن :

— تزوجنا ! . . لا . . لن تتعس حياتنا إذا بادلتنى الحب ، أنا طوع أمرك وفى مقدورك أن تصوغينى كما تشائين ، وسوف تصنعين منى قديساً إذا أردت .

قالت :

— لا ، لا أستطيع . لقد جربت وفشلت ، ولا أحب أن أخاطر بسعادتنا فى تجربة جديدة أخرى . إننا لانتفق على أمر من الأمور ، ولن تتغير حالنا هذه فى يوم من الأيام ، ولذا يحسن بنا أن نحتفظ بصداقتنا ما حيينا ، ولا نفسدها بعمل ينطوى على التسرع والرعونة .

فقال لورى فى عناد :

— على العكس ، سوف نسعد معاً لو أتيحت الفرصة .

فقالت چو فى ضراعة ، وهى تبذل آخر سهم فى جعبتها :

— كن عاقلا منطقيًّا ، وخذ الأمور بحكمة وروية .

قال :

— لا . . لا أريد عقلا ولا منطقاً ولا حكمة ، فلن تعود على منها فائدة ، بل على العكس إنها تزيدك صلابة وقسوة . إنى أعجب من أمرك

أليس لك قلب يحس ؟

قالت :

— وددت لو لم يكن لى قلب يحس ! !

وكان فى صوتها رجفة تفاءل بها لورى ، فاستدار إليها . وقد جمع كل ما يملك من قوة الإقناع ، وقال برنة الإغراء التى لم تعهدها چو من قبل :

— لا تخيبى رجاءنا ياعزيزتى ! فكلهم ينتظر هذا النبأ ؛ لقد عقد جدى آماله عليه ، ولا شك أن قومك يرحبون به ، وأنا لا أستطيع الحياة بدونك . قولى نعم ودعينا نسعد فى حياتنا . . . . هيا قولى نعم .

ولم تدرك چو ، إلا بعد مضى شهور عدة ، كيف توافرت لها القوة على التمسك بقرارها فى عزم وإصرار ، كانت تعلم أنها لا تحب فتاها ولا تستطيع أن تروض نفسها على حبه ، وربما يكون فى إعلان هذا الرأى قسوة عليه ، ولكنها كانت ترى أن لامفر من إعلانه ، حتى لاتزيد عذابه بالمماطلة والتسويف .

قالت فى هدوء ولطف :

— صدقنى يالورى إننى لا أستطيع أن أقول لك « نعم » عن إيمان وصدق ، وستشكرنى يوماً على موقفى هذا .

وقفز لورى واقفاً فوق الحشائش ، وقد تملكه غضب شديد ، لمجرد تصوره أن يحدث هذا . قال :

— لن أفعل هذا إلى أن أموت .

فقالت فى إصرار :

— بل سيأتى اليوم الذى تشكرنى فيه على هذا القرار ، والزمن كفيل بعلاج آلامك ، ولن يمضى وقت طويل حتى تجد فتاة جميلة مهذبة تقع فى غرامك وتصبح أبدع سيدة لبيتك الجميل . أما أنا فلا أصلح لك إطلاقاً لأنى غريبة الأطوار ساذجة خرقاء ، وستخجل منى ومن تصرفاتى ، وسوف نتشاجر من أجل ذلك ومن أجل ما هو أقل منه ، وحتى الآن ، هانحن أولاء نتشاجر كما ترى . إننا نختلف فى كل ناحية : فأنا مثلا لا أطيق المجتمعات الأنيقة وأنت تحبها ، وأنت تكره الكتابة وأنا لا أستطيع الحياة بدونها . سنكون فى منتهى التعاسة . سنكون فى منتهى التعاسة إذا تم لك ما أردت ، وستندم على ما فعلنا يوم تصبح الحياة بيننا لا تطاق .

وضاق صدر لورى بهذه التنبؤات المفزعة ، فقال :

— أما زالت لديك أقوال أخرى ؟ ؟

قالت :

— لا . . ليس لدىّ إلا ما أعتقده من أننى لن أتزوج فى يوم من الأيام ، فأنا سعيدة بحالى ، أستمتع بحريتى التى أحبها إلى حد لا أتصور معه فكرة التخلى عنها من أجل أى مخلوق آدمى أيًّا كان .

وقطع لورى حديثها قائلا :

— وأنا أعتقد غير ذلك ، فرغم كل ما تقولين ، سيأتى اليوم الذى تحبين فيه شخصاً ما ، وتتدلهين فى هواه ، فتعيشين وتموتين من أجله .

إنها طريقتك فى الحياة ، ولا بد أن يحدث ما أتوقعه ، وسأقف إذ ذاك جانباً ، أرقب أحوالك ، وأرى بعينى مصيرك الأخير .

وفى حركة يائسة ألقى العاشق الصغير قبعته على الأرض ، بشكل يثير الضحك ، ولكن چو لم تضحك احتراماً لحزنه العميق .

صاحت تقول ، وقد نفد صبرها مع تيدى المسكين :

ــ نعم سأعيش وأموت من أجل من يستطيع أن يحملنى على حبه رغم أنفى ، فعليك أن تبذل جهدك لتكون هذا الرجل ، أما أنا فقد حاولت كثيراً وفشلت . . . أنت لا تريد أن تحكم عقلك ، ومن الأنانية أن تمعن فى مضايقتى وإغاظتى ، وتلح فى مطالبتى بما ليس فى مقدورى أن أمنحك إياه . . ثق أنك أحب الأصدقاء كلهم إلىّ ، وستبقى لى دائماً أعز الناس ولكنى لن أتزوجك أبداً ، وكلما أسرعت فى إدراك هذه الحقيقة ، كان ذلك خيراً لنا وأبقى .

وجاءت كلماتها ناراً على بارود ، فقد نظر إليها لورى برهة فى حيرة أربكت عليه أمره ، ثم استدار عنها منصرفا وهو يقول فى لهجة اليأس المرير :

ــ ستندمين يوماً على موقفك هذا ، يا چو !

فصاحت وقد هالها انقلاب سحنته :

ــ أواه ! إلى أين تذهب ؟

فقال :

— إلى الشيطان !

وتوقف قلب چو عن النبض لحظة ، وهى تراه يندفع متجهاً إلى شاطئ النهر ، ولكن الفتى لم يكن يفكر فى الانتحار كما تصورت ؛ إذ أن الانتحار يحتاج إلى دوافع فيها من التعاسة أو التهور أو الخطيئة أضعاف ما يشعر به ، كما أنه ليس من ذلك الطراز الضعيف الذى يقر بالهزيمة عند أول صدمة يلقاها أو فشل يمنى به . ولكن غريزته الثائرة قادته إلى قاربه ، فقفز فيه كما هو بمعطفه وقبعته ، وراح يجذف بكل قوته ، حتى أسرع به القارب كما لم يسرع به فى أى سباق له من قبل .

وأرخت چو يديها وقد تنفست الصعداء ، وراحت ترقب فتاها المسكين وهو يغرق فى مياه النهر أحزاناً ناء بحملها قلبه الكبير ، وقالت لنفسها : « هذه الرياضة علاج له ، وسيعود بعدها إلى البيت هادئ المزاج آسفاً على ما جرى ، ولا أستبعد أن تمضى أيام قبل أن يرينى وجهه مرة أخرى » .

وتسللت إلى البيت فى بطء ، وهى تحس كأنها قتلت مخلوقاً بريئاً ، ودفنته تحت أوراق الأشجار المتساقطة . قالت تحدث نفسها : « الأفضل أن أبادر إلى مستر لورنس وأحدثه بما جرى ، حتى يكون عطوفاً على فتاى المسكين . ألا ليته وقع فى غرام بث ؛ ولكن . . . ربما أحبها مع الزمن . . لقد تكشف لى الآن كم أخطأت الظن فى أمرها . يا إلهى ! ! كيف تتمنى الفتيات أن يكون لهن محبون ، فإذا وجدنهم رفضن حبهم ؟ ! يا له من أمر رهيب ! »

كانت تعلم أنها الوحيدة التى تستطيع أن تحدث مستر لورنس بما جرى ، ولذلك ذهبت إليه مباشرة وسردت له تفاصيل القصة المؤلمة بجرأة وشجاعة ، ثم انصرفت كئيبة وقد ركبها الهم لإقدامها على رفض لورى دون رحمة أو شفقة .

وجاءت قصتها مخيبة لآمال السيد العجوز ، كان من العسير عليه أن يدرك كيف تستطيع فتاة أن تتحاشى الوقوع فى حب لورى . ولكنه لم يوجه إليها كلمة لوم أو عتاب ، ولم يقل سوى أنه يتمنى لو غيرت رأيها يوماً ما . . . كان يعرف أكثر من چو نفسها أن الحب لا يفرض على القلوب فرضاً ، ولكنه قلق لثورة الفتى عند وداعها ، فراح يهز رأسه آسفاً ، وقد اعتزم أن يباعد بينه وبين هذا الطريق المحفوف بالخطر .

وعندما عاد لورى إلى البيت ، كان التعب قد أنهكه ، ولكنه كان مسيطراً على مشاعره ، فقابله جده بهدوء ، كأنه لا يعرف شيئاً مما حدث . وبقى على هذه الحال ساعة أو ساعتين . ولكن عندما ضمتهما تلك الجلسة التى اعتادا أن يتمتعا بها فى ساعات الغسق ، راح الجد يحاول أن يتلمس الوسيلة إلى فتح الموضوع مغدقاً المديح على الفتى ، شاكراً له ما بذل من جهد طوال العام الدراسى المنصرم . وكان عزيزاً على الفتى المجهد الذى تحطمت آماله ، أن يستمع إلى هذا الإطراء فى صبر وأناة ، وفاض به اليأس حين تصور أن الجهد الذى بذله فى الجامعة ضاع هباء . فقام إلى المعزف يتلهى عن آلامه بالتوقيع عليه ، وتسللت الأنغام

الشجية من النافذة المفتوحة إلى مسامع چو ، التى كانت تتمشى فى الحديقة مع أختها بث ، فأدركت أن فتاها يعزف اليوم « السوناتا الحزينة » بعاطفة جياشة ومهارة لم تعهدها فى عزفه من قبل .

واستمع الجد العجوز لأنغام حفيده معجباً ، ثم قال فى حيرة من لا يعرف كيف يعبر عما بقلبه من عطف وإشفاق :

ـ هذا عزف بديع ، ولكنه لحن حزين يستدر الدموع ، دعك منه وأسمعنى آخر بهيجاً .

وبدأ الفتى لحنا جديداً ، ومضت الدقائق وهو يعزف بحيوية دافقة . وكان من الجائز أن يمضى فى العزف إلى النهاية ، لولا أن تعالى صوت مسز مارش ، أثناء سكتة قصيرة خلال اللحن ، وهى تقول :

ـ چو ، عزيزتى . . تعالى إلى فإنى فى حاجة إليك .

وكانت هذه الجملة الصغيرة هى لسان حال الفتى ، وإن تغير المقصود منها . فما إن سمعها ، حتى ارتبكت أنامله على المعزف ، ثم توقف وقد تاه فى شرود .

وتمتم السيد العجوز يقول لنفسه : « إنى لا أطيق صبراً على هذه الحال ! » . ونهض واقفاً وتحسس طريقه فى عتمة الغسق إلى المعزف ، ووضع يديه الحانيتين على كتفى لورى العريضتين ، وقال فى لهجة تسيل رقة وعذوبة :

ـ إنى أعرف يا ولدى . . إنى أعرف .

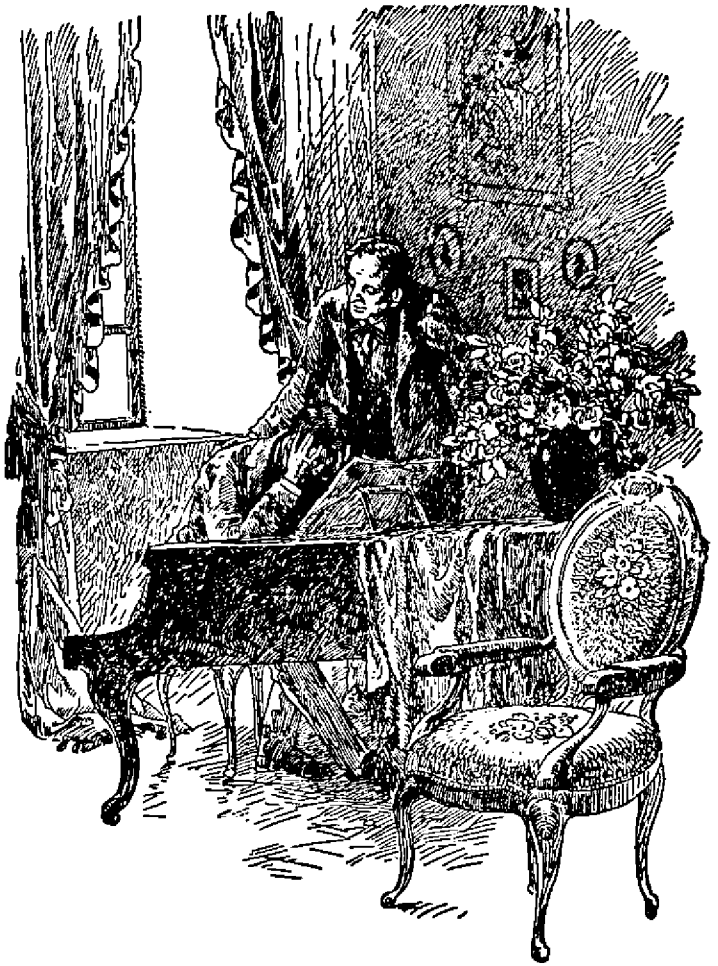

وسكت لورى برهة ، ثم قال فى حدة :

ـ ومن أخبرك ؟

أجاب الجد :

ـ چو نفسها .

وأزاح الفتى يدى جده فى ضيق ، فقد أبت عليه رجولته أن يكون محل رثاء رجل آخر ، حتى ولو كان ذلك الرجل جده العطوف . قال :

ـ إذاً فهذه هى النهاية .

فقال مستر لورنس فى رقة غير معتادة منه :

ـ لا . . لم ينته الأمر بعد ، فما زال عندى ما أطلبه منك وبه تكون الخاتمة ؛ لا أظنك ترحب الآن بالبقاء فى هذا البيت ؟

أجاب لورى فى تحد :

ـ لن تهزمنى فتاة أبداً ، ولن تستطيع چو أن تمنعنى من أن أراها ، وسأبقى هنا ماشئت أنظر إليها كما يحلو لى . .

قال جده :

ـ لا . . لن يكون هذا ، إذا كنت عند ظنى بك سيداً مهذباً . لقد خابت آمالى أنا أيضاً ، ولكن للفتاة عذرها ، ومن الظلم أن تطالبها بما لا طاقة لها به ، وإزاء ذلك لم يبق أمامك سوى أن ترحل لفترة من الزمن . فإلى أين تريد أن تذهب ؟

ونهض الفتى واقفاً ، وهو يضحك باستهتار تأذى له جده ، وقال :

— إلى أى مكان ، فلست أبالى بما يصيبنى بعد ما حدث .

قال الجد :

— بالله عليك لا تفقد صوابك ، واحتمل مصابك كالرجال . رأيى أن تنسى ما حدث وتسافر إلى الخارج كما كنت تعتزم .

قال الفتى :

— لا أقدر .

قال الجد :

— لقد كنت تتحرق شوقاً إلى السفر ، ولقد وعدتك بذلك إن نجحت فى دراستك .

أجاب :

— كنت بالفعل متحمساً للسفر ، ولكنى لم أكن أعتزم السفر وحدى.

وراح لورى يذرع الغرفة ذهاباً وجيئة فى سرعة ، وقد بدت فى عينيه نظرة لم يلحظها جده من حسن الحظ . قال العجوز :

— وأنا لا أريد أن تسافر وحدك ، فهنالك من هو على استعداد للسفر معك ، بل ويسره أن يصطحبك إلى أى مكان فى العالم تريد أن تذهب إليه .

وتوقف الفتى يصغى ، وقال متسائلا :

— ومن هو ياسيدى ؟

أجاب الجد :

ـ أنا !

وفى سرعة أقبل الفتى على جده ، ومد يده وقال فى صوت أجش :

ـ تبنَّ لى من فظ أنانى ، ولكنك تعلم ياجدى . . .

فقال الجد :

ـ بل أعلم ، وليهبنى الله العون ، فقد مررت بهذه التجربة حين كنت صغيراً ، وتكررت مرة ثانية مع أبيك . . والآن . . اجلس هادئاً يا ولدى العزيز ، واستمع لخطتى ، فقد أعددت لها كل العدة ، وبإمكاننا أن نشرع فى تنفيذها فوراً .

وكان أثناء حديثه ، يمسك بالفتى ، كأنما يخشى أن يفلت منه كما فعل أبوه من قبل .

وجلس لورى ، وقال فى نبرات خالية من الشوق والاهتمام :

ـ حسناً يا سيدى . . ما هى خطتك ؟

قال الجد :

ـ لى أعمال فى لندن تحتاج إلى من يشرف عليها ، وقد فكرت أن أوكل إليك هذه المهمة ، ولكنى أستطيع أداءها بنفسى على أحسن وجه ، خصوصاً أن الأعمال هنا تسير على ما يرام بفضل إدارة بروك . إن شركائى يتعهدون كل شىء تقريباً ، وأنا فى انتظار الساعة التى تستطيع أن تحل فيها محلى ، فأتقاعد وأرتاح .

قال لورى وقد أفعمت نفسه بالشكر لجده على هذه التضحية :

— ولكنك تكره السفر يا سيدى ، ولا يرضينى أن تتجشم فى سنك المتقدمة كل هذا العناء من أجلى .

وكان فى الواقع يفضل أن يسافر وحده ، إذا لم يكن من السفر بد .

وعرف الجد ما يجول بخاطر حفيده ، ولكنه خشى عليه أن يسافر وحده وهو فى قلقه النفسى الحاضر ، فقال وهو يكبت أسفه على وسائل الراحة التى سيفقدها بالسفر :

— فليباركك الله على شعورك الطيب يابنى ، ولكنى لم أبلغ أرذل العمر بعد ، وما زالت فى عظامى العتيقة قدرة على تحمل السفر ، خصوصاً فى هذه الأيام التى سهلت فيها وسائل الانتقال ، وأصبح الرحيل من مكان إلى مكان مثل الجلوس فى مقعد مريح .

وتململ لورى فى مقعده ، كأنه لا يشعر بالراحة فيه ، أو كأنما الخطة لا توافقه ، فقال الجد فى سرعة :

— سأكون بالسفر أسعد حالا ، ولا تخش أن أثقل عليك أو أقيد حريتك . سأتركك تفعل ماتشاء ، بينما أتسلى أنا كما يحلو لى ، فإن لى أصدقاء فى لندن وفى باريس أود أن أزورهم ، ويمكنك أن تذهب أنت إلى إيطاليا أو سويسرا أو ألمانيا ، حيث تنعم بما يهفو إليه قلبك من الموسيقى والمتاحف والفن والمناظر والمخاطرات .

وكان لورى يصغى إلى جده محطم القلب زاهداً ، كأنه يرى العالم على سعته بربة ضيقة قفراء ؛ ولكن ما إن استوعب بعض ما قاله العجوز من

كلمات صيغت بمهارة مغرية ، حتى قفز القلب المحطم بين ضلوعه ، وتبدت فى وسط البرية القفراء واحة خضراء يانعة ، فندت عنه تنهدة ، وقال فى صوت خلا من الحماسة :

ـ أمرك ياسيدى ، ولا يهمنى أين أذهب أو ماذا أفعل .

فقال الجد :

ـ ولكنه يهمنى أنا يا بنى ، فاذكر هذه الحقيقة دائماً . سأعطيك مطلق الحرية ، وأنا على ثقة بأنك لن تسىء استغلالها ، أو تستعملها فيما يتنافى مع الشرف والأمانة . فهل تعدنى بذلك يالورى ؟

أجاب :

ـ أعدك بما تشاء ياسيدى .

وقال السيد العجوز فى نفسه : « حسناً ! إنك تجيبنى الآن جزافاً ، ولكن سيأتى الوقت الذى يصونك فيه هذا الوعد من الشرور إذا لم أكن مخطئاً فى تقديرى » .

وكان مستر لورنس رجل حزم وعزم ، يعرف كيف يطرق الحديد وهو ساخن ، ولذلك أعد الخطة ونفذها قبل أن يفيق الفتى من ثورته فينقض الاتفاق . وتحامل لورى على نفسه طوال فترة الاستعداد للسفر ، منفذاً وعوده شأن الرجل المهذب . حقيقة أنه كان ساهماً سريع الغضب ، عازفاً عن الطعام مهملا فى ملبسه ، مقبلا على البيانو يعزف عليه فى ثورة متحاشياً لقاء چو ما أمكن ؛ ولكنه كان يتعزى بالنظر إليها من النافذة ،

ويتأملها وقد شاع فى عينيه حزن مقيم ظل يلاحق الفتاة فى يقظتها ونومها ، ويبعث فى نفسها شعوراً بأنها ارتكبت فى حقه جرماً لا يغتفر .

وكان لورى على خلاف غيره من المعذبين ، لا يذكر حبه الضائع بكلمة ، ولا يسمح لأحد ، حتى مسز مارش ، بأن تعزيه أو تخفف عنه ، وكان سلوكه هذا راحة شديدة لأصدقائه ، وعلى ذلك فقد مضت الأسابيع السابقة للسفر مفعمة بالقلق والتوتر . وكانوا جميعاً يقولون : إن الفتى العزيز البائس ، يسافر لينسى همومه ، ولن يلبث أن يعود وقد استرد سعادته ومرحه . وكان لورى يصغى لهذيانهم باسماً ، ويأبى أن يعلق على أقوالهم ، فى تعالى من يدرك أن إخلاصه لحبه أبدىّ لا يتغير .

وعندما حانت ساعة الرحيل ، افتعل لورى المرح والبهجة ليخفى عواطفه التى أبت إلا أن تظهر للعيان ، ولم تخدع بشاشته المصطنعة أحداً ممن حوله ، ولكنهم تظاهروا بتصديقها إرضاء له . وسارت لحظة الوداع على ما يرام ، إلى أن قبلته مسز مارش ، وهمست فى أذنه بكلمات فيها حنان الأم وعطفها ، وعندئذ انهار ثباته فجأة ، فراح يحتضن كل فرد منهم ويقبله فى عجلة ، حتى الطاهية حنة ، ثم هبط السلم مسرعاً ، كأنما يفر من خطر يهدد حياته . وتبعته چو بعد لحظة ، ووقفت على أولى درجات السلم ، لتلوح له بيدها إذا ما التفت لينظر إليها آخر مرة . ولقد التفت بالفعل ، فلما رآها ، عاد إليها وأحاطها بذراعيه ، ثم قال ضارعاً ، وعيناه تنطقان بالاستعطاف المؤثر :

— چو . . ألا تعدلين عن قرارك ؟

قالت :

— بودى لو استطعت ياعزيزى تيدى .

وعندئذ كف عن الحديث . فمضت لحظة سكوت اعتدل بعدها لورى فى وقفته ، وقال :

— حسناً . . لا بأس .

ثم سار مبتعداً ، دون أن يزيد على ذلك كلمة .

ولكن چو لم تر الأمر حسناً أو لا بأس به . فعندما صارحها بحبه فى المرة الأولى ، وقد أسند رأسه إلى ذراعها ، شعرت أن رفضها له كان طعنة نجلاء فى صدر أحب الناس إليها ، وحين غادرها الآن دون أن يلقى عليها نظرة ثانية ، أدركت أن « الصبى لورى » سافر إلى غير رجعة .

الفصل السادس والثلاثون

سر بث

عندما عادت چو إلى بيتها فى ذلك الربيع ، روّعها تغير حال بث ، وأحزنها ما رأت من تبدل شديد فى وجه أختها . وقد أدهشها أن أحداً من أفراد العائلة لم يكتب إليها فى ذلك ، كأنهم لا يشعرون بما أصاب بث ، أو لعل التغير جاء تدريجاً فلم يجزع له أحد ممن يعيشون معها ، ولكن غيبة چو أبرزت لعينيها التحول الواضح ، فرأت أن وجه أختها ليس باهتاً فحسب ، بل أشد نحولا مما كان عليه فى الخريف الماضى ، وكأنما شفّت نفسها الفانية وتسامت روحها فوق جسدها النحيل ، فاكتنفها

بهاء روحانى جميل يذيب القلوب أسفاً وحسرة . ورأت چو هذا النور يضيء وجه أختها وأحست به ، ولكنها لم تشأ أن تصارح أحداً بذلك . ثم مضت الأيام ، ففقد تأثرها الأول قوته ، وبدت لها بث سعيدة معافية. واندمجت چو فى مشاغلها الكثيرة وهمومها المتعددة ، فنسيت مخاوفها وارتاحت نفسها ؛ ولكن عندما رحل لورى ، واستقر السلام فى البيت ثانية ، عاودها قلقها على بث شديداً ملحفاً .

كانت چو قد اعترفت لبث بخطئها حين ظنت أن لورى يحبها ، فلم تبخل الصغيرة عليها بالصفح والمغفرة ، وعندئذ عرضت عليها بعض المال الذى ادخرته ، لتذهب به فى رحلة إلى الجبال ؛ ولكن بث أبت شاكرة أن تبتعد عن البيت هذه المسافة الطويلة . ورأت چو أن رحلة إلى شاطئ البحر قد تكون أكثر ملاءمة لحال أختها ، ولما كانت مسز مارش لا تستطيع أن تبتعد عن حفيديها أو تتركهما ، فقد رافقت هى بنفسها بث ، وذهبت الاثنتان إلى بقعة هادئة من الشاطئ ، لعل نسيم البحر العليل يعيد إلى الوجه الذابل نضرته .

وعلى الرغم من أنه كان مصيفاً بسيطاً متواضعاً ، فقد آثرت الفتاتان الابتعاد عن رواده المرحين ، لأن حياء بث كان يبعدها عن المجتمعات ، ويزهدها فى الاستمتاع بها . وكرست چو نفسها لخدمة أختها والعناية بها ، وانقطعت الفتاتان عن العالم الذى يدور حولهما ، ولم تلتفتا إلى اهتمام الناس بأمرهما ، فى حين كان القوم يرقبونهما بحنان ، ويعطفون على الفتاة

القوية وهى تلازم أختها المريضة ، لا تبتعد عنها لحظة أو تفارقها ، كأنما تشعر بالغريزة أن الفراق الأبدى بات قريباً .

وكان هذا شعورها فى الواقع منذ بداية الأمر ؛ ولكنها لم تفصح عنه ، فليس أقسى علينا من الصراحة مع أحبابنا فى مثل هذه الأمور . ولقد أحست چو كأن حجاباً أسدل بين قلبها وقلب بث ، فلما مدت يدها ترفعه ، منعتها قدسية الصمت الذى شملها ، فقنعت بالسكوت ، وتركت لبث مهمة بدء الحديث . وعجبت فى نفسها كيف لم تر الأسرة ما رأته هى وكيف غاب عن أهلها ما أصاب أختها ؛ ثم لم تلبث أن حمدت الظروف التى أشفقت عليهم فجعلتهم لا يدركون . وكانت قد آثرت خلال الأسابيع الماضية الهادئة ألا تبوح لأهلها بما رأت من حال بث ، موقنة بأنهم سوف يدركون ما أدركت عندما تعود إليهم الفتاة من المصيف ، دون أن يبدو عليها بادرة من التحسن المنشود . ولكم سألت چو نفسها إذا كانت بث تدرك شيئاً من الحقيقة المرة ، وكان بودها أن تكشف عن الأفكار التى تدور بذهنها ، وهى ترقد طول اليوم على رمال الشاطئ الدافئة ، ورأسها مسند إلى حجر چو ، والنسيم العليل يداعب وجهها ، والبحر يهمس بموسيقاه تحت قدميها .

وأخيراً تكلمت بث . . .

فى يوم من الأيام كانت ترقد ساكنة ، وقد وضعت كتابها جانباً ، وراحت چو تحملق فى وجهها بعينين فاحصتين ، عسى أن تلمح بارقة

من الأمل تشيع فى الوجه الضامر الباهت ، ولكن بصرها ارتد حسيراً أمام جسد أختها الذى ازداد نحولا ، ويديها اللتين وهنتا عن الإمساك بما جمعته لها من الأصداف الوردية . وتملك چو قلق مرير ، لم تشعر بمثله من قبل ، وأحست كأن بث تنساب من بين يديها ، فلم تشعر إلا وهى تقبض بشدة على كنزها العزيز الغالى ، وقد تاه منها البصر فغابت المرئيات عن عينيها . وحين استردت جأشها واستعادت زمام نفسها ، رأت بث تنظر إليها فى رقة بالغة ، لم تكن فى حاجة معها إلى أن تقول :

ــ عزيزتى چو ، يسعدنى أنك تعرفين ما أنا فيه ، ولقد حاولت أن أصارحك بأمرى فلم أستطع .

ولم تجب چو إلا بأن أسندت خدها إلى خد أختها ، وقد انحبس الدمع فى عينيها ، شأنها حينما تغلبها العواطف الجياشة . وكانت لحظة قاسية انهارت فيها شجاعة چو ، فراحت بث تطوقها بذراعها وتسرى عنها وتهدئها بكلمات تسيل عذوبة ورقة . قالت :

ــ لقد عرفت مرضى منذ وقت طويل ياعزيزتى ، ولم يعد يصعب علىّ أن أفكر فيه أو أحتمله . لقد روضت نفسى على قبوله ، فهدأت متاعبى وتبددت آلامى ، ويحسن بك أن تنظرى إلى الموضوع من هذه الزاوية ، وتأكدى أننى الآن أحسن حالا ، فلا تستسلمى للحزن من أجلى .

قالت چو تسألها :

ــ أكان هذا سر حزنك فى الخريف يا بث ؟ أكنت تشعرين

بالمرض فى ذلك الوقت وتكتمين أمره عنا طوال هذه المدة ؟

وكانت نهباً للحزن على أختها ، مرتاحة إلى أن لورى لم يكن له شأن فى هموم بث وأحزانها .

قالت بث :

— نعم ، ولقد قطعت الأمل عندئذ ؛ ولكنى لم أشأ أن أستسلم لليأس ، فرحت أحاول إقناع نفسى بخطئى ، ولذلك لم أخبر أحداً . ولكنى كنت أضعف حين أرى ما يتمتع به الأصحاء من حولى ، ويستبد بى الشقاء كلما سمعتكم تتحدثون عما تعدونه للمستقبل من مشروعات يعز على ألا أشارككم فيها .

فقالت چو :

— أواه يابث ! أتخفين سرك عنى طول هذه المدة ؟ كيف طاوعك قلبك على كتمانه عنى ؟ ولم لم تخبرينى لأعينك وأخفف عليك بدل أن تحملى العبء وحدك ؟

وتهدج صوت چو وهى تعتب على أختها برفق ، وتصدع قلبها لجهاد بث وحيدة ، حين أدركت قرب حرمانها من الحب والحياة . لاشك أنها قاست طويلا ، وصارعت كثيراً ، حتى أمكنها أن تستسلم لمصيرها المحتوم ، وتتحمل نصيبها راضية منشرحة .

قالت بث :

— قد أكون مخطئة فى صمتى ، ولكن عذرى أنى استهدفت الصواب

وسعيت إليه . لم أكن واثقة مما بى ، ولم يرشدنى أحد إلى علتى ، فبقيت أتعلق بالأمل . وقد حسبتها أنانية منى أن أزعجكم بمرضى عندما كانت والدتى مشغولة بميج ، وآمى غائبة عنا ، وأنت سعيدة مع لورى ، أو هذا على الأقل ما خيل إلىّ حينئذ .

فصاحت چو ، وقد أسعدها أن تجد الفرصة سانحة لتقول الحقيقة :

— أما أنا ، فقد ظننت أنك تحبينه يابث ، ولذلك تركت البيت وسافرت ، لأنى لم أستطع أن أبادله عاطفته .

وأخذت الدهشة بث لهذه الفكرة ، فابتسمت چو رغم حزنها ، وقالت بحنان :

— إذن لم تكونى مغرمة به يا عزيزتى ، لقد خشيت أن يكون قلبك الصغير مدلهاً بحبه طول هذا الوقت .

فقالتَ بث فى براءة الأطفال :

— ولماذا أحبه يا چو ؟ وكيف أجرؤ على ذلك وهو غارق فى غرامك ؟ إننى أعزه من كل قلبى لعطفه علىّ وكرمه معى ، ولكنى أعتبره مجرد أخ ، وليته يصبح أخاً فى يوم من الأيام .

فقالت چو بحزم :

— لن يكون ذلك عن طريقى ، إن آمى ما زالت أمامه ، تناسبه وتصلح له ؛ أما أنا فلا طاقة لى بهذه الأمور ، ولا يعنينى ما يجرى

لغيرى . إنى مشغولة بأمرك يابث ، وكل همى أن تستردى صحتك، ولا بد أن تتحسنى .

فقالت بث :

— وهذا ما أتمناه وأبذل الجهد فى سبيل تحقيقه ، ولكنى أفقد كل يوم قليلا من عافيتى ، فيزداد يقينى أن لا أمل فى الشفاء . إنه كالجزر يا چو ، ينحسر بطيئاً ولا يقف أبداً .

فقالت چو :

— بل يجب أن يوقف ، إنك ما زلت فى التاسعة عشرة ، أى فى نضرة الشباب ، ويجب ألا ينحسر جزرك سريعاً . لن أدعك تذهبين ، سأعمل وأصلى وأجاهد ضد هذا المرض ، وأبقى عليك رغم كل شىء . لم تفلت الفرصة بعد ، ولا بد أن أجد السبيل إلى إنقاذك ، سيشملك الله برحمته الواسعة ، ولن يقسو علىّ فيأخذك منى .

وانخرطت فى البكاء ، بعد أن صاحت بهذا الحديث فى عناد ، إذ لم تكن نفسها قد استكانت بعد كما استكانت واستسلمت روح بث التقية .

ومن شأن المؤمنين ألا يتحدثوا عن إيمانهم ، لأن تقواهم تظهر فى أفعالهم أكثر من أقوالهم ، وهذا الإيمان بالله يكون عادة أقوى أثراً من العظات البليغة والنصائح الغالية ، ولذلك لم تحاول بث أن تلوم چو على حزنها أو تنصحها أن تتذرع بإيمانها ؛ ولكن حبها لأختها ازداد أمام ما أبدته نحوها من شعور رقيق وعاطفة جياشة ، وتعلقت بهذا الحب

الدنيوى تعلقاً شديداً أضفى على قلبها آيات من السلام والهدوء ، ولا غرابة فالمحبة الخالصة أقصر طريق إلى الله . ولم تستطع بث أن تفسر كنه الإيمان الذى غمر نفسها فوهبها الصبر والشجاعة ، وهوّن عليها أن تترك الحياة ، وتنتظر الموت راضية . كانت كالطفل الوديع لا تسأل ولا تناقش ، إنما تترك كل شيء لله والطبيعة ، وهما أبونا وأمنا ، واثقة أنهما وحدهما القادران على إرشادنا فى هذه الدنيا إلى سواء السبيل وبث القوة فى قلوبنا وأرواحنا . ولكنها لم تستطع فى ذات الوقت أن تقول : « إنها سعيدة بالفراق الأبدى » ، إذ كانت الحياة عزيزة عليها ، وليس من اليسير أن تتركها راضية مغتبطة ، فجعلت تقول باكية : « إنى أجاهد لأحمل نفسى على الرضا بنصيبى » . ثم لاذت بصدر أختها ، ليطويهما الحزن أمام شبح الفراق الأليم ، وقد تبدى سافراً لأول مرة .

وبعد قليل استردت بث هدوءها وقالت :

— هل تصارحينهم بالحقيقة عندما نعود إلى البيت ؟

وتنهدت چو وقالت :

— لا داعى لذلك ، فلن يطول الزمن حتى يدركوها بأنفسهم .

فقد كان من الواضح أن صحة بث تتدهور سريعاً من يوم إلى يوم.

فقالت بث :

— بل يجب أن تخبريهم ، فالحب يعمى أصحابه عن رؤية الكوارث وهى قادمة ، وقد لا يدركون شيئاً لفرط حبهم لى ، إنى أكره أن أخفى عنهم

سرًّا ، ومن دواعى الرحمة بهم أن نهيئ أذهانهم للأمر . إن لميج أطفالها وزوجها يسرون عنها ، أما أبى وأمى فليس لهما إلا أنت يا چو ، فعدينى أن تقفى إلى جانبهما ، وتخففى عليهما وقع الخبر .

فقالت چو ، وهى تفتعل الانشراح :

ــ سأفعل ذلك إن استطعت يا بث ، ولكنى لم أفقد الأمل بعد ، وما زلت أعتقد أنك تنساقين مع أوهام المرض ، ولذا لن أدعك تسترسلين فيها .

ورقدت بث ، وأسندت رأسها إلى حجر چو ، ولبثت برهة صامتة ، وقد تاهت فى بيداء الفكر ، ثم قالت فى هدوئها المعتاد :

ــ لست أعرف كيف أعبر عما بنفسى يا چو ، وفى الواقع ، أنا لا أستطيع الكلام بصراحة إلامعك ، ولك وحدك أبوح بمكنون سرى . إنى أحس إحساساً غامضاً بأن أجلى لن يطول . إنى أختلف عنكن جميعاً فى كل شىء : ما رسمت قط خطة لمستقبلى ، ولا فكرت فى شبابى كما تفعلن ، وما دار بخلدى يوماً أن أتزوج كما دار بخلدكن ، لا ، ولا توقعت أن أكون شيئاً فى الحياة سوى بث الصغيرة الغبية ، التى لا هم لها إلا أن تهرول فى أرجاء البيت بلا فائدة ولا هدف ولا أمل . ما أردت يوماً أن أخرج من البيت أو أتركه أو أتغيب عنكن ، ولذلك أجد اليوم مشقة تعصر قلبى ، حين أتخيل غيبتى الأبدية عنكن . وأؤكد لك يا چو ، أننى لست خائفة من مصيرى ، ولكنى واثقة بأنى سأستوحش إليكن وأحن إلى البيت ، حتى ولو كانت الجنة مثواى .

ولم تقو چو على الكلام ، وساد السكون لحظات طويلة ، إلا من حفيف الرياح وهمسات الأمواج على الشاطئ ، ومر بجوارهما نورس أبيض الجناح ، التمع ضوء الشمس على صدره الفضى ، فراحت بث ترقبه بعيون حزينة حتى اختفى وراء الأفق . وأقبل عصفور رمادى يقفز على الرمال ، وهو يتلفت حوله جذلا ، كأنما يمتع قلبه بجمال الشمس والبحر . واقترب العصفور من بث ونظر إليها مطمئناً ، ثم قفز إلى صخرة دافئة وراح يسوّى ريش جناحيه البليلين . وابتسمت بث ، وأحست براحة نفسية ، فقد بدا لها أن هذا المخلوق الصغير يفتح قلبه لها ، ويهبها صداقته المتواضعة ، ويذكرها بأنه ما زالت أمامها مباهج تتمتع بها فى هذه الدنيا . قالت :

— ياله من طير عزيز ! انظرى كم هو أليف يا چو ؟ إنى أفضل العصافير على النورس ، فالنورس ذو جمال وحشى ، أما هذا العصفور فيبدو سعيداً وديعاً مطمئناً ، وكنت فى الصيف الماضى أطلق على هذا النوع من الطيور اسم « عصافيرى » . وكانت أمى تقول بأن هذه العصافير تذكرها بى ، فهى دائماً تعمل على شاطئ الأمان راضية : أما أنت يا چو فأشبه بذلك النورس القوى الوحشى ، الذى يغرم بالرياح والعواصف ، ويسعده أن يوغل بعيداً فوق أمواج البحر الثائرة ، ولعل ميج تشبه الحمامة الوادعة ، وآمى كالكروان الذى كثيراً ماتذكره فى خطاباتها . إنها تحاول مثله أن تطير عاليا ، حتى تصل إلى السحاب ، ثم تهبط إلى عشها الأمين سالمة . يا للعزيزة الصغيرة ، ويا لطموحها العظيم ؟ ولكنها تطوى بين

ضلوعها قلباً كبيراً رقيقاً ، ولن تستطيع الآمال ، مهما حلقت بها ، أن تنسيها بيتها القديم . ألا ليتنى أراها ثانية ! ولكنها تبدو لى بعيدة فى آخر الدنيا !

ورأت چو أن تغير مجرى الحديث ، حتى لا ترهق نفس أختها المعذبة ، فقالت :

ـ ستعود فى الربيع ، وعندئذ ترينها وتتمتعين بقربها . ستكونين أحسن صحة إذ ذاك فأنا مصممة على معونتك ، وسأبذل كل جهد لأساعدك على الشفاء وأعيد إلى خديك توردهما .

فقالت بث وكأنما تفكر بصوت عال :

ـ لا تعللى نفسك بالأمل يا چو ، فلن يجدى الأمل شيئاً على ما أعتقد ، واجبنا ألا نحزن ، حتى نستمتع بصحبة بعضنا بعضاً ، ونحن فى انتظار النهاية . وسوف تمر بنا أوقات سعيدة ، لأنى لا أقاسى الآن ألماً على الإطلاق ، وأعتقد أنه بمعونتك سينحسر الجزر فى سهولة ويسر .

ومالت چو على الوجه الهادئ الوديع ، وطبعت عليه قبلة صامتة ، وهبت فيها جسمها وروحها لعزيزتها بث .

وتحقق قول چو حين عادت الفتاتان إلى البيت ، فما إن شاهد الوالدان ابنتهما حتى أدركا أن مخاوفهما ، التى كانا يضرعان إلى الله أن يبددها ، قد تحققت .

ودخلت بث بعد رحلتها القصيرة إلى المصيف مكدودة متعبة ، ولم

تلبث أن آوت إلى فراشها بعد أن أبدت سعادتها بالعودة إلى البيت.

وصحبتها چو إلى غرفتها ، ولكن عندما نزلت إلى البهو ثانية ، أدركت لفورها أن الحقيقة قد تبلجت لوالديها ، مما وفر عليها مشقة التصريح ، فقد وقف أبوها مسنداً رأسه إلى رف المدفأة ، ومدت إليها أمها ذراعها كأنها تطلب العون منها ، فتقدمت چو إليها تواسيها دون أن تقول كلمة واحدة .

الفصل السابع والثلاثون

أفكار جديدة

ما إن تحل الساعة الثالثة مساء ، حتى يهرع أهل الطبقة الراقية فى مدينة نيس إلى « متنزه الإنجليز » ، لأنه مكان جميل جذاب ، فى جانب منه الأزهار والنخيل والشجيرات المستوردة من المناطق الحارة ، وفى الجانب الآخر يهدر البحر بأمواجه المتلاحقة ؛ ومن الجهة الثالثة يمر شارع فخم تصطف على جانبيه الفنادق الكبيرة والبيوت الأنيقة ، أما الجهة الرابعة فتمتد فيها بساتين الفاكهة حتى تصل إلى التلال القريبة . وفى الأيام

الصحوة المشمسة ، يصبح هذا المكان كالكرنفال : ترى فيه أبناء دول مختلفة ، وتسمع لغات عدة ، وتشهد ملابس متباينة : تجد الإنجليز المتغطرسين ، والفرنسيين المرحين ، والألمان الجادين ، ثم الإسبانيين بوسامتهم ، والروس بضخامتهم ، واليهود بمكرهم ، والأمريكيين بلطفهم وتسامحهم .

ترى هؤلاء كلهم راكبين عرباتهم المطهمة ، أو متسكعين على أقدامهم فى أرجاء المكان ، أو جالسين فى جانب من المكان يثرثرون ، ويروون أخبار الناس ، وينتقدون البارزين من زوار المدينة الجدد ، مثل ريستورى أو ديكنز ، أو ڤيكتور عمانويل أو ملكة جزر ساندوتش . والعربات فى متنزه الإنجليز تختلف اختلاف الناس ، ومنها ما تجتذب الاهتمام العام ، كتلك العربات الصغيرة الشبيهة بالسلات ، التى تسوقها سيدات أنيقات ، وتجرها أمهار قوية نشيطة ، وقد قبع الخدم فى أعلى مقاعدها الخلفية .

وفى يوم عيد الميلاد ، كان يسير فى ذلك المتنزه الأنيق ، فتى فارع الطول ، يتحرك بخطوات وئيدة وقد شبك يديه وراء ظهره ، وبدا عليه شرود الذهن . وكان الفتى متناقضاً فى شكله ، فملامحه تشبه الإيطاليين ولكنه يرتدى الملابس الإنجليزية ، ويمشى بالطريقة الأمريكية ، وقد اجتذب هذا التناقض اهتمام السيدات ، فتبعنه بنظرات الرضا والارتياح . أما الرجال المتأنقون الذين يرتدون السترات المخملية السوداء ؛

والقفازات الصفراء وأربطة العنق الحمراء ، ويحلون صدورهم بزهور البرتقال فكانوا يتأملونه شزراً ، ثم يهزون أكتافهم حاسدين .

وكان المتنزه زاخراً بالوجوه الجميلة التى تنتزع الإعجاب ، ولكن الفتى لم يكن يعبأ بها ، إلامن لفتة هنا أو هناك يلقيها على فتاة شقراء أو سيدة ترتدى ثوباً أزرق . ووصل الفتى فى سيره إلى نهاية الطريق ، ثم وقف لحظة عند تقاطعه متردداً . كان حائراً فيما يفعله : أيذهب إلى الحديقة العامة ليستمع إلى عزف الفرقة الموسيقية ؟ أم يتجه إلى شاطئ البحر فى طريق قلعة «هَلْ» ؟

وبينما هو فى تفكيره ، سمع وقع حوافر مهر يسير خبباً نحوه ، فلما رفع رأسه ينظر ناحيته ، رأى عربة صغيرة تقبل صوبه مسرعة ، وليس فيها سوى سيدة تجلس بمفردها . وكانت الراكبة فتاة شقراء ترتدى ثوباً أزرق ، حدق الفتى فيها لحظة ، ثم أضاء وجهه بشراً ، ولوح بقبعته لها كالأولاد وهو يهرع إلى لقائها .

وألقت آمى بالأعنة جانباً ، وأمسكت باليدين الممدودتين ، وصاحت — أهذا أنت حقاً يالورى ؟ ظننتك لن تأتى أبداً !

ومرت بالصديقين فى تلك اللحظة سيدة فرنسية تسير مع ابنتها ، فلما رأت حرارة ذلك اللقاء ، أسرعت تبتعد عن المنظر الفاضح خشية أن تتأثر ابنتها بمثل هذا السلوك الجرئ الذى يأتيه هؤلاء الإنجليز المعاتيه .

وأجاب الفتى قائلا :

ـ لقد تأخرت فى طريقى إلى هنا ، ولكنى وعدت أن أقضى معك عطلة عيد الميلاد ، وهأنذا بين يديك .

سألته :

ـ كيف حال جدك ؟ ومتى حضرت ؟ وأين تقيم ؟

قال يرد على أسئلتها بالترتيب :

ـ فى صحة جيدة ، وجئت ليلة أمس ، وأقيم فى شوفين . ولقد مررت بفندقكم فوجدتكم جميعاً فى الخارج .

ـ عندى أخبار كثيرة ، ولست أدرى من أين أبدأ . تعال اركب معى حتى نتحدث على راحتنا . كنت أتنزه وحدى لأن فلو ترتاح استعداداً لسهرة الليلة .

قال :

ـ وما برنامجكم الليلة ؟ مرقص ؟

أجابت :

ـ يقيم الفندق حفلة عيد الميلاد إكراماً للنزلاء الأمريكيين الكثيرين ، وستأتى معنا طبعاً ، فعمتى يسرها أن تراك .

فشبك الفتى ذراعيه على صدره واستند إلى المقعد قائلا :

ـ أشكرك . . والآن ، إلى أين نذهب ؟

وسرت آمى لقوله ، إذ كانت تحب أن تقود العربة بنفسها ، وكان

يملأ صدرها غبطة أن ترفع مظلتها وتمسك الأعنة الزرقاء التى تمتد فوق ظهور الأمهار البيض ، وتفرقع السوط بيدها . قالت :

— هلم إلى البنك أولاً نسأل عن بريد لى ، وبعد ذلك نذهب إلى قلعة « هَلْ » فالمنظر هناك يأخذ بالألباب ، وأنا أحب أن أطعم الطواويس بيدى . أزرت القلعة من قبل ؟

قال :

— زرتها كثيراً فيما مضى ، ولكن لا مانع مطلقاً من أن ألقى عليها نظرة أخرى .

قالت :

— والآن قص علىّ أخبارك كلها ، فآخر معلوماتى عنك ما كتبه لى جدك ، من أنه ينتظر عودتك من برلين .

قال :

— نعم ، لقد قضيت شهراً فى برلين ، ثم التقيت بجدى فى باريس ، حيث أقام طول الشتاء . إن له أصدقاء هناك ، وقد وجد فى قربهم منه تسلية كافية ، أما أنا فقد كنت أسافر وأعود إليه ، وكانت الأمور تسير معنا على مايرام .

فقالت آمى ، وقد استشعرت غموضاً فى سلوك لورى :

— هذه خطة اجتماعية موفقة .

قال :

— ولِمَ لا ؟ إن جدى يكره السفر ، وأنا لاأطيق الاستقرار فى مكان واحد ، ولذلك يفعل كل منا ما يروقه ، حتى لا يتكبد أحدنا مشقة من أجل الآخر . إنه يصاحبنى معظم الوقت ، ويلتذ بسماع أخبار سفرى ، أما أنا فيسرنى دائماً أن أجد من يرحب بى عند عودتى من رحلاتى .

ونظر الفتى إلى الشارع الذى يقودهم إلى ميدان نابليون ، بمدينة نيس القديمة ، وقال مشمئزّاً :

— ياله من زقاق قذر ! ما رأيك ؟

قالت :

— إن للقذارة سحرها ، ولذا لا يضايقنى أن أمر بها ، ثم إن من بين هذه المنعطفات الضيقة يمكنك أن ترى النهر والتلال ، وهو منظر غاية فى المتعة . علينا أن ننتظر هنا حتى يمر هذا الموكب إلى كنيسة القديس جون.

وراح لورى ينظر شارداً إلى الموكب الدينى وفيه القساوسة بملابسهم الفضفاضة ، والراهبات المحجبات بالأبيض الشفاف يحملن الشموع الموقدة ومن حولهن صبيان صغار بملابس زرقاء ، يرتلون الأدعية وهم فى طريقهم إلى الكنيسة . وراحت آمى تتأمل لورى فى قلق وخوف ، إذ وجدت أن الفتى المرح الصبوح الذى تركته فى بلدتها ، قد أصبح الآن رجلا حزيناً واجماً . حقيقة أنه ازداد وسامة وأناقة عن ذى قبل ؛ ولكنه بدا بعد أن مضت فرحة لقائه بها ، متعباً مرهقاً . لم يكن مريضاً ولم يكن تعساً ، ولكن كان أكثر وقاراً ، كمن تقدم به العمر زمنا أطول

بكثير من العام الذى مضى منذ رأته لآخر مرة . ولم تفهم آمى سر تغيره ، ولم تجرؤ على سؤاله ، إنما هزت رأسها فى حيرة ، ثم عادت إلى قيادة الخيل بعد أن مر الموكب من تحت أقواس قنطرة پاجليونى ، واختفى داخل الكنيسة . قالت بالفرنسية التى ازدادت ذخيرتها منها كمًّا لانوعاً :

— فيم تفكر ؟

قال فى انحناءة ، وقد وضع يده على قلبه ، ونظر إليها معجباً :

— أفكر فى أن المدموازيل قد استفادت كثيراً من إقامتها فى فرنسا والنتيجة غاية فى الإبداع . .

وتخضب وجه آمى بحمرة الخجل ، ولكنها لأمر ما لم تطرب لمديحه اللبق ، بقدر ما كانت تطرب فيما مضى لكلمات إعجابه الخشنة ، كان فى تلك الأيام يربت على رأسها ، ويدور حولها فى الحفلات ويقول بابتسامة مخلصة : « شكلك فى مجموعه ظريف ! » . إن هذا الأسلوب الجديد لايعجبها ، فعلى الرغم من نظرة الإعجاب ، كان عدم الاهتمام يرن فى حديثه .

قالت تحدث نفسها فى خيبة أمل ، رغم تظاهرها بالمرح والهدوء : « إذا كان هذا ما سيصير إليه عندما يكبر ، فالأفضل أن يبقى صبيًّا . »

وعندما وصلت إلى البنك ، وجدت البريد العزيز الذى تنتظره من البيت ، فأسلمت الأعنة للورى ، وجعلت تقرأ سعيدة ، والعربة تسير بها

فى الطريق المتعرج الظليل ، بين الأسيجة الخضراء والورود المزدهرة تحية لفصل الصيف .

قالت وهى تنظر بحزن إلى إحدى صفحات الخطاب :

ــ تقول والدتى إن صحة بث تزداد سوءاً ، وكثيراً ما كنت أشعر بأن الواجب يقضى على بالعودة إلى البيت ، ولكنهم جميعاً يلحون على بالبقاء ، ويعتقدون أنها فرصة لن تتاح لى مرة أخرى ، ولذلك بقيت عملا برأيهم .

قال وهو يقترب منها ، وينظر إليها نظراته القديمة :

ــ أحسنت بالبقاء يا عزيزتى ، وليس أدعى إلى غبطتهم وراحة بالهم من أن تستمتعى بوقتك سعيدة هانئة .

وانزاح الخوف الذى جثم على قلب آمى ، وسرى عنها ، فقد وجدت فى تصرفه العطوف ونظرته الحانية ثم كلمة الإعزاز التى قالها ، ما أكد لها أنها سوف تجد فى غربتها هذه ، سنداً تركن إليه إذا ما أصابها مكروه . واستخفها الطرب فضحكت وأرته رسماً صغيراً من ريشتها ، صورت فيه أختها چو فى ملابس الكتابة ، وقد وقفت شرائط قلنسوتها رأسية متصلبة ، ومن فمها تخرج جملة تقول : « العبقرية تحترق » .

وابتسم لورى وأخذ الصورة وأودعها جيب سترته ، حتى لا يطيرها الهواء ، وراح ينصت فى اهتمام إلى آمى وهى تقرأ عليه الخطاب المرح الذى تلقته .

ووقفت بهما العربة بين خرائب القلعة القديمة ، فقالت آمى وهى تهبط إلى الطواويس الرائعة التى أقبلت عليهما تنشد الطعام :

— هذا ولا شك عيد بهيج ، تحققت فيه كل أسباب السعادة ؛ ففى الصباح جاءتنى الهدايا ، وبعد الظهر تلقيت بريداً من الأسرة وفزت بلقائك ، وفى المساء ينتظرنى حفل رائع .

ووقفت تضحك وتتسلى بإلقاء فتات الخبز إلى الطيور الجميلة ، وكما تفحصت لورى من قبل ، استبد حب الاستطلاع بلورى ، فراح يفحصها بنظراته ، ليرى ماذا فعل الزمان بها ، وما أحدثته الغيبة فيها من تغيرات . ولم يجد لورى بها ما ضايقه أو خيب رجاءه ، بل كانت على العكس محط رضاه وإعجابه : حقيقة أنها كانت تتصنع فى الحديث والحركات أحياناً ، ولكنها ظلت كعهده بها رشيقة جميلة مرحة ، ولم يزد عليها سوى شىء لا يمكن التعبير عنه ، فى طريقة الملبس والحركة ، هوما نسميه بالأناقة . كانت تتميز دائماً بالنضج الباكر ، وقد أفادت من رحلتها خبرة فى أسلوب الكلام والمشى ، فبدت امرأة محنكة أكثر من حقيقتها البريئة الغريرة ، كما ظلت محتفظة بعزمها القوى وصراحتها الأصيلة اللذين لم يتأثرا بأى طلاء أجنبى .

لم يقرأ لورى كل هذه المعانى فى وجهها وهى تطعم الطواويس ، ولكنه رأى فيها من بواعث الرضا ما جعله يحتفظ فى قلبه بصورة جميلة ، لفتاة وسيمة تنعكس أشعة الشمس المشرقة على ثوبها الناعم وخديها المتوردين ، وشعرها الذهبى الوهاج ، وتزيد بحسنها جمال المنظر الطبيعى الذى تقف فى وسطه .

وحين صعدا معاً إلى الهضبة الحجرية التى تتوج التل ، لوحت آمى بيدها كأنما ترحب بمجىء الفتى إلى بقعتها المفضلة . قالت وهى تشير هنا وهناك :

ــ أتذكر الكاتدرائية ؟ والصيادين وهم يجرون شباكهم فى الخليج ؛ ثم الطريق إلى فيلا فرانكا وبرج شوبرت ؟ أتذكر ما هو أجمل من هذا كله ، أى تلك البقعة اللامعة فى وسط البحر ، التى يسمونها جزيرة كورسيكا ؟

قال بلا اهتمام :

ــ أذكرها . . إنها لم تتغير كثيراً .

قالت آمى وهى تتمنى أن يشاركها فى سرورها ومرحها :

ــ ترى كم تدفع چو ، لترى هذه البقعة اللامعة ؟

و لم يزد رده عن كلمة « نعم » ، ثم التفت إلى البحر يبحث بأنظاره عن تلك الجزيرة التى زاد اهتمامه بها من أجل شخص أعز عليه من نابليون.

قالت آمى وهى تجلس استعداداً لحديث ممتع :

ــ تأملها مليًّا من أجل چو ، ثم تعال وحدثنى عما مضى من أخبارك كلها . .

ومع أن لورى جلس بجانبها يجيب على أسئلتها بصراحة ، غير أنها لم تشعر من حديثه بما كانت تنشده من متعة ، ولم تعرف منه أكثر من أنه جاب القارة الأوربية وزار اليونان . وبعد ساعة قضياها فى السير هنا

وهناك ، عادا إلى البيت راكبين ، حيث قدم تحياته واحترامه لمسز كارول ثم غادر الفندق على أن يعود فى المساء .

وجدير بالذكر أن آمى عنيت بتزيين نفسها فى تلك الليلة ، فقد غير بعد الفتى عنها طوال هاتين السنتين نظرتها إليه ، وجعلها ترى صديقها القديم فى ضوء جديد . ولم يعد لورى ذلك « الصبى » ، بل أصبح رجلا وسيماً ترتاح إليه النفس . وأحست رغبة فى أن تعجبه ، وكانت تعرف مواطن الحسن فى نفسها ، فراحت تبرزها وتعنى بها بذوق ومهارة ، وهما رأس مال كبير لفتاة مثلها جميلة ولكنها معدمة :

وكانت أقمشة التركلتان والتل رخيصة الثمن فى نيس ، فكانت تستعملهما فى مثل هذه المناسبات . وتبعاً للطراز الإنجليزى الرصين ، الذى يليق بالفتيات ، تزينت بزهور طبيعية ، وأساور قليلة ، وحلى رخيصة الثمن ولكنها جذابة جميلة . وكانت الروح الفنية تتغلب عليها أحياناً فتتحذلق فى تصفيف شعرها ، أو ترتدى ملابس كلاسيكية غريبة ، أو تتخذ وقفات تتشبه فيها بالتماثيل ، ولكننا نغفر لها هذه الهنات ، فبكل منا نواح ضعيفة ، وللشباب نزوات تسر أنظارنا وتطرب قلوبنا .

قالت آمى تحدث نفسها وهى تلبس ثوب فلو الأبيض الحريرى القديم وتغطيه بغلالة جديدة برزت من بين ثناياها اللامعة كتفاها الناصعتان ورأسها المتوج بشعرها الذهبى الذى صففته على شكل فنى جذاب :

ـ « أريده أن يرانى فى أجمل حال ، ليخبرهم بذلك عند عودته . »

وكانت من الذكاء بحيث لم تتصنع فى تصفيف شعرها ، بل جمعت خصلاته الغزيرة وعقصتها فوق مؤخر رأسها فى عقدة بسيطة . وكانت تقول لمن ينصحها بتجعيد شعرها أو جدله :

ـ أعرف أننى لا أتبع الطراز الحديث ، ولكن طريقتى فى تصفيف شعرى تناسبنى جداً ، وأنا لا أحب أن أبدو فى شكل مخيف .

ولما لم يكن لديها من أدوات الزينة ما يناسب هذا الحفل الهام ، فقد ضمت أطراف ثوبها بزهور الأزاليا ، وزينت أكتافه بعناقيد خضراء رقيقة ، وتطلعت فى غبطة إلى حذائها الأبيض المصنوع من الساتان ، وقد تذكرت حذاءها القديم الذى كانت قد طلته باللون الأبيض ؛ ثم لبست الحذاء وراحت تسير به فى الغرفة جيئة وذهاباً ، وهى معجبة بقدميها الارستقراطيتين .

قالت وهى تنظر فى المرآة إلى نفسها بعين ناقدة ، وقد أمسكت فى كل يد من يديها بشمعة مضيئة : « إن مروحتى الجديدة تتلاءم جداً مع زهورى ، وقفازى منسجم جذاب ، والدنتلا التى تزين منديل عمتى توافق لون ثوبى ، ولو كان لى أنف وفم من الطراز الكلاسيكى لاكتملت بهما سعادتى » .

وعلى الرغم من هذا العيب الذى كان مصدر عذابها ، بدت فى تلك الليلة ارشق وأجمل من المعتاد . وكانت تؤمن أن الإسراع فى المشى لا يناسبها ، والخطوات المتئدة تلائم طولها الفارع ، فخرجت من غرفتها

تخطر فى مشيتها ، وسارت إلى القاعة الكبرى تنتظر لورى ، ثم وقفت تصلح هندامها تحت أنوار الثريا الكبيرة ، فكان لانعكاس الضوء على شعرها أثره الجميل ؛ ولكنها لم تقف طويلا فى مكانها هذا ، فبعد تردد قصير سارت إلى ركن بعيد ، كأنما أخجلتها رغبتها الصبيانية فى أن تكون أول من يقع عليها نظره عندما يدخل . وقد أحسنت صنعاً بذلك ، إذ أن لورى تسلل إلى القاعة فى غفلة منها ، فلما رآها ، كانت تقف أمام النافذة البعيدة ، وقد أدارت رأسها فى لفتة صغيرة ، وضمت أطراف ثوبها بإحدى يديها ، ومن خلفها انسدلت الستائر الحمراء ، فأبرزت قوامها النحيف وجسدها الناصع ، وعندئذ خيل إليه أنها تمثال جميل أحسن اختيار مكانه .

ونظر لورى إليها برضاً كانت تتمنى أن تراه فى عينيه ، وقال :

ــ مساء الخير أيتها الإلهة ديانا !

وكان لورى مرحاً على غير عادته ، وكان مجرد تفكيرها فى أنها ستدخل قاعة الرقص مستندة إلى ذراعه الأنيقة ، يملأ قلبها سروراً وغبطة ، فأجابت باسمة :

ــ مساء الخير أيها الإله أبولو !

قال وهو يقدم لها باقة جميلة فى ماسك أنيق للأزهار ، كثيراً ما كانت تراه فى نافذة محل الزهور الفخم ، فتتمنى الحصول عليه :

ــ هذه زهورك ، ولقد نسقتها بنفسى على غير الطريقة التى تكرهينها والتى كانت حنة تسميها « الباقة البلهاء » .

قالت فى امتنان :

ــ هذا كرم عظيم منك ، ولو كنت أعلم بحضورك اليوم ، لأعددت لك بالمثل هدية ، ولو أنها لن تكون فى جمال هذه .

قال لها ، وقد شبكت الماسك الفضى حول معصمها :

ــ شكراً ، إنها أقل مما يجب ، ولكنها ازدادت الآن جمالا .

قالت :

ــ خل عنك هذه الأقوال .

قال :

ــ كنت أظن أنك تحبين هذا النوع من المجاملات .

قالت :

ــ ليس منك ، فمجاملاتك تبدو مصطنعة ، وأنا أفضل عليها طريقتك القديمة الخشنة فى إبداء إعجابك .

قال بارتياح ملحوظ :

ــ يسعدنى أن أسمع منك هذا الكلام .

ثم زرّ لها قفازيها ، وسألها إن كان رباط رقبته فى موضعه المناسب كما تعود فى الماضى أن يفعل ، عندما كانا يذهبان معاً إلى حفل ما .

واجتمع عقد المدعوين فى قاعة الطعام المستطيلة ، وكانت ليلة لا يتأتى مثلها إلا فى القارة الأوربية . فقد دعا الأمريكيون الكرماء كل من يعرفون فى مدينة نيس ، ولما كانوا لا يتحيزون ضد ذوى الألقاب ، فقد

كان ضمن المدعوين عدد قليل منهم ، أضفوا بوجودهم على الحفل بهجة ورواءً : فهذا أمير روسى تنازل بالجلوس ساعة فى صحبة سيدة ضخمة الحجم ، تلبس ثوباً من المخمل الأسود ، وتحيط جيدها بعقد من اللؤلؤ . وذلك كونت بولندى فى الثامنة عشرة من عمره ، كرس وقته لتسلية السيدات ، وبذلك اكتسب رضاهن عنه ، فقلن إنه فتى لطيف جذاب . وكان هناك أيضاً شريف ألمانى ، جاء الحفل جرياً وراء طعام العشاء وحده ، وراح طول الوقت يحوم فى أرجاء القاعة ، بطريقة غامضة ، بحثاً عن شىء يلتهمه . كما حضر سكرتير البارون روتشيلد الخاص ، وهو فتى فارع الطول يرتدى حذاء ضيقاً ، ويبتسم دائماً ، كأنما اسم سيده البارون قد أضفى عليه هالة ذهبية . وكان بين المدعوين فرنسى من أصدقاء الإمبراطور ، ضخم الجثة مغرم بالرقص ، فراح يشبع غرامه به طول الوقت . وجاءت ليدى دى جونز لتزين الحفل بأفراد أسرتها الثمانية . وكان الحفل يزخر بالفتيات الأمريكيات ذوات الأقدام الرشيقة والأصوات المرتفعة الحادة ، وبالإنجليزيات الجميلات بلا روح ولا حيوية ، ثم بعدد قليل من الفرنسيات ممن ليس لهن من الحسن نصيب ، وإن كن ماهرات لعوبات . هذا بالاضافة إلى الجمع المعتاد من السياح الذين اندمجوا فى الحفل مسرورين . وكانت الفتيات على اختلاف جنسياتهن يرقصن مع الشبان فى حين وقفت أمهاتهن على الجانبين يراقبنهن فى غبطة وانشراح .

ومن السهل على أية فتاة فى مقتبل الشباب أن تتصور مدى سعادة

آمى ، وهى تحتل بجانب لورى مركزاً بارزاً فى تلك الليلة : كانت تعرف مدى حسنها وأناقتها ، وكانت تحب الرقص وتتقنه كل الإتقان ، فراحت ترتشف من مناهل المتعة منتشية بشعور المرأة حين تكتشف سلطانها على المملكة الجديدة ، التى ولدت لتحكمها بجمالها وشبابها وعفتها وأنوثتها . ولكن سعادتها لم تشغلها عن آلام غيرها ، فانتابها الأسف لما رأت بنات ليدى ديفيز المحرومات من الجمال والأناقة ، لا يجدن فى الحفل رفقاء سوى أب مقطب الأسارير وثلاث عمات أشد تقطيباً . وقد انحنت لهن فى ودّ زائد وهى فى طريقها إلى الرقص ، وكانت لفتة لطيفة منها ، سمحت لهن برؤية ثوبها ، كما أثارت فيهن منتهى الفضول لمعرفة ذلك الصديق الممتاز الوسيم الذى يصحبها . وعند ما عزفت الفرقة أول أنغامها الراقصة ، تورد وجه آمى ولمعت عيناها ، وأخذت تطرق الأرض بحذائها فى صبر نافد ، لتلفت نظر لورى إلى رغبتها فى الرقص ، ولذلك كانت صدمتها لاتوصف حين قال لها بصوت غاية فى الهدوء :

ــ ألديك مانع من أن نرقص ؟

قالت :

ــ لامانع على الإطلاق ، والناس يرقصون عادة فى مثل هذه الحفلات .

وأمام جوابها السريع ، وسيماء الدهشة التى بدت عليها ، رأى الفتى أن يسرع بإصلاح خطئه فقال :

ــ أقصد بسؤالى الرقصة الأولى ، فهل تمنحيننى هذا الشرف ؟

قالت :

ـ أعطيك رقصة واحدة إذا أمكنني التخلص من إلحاح الكونت . إنه راقص بارع ، ولن يضيره أن يتنازل لصديق قديم مثلك عن إحدى رقصاته معي .

وكان غرضها من هذا الكلام أن تؤثر فيه ، وتريه أنها ليست ممن يستهان بهن .

قال :

ـ إنه صبي وسيم ، ولكنه أقصر قامة من أن يعتمد عليه !

ثم أضاف ينشد قطعة من الشعر :

« إنهـــا ابنـــة الآلهة
قامتها الفارعـــة رائعـــة
وجمالها الســـاحر أروع »

وكان هذا كل ما قاله لوري في سبيل إرضائها .

كانت المجموعة الراقصة التي انضموا إليها كلها من الإنجليز ، فاضطرت آمي أن تسير في الرقص بطريقتهم المزوقة ، مع أنها كانت تفضل رقصة الترانتيلا . ولما انتهت الرقصة الأولى ، سلم لوري آمي إلى الكونت « الصبي الوسيم » ، وذهب إلى فلو يحييها ويراقصها ، دون أن يحجز لنفسه رقصة أخرى مع آمي أو يطلب إليها الاشتراك معه فيما يلي من مباهج الحفلة . وشعرت آمي بإهماله ، فاعتزمت أن تؤدبه عليه ، لذلك

شغلت نفسها عنه بغيره حتى موعد العشاء ، وإن كانت تنتوى فى قرارة نفسها أن تصفح عنه ، إذا ما أبدى ما ينم عن توبته واعتذاره. وقبل أن تبدأ الرقصة التالية ، وهى البولكا المزدوجة ، أقبل عليها متباطئاً ، يطلب منها أن تراقصه ولم تجد فى لهجته الحماسة التى ترضى كبرياءها ، فاعتذرت ببرنامج رقصاتها الحافل ، وظلت عند رفضها رغم محاولاته الفاترة فى إقناعها بالعدول عنه . وعندما انسابت مع الكونت الصغير إلى حلبة الرقص ، رأته يجلس إلى جوار عمتها ، وقد بانت على وجهه سمات الارتياح ، مما أكد لها أنه كان يطلب مراقصتها تأدية للواجب.

ورأت فى تصرفه هذا غلطة لا تغتفر ، لذلك أهملت شأنه وقتاً طويلا. وعندما كانت تعود إلى عمتها بين الرقصات لتستريح لحظة ، أو تصلح مشبك ثوبها ، تتشاغل عن وجوده ولا تبادله سوى كلمة أو كلمتين .

وفعل سلوكها معه فعله المنشود ، فراح يتبعها بنظراته راضياً مغتبطاً وهى ترقص فى الحلبة بمنتهى الرشاقة والإتقان . لم تكن تقفز فى رقصاتها فى خشونة ، أو تتحرك بلا هدف ، كما يفعل غيرها من الفتيات ، إنما كانت تنساب مع أنغام الموسيقى فى تناسق من يحب الرقص ويقدره .

وكانت النتيجة مرضية للغاية ، فقبل أن ينتصف الحفل ، كان قد وصل إلى رأى قاطع وهو : « إن آمى الصغيرة ستصبح امرأة جذابة بمعنى الكلمة » .

ودبت الحياة فى الحفل ، وسرعان ما سادت الروح الاجتماعية فى

الموجودين ، فأشرقت الوجوه سعيدة بعيد الميلاد ، وامتلأت القلوب بنشوة الفرح ، وخفت أقدام الراقصين فى الحركة ، وتفنن الموسيقيون فى العزف وأخذتهم نشوة الجماعة ، فعزفوا فى مهارة ، والناس من حولهم يرقصون ، وكان من لا يرقص منهم يبدى إعجابه بحرارة وحماسة. وبينما ظل حال آل ديفيز سيئاً معتماً ، راح آل جونز يرقصون كقطيع من الزراف. وكان السكرتير ذو الهالة الذهبية ، يمرق فى المرقص كالشهاب وبرفقته سيدة فرنسية جميلة ، تفرش الأرض بذيل ثوبها الحريرى الطويل ؛ أما الشريف الألمانى فقد وجد ضالته فى مائدة الطعام ، فجلس إليها سعيداً يلتهم الأصناف بشراهة أثارت استياء الخدم ، لما تركه من آثار مدمرة. وسجل صديق الإمبراطور لنفسه مجداً ، فقد اشترك فى كل رقصة سواء كان يعرفها أولا يعرفها ، وكان مرحه الصبيانى مسلياً ولافتاً للأنظار ، فعلى الرغم من سمنته ، كان يرقص مثل كرة من المطاط : يجرى ويلف ويقفز فيحتقن وجهه وتلمع صلعته ، وتتطاير أطراف سترته فى عنف. وحين سكتت الموسيقى ، راح يمسح قطرات العرق الذى تصبب على جبينه ، ويوزع ابتساماته على الأصدقاء هنا وهناك.

وتحولت الأنظار إلى آمى وصديقها البولندى ، وأعجب الناس بحماستهما المتعادلة ، وحركاتهما الخفيفة المتناسقة ، حتى إن لورى لم يملك إلا أن يتبع وقع الحذاء الأبيض ، وهو يرتفع ثم يهبط فى نشاط ، كأنما تحركه أجنحة خفية لا تكل. وعندما اصطحبها الكونت الصغير إلى

مكانها ، وهو يعتذر عن اضطراره إلى الانصراف من الحفل مبكراً ، كان التعب قد هدّها فى الواقع ، فجلست تستريح ، وهى ترقب من طرف خفى ، وقع العقاب الذى أنزلته بفارسها المذنب .

أدركت الفتاة لأول وهلة أنها وفقت فى عقابه . فعواطفنا ونحن فى الثالثة والعشرين تجد بلسماً فى رفقة الأصدقاء ، مهما كانت شدة الصدمة التى لاقتها ، وأرواحنا الفتية تنتعش بشراً بسحر الجمال والأضواء والموسيقى والحركة . وقد حرم لورى من هذا كله بانشغال أمى عنه ، فما إن عادت حتى نهض يقظاً يقدم لها مقعده ، ثم أسرع إلى غرفة الطعام يحضر لها بعض ما تأكله . قالت لنفسها وهى تبتسم راضية : « كنت واثقة بأن هذا سيفيده كثيراً » .

ووقف لورى يروح لها بإحدى يديه ، ويحمل فى اليد الأخرى قدح القهوة . قال :

— كأنك إحدى لوحات بلزاك .

فأخذت تمسح خدها بقفازها الناصع ، ثم أرته إياه ، وهى تقول ببساطة أضحكته :

— هذا الأحمر ثابت لا يبهت لونه .

سألها وهو يلمس طرفاً من ثوبها الشفاف حركه الهواء فارتكز على ركبته :

— ماذا تسمين هذا القماش ؟

قالت :

— إيليوجن .

قال :

— اسم جميل لنسيج جميل . أهو نوع جديد ؟

قالت :

— بل قديم كالجبال ، وقد رأيت فتيات كثيرات يلبسنه ، ولكنك لم تدرك جماله إلا الآن ، فيالك من غبى !

قال :

— ولكنى لم أره عليك من قبل ، وهذا كما ترين سبب الخطأ .

قالت :

— هذا الكلام ممنوع ! والأفضل أن أحتسى القهوة ، فمثل هذه المجاملات تثير أعصابى .

وجلس لورى منتصباً أمامها ، وتناول صحنها الفارغ فى خضوع ، وهو يشعر بلذة غريبة فى طاعة أوامر « آمى الصغيرة » ، وكانت قد تغلبت على خجلها السابق ، وأحست برغبة جامحة فى أن تعبث به وتسيطر عليه ، شأن الفتيات مع من يبدين لهن الخضوع من الرجال المهذبين .

سألها وهو ينظر إليها نظرة فاحصة :

— أين تعلمت هذه الأساليب ؟

ـ أجابت وهى تفهم تماماً ما يعنيه ، ولكنها تتظاهر بالجهل لتجبره على الإفصاح عن غرضه :

ـ أرجو أن تفصح عما تعنى بكلمة « الأساليب »، فإنى أراه تعبيراً غامضاً .

قال ضاحكاً ، وقد غلب على أمره :

ـ إنها الطريقة العامة فى اللبس والتصرف ، وارتداء نسيج الإيليوجين .

واغتبطت آمى لهزيمته ، ولكنها أبت أن تفصح عن ارتياحها ، وقالت فى استحياء :

ـ إن الحياة الأجنبية تصقل الإنسان رغم أنفه ، وأنا أدرس كما ألهو! أما بخصوص الإيليوجين هذا ، فهو نوع رخيص من التل ، والتزين به لا يكلف شيئاً ، ومن عادتى أن أستغل موارد المتواضعة الفقيرة أحسن استغلال .

وندمت آمى على كلماتها الأخيرة ، خشية أن تكون مجافية للذوق السليم ، ولكن لورى أعجب بها جداً ، ووجد نفسه يقدر ويحترم الشجاعة والصبر فى سبيل الحصول على الفرصة ، ويجل روح المرح التى تكسو الفقر بغلالة من الزهور . ولم تفهم آمى سر نظرته العامرة بالعطف ، أو لماذا ملأ برنامج رقصاتها باسمه ، وكرس لها وقته ما تبقى من السهرة . ولكن الدافع لهذا التغيير الطيب ، كان نتيجة لأفكار جديدة ، من تلك الأفكار التى تطوف أحياناً برأس أحدنا ، فيتلقاها الآخر دون أن يشعر .

الفصل الثامن والثلاثون

على الرف

فى فرنسا ، تقضى الفتيات وقتهن فى ملل وسأم حتى يتزوجن ، وإذ ذاك يتخذن مثلهن الأعلى من كلمة « تحيا الحرية » ! أما فى أمريكا فالفتيات يأخذن بالحرية فى سن مبكرة ، ويستمتعن بحرياتهن فى حماسة جمهورية ؛ فإذا تزوجن وأصبحن أمهات ، يتنازلون عن عروشهن لأول ولى للعهد يرزقن به ، ويعيشن فى عزلة تشبه الأديرة الفرنسية ، وإن كانت أقل منها هدوءاً . وسواء رضين أم كرهن ، فالواقع أنهن يوضعن على الرف

حالما تنتهى مراسم الزواج وما يصاحبها من بهجة الزفاف. وقد تقول كثيرات منهن فى دهشة ، ما قالته سيدة جميلة ذات يوم : « إنى مازلت جميلة كما كنت ، ولكن أحداً لا يعيرنى التفاتاً لأنى متزوجة » .

ورغم أن ميج لم تكن يوماً مشهورة بالجمال أو بالأناقة ، إلا أنها لم تشعر بأنها وضعت على الرف ، إلا بعد أن بلغ طفلاها العام الأول من عمرهما ، وذلك لأنها كانت تعيش فى عالمها الصغير العامر بالبساطة والعادات القديمة ، وكانت تشعر بأنها محبوبة مقدرة أكثر من أى وقت مضى .

ولما كانت شابة مليئة بالأنوثة ، فقد ذهبت غريزة الأمومة فيها إلى أقصى حد ، وحملتها على الانصراف كلية إلى العناية بطفليها ، وشغلتها بأمرهما عن كل شىء وكل إنسان . وأمضت أيامها ولياليها تفكر فيهما بحب أنساها واجبها نحو جون ، فتركته لرحمة الخادمة الإيرلندية الشفيقة ، التى عهد إليها بشئون الطهى بعد مولد الطفلين . ولما كان جون يحب الحياة العائلية بطبعه ، فقد افتقد الرعاية التى اعتادها من زوجته ، ولكنه رضى أن يتخلى عن راحته إكراماً لطفليه ، مؤمناً — بجهله الرجالى — آن السلام لن يلبث حتى يعود إلى البيت . ولكن أشهراً ثلاثة مضت ولم يعد السلام المرتقب إلى البيت ، وكانت ميج خلال هذه المدة مرهقة عصبية المزاج ، تكرس وقتها كله لأولادها ، وتترك تدبير شئون البيت لكيتى الطاهية . ولم تكن كيتى ممن يتحمسن فى أداء العمل ، فأخذت

الأمور على عواهنها ، واختارت أن تقدم لعميد الأسرة أبسط الطعام وأتفهه ، فكان يخرج من البيت كل صباح وقد اختلطت عليه الأوامر والطلبات الصغيرة التى قدمتها « ماما » الحبيسة مع طفليها ؛ فإذا عاد فى المساء مشتاقاً إلى قبلة الترحيب من أسرته ، بادرته زوجته بكلمة « هُس ! لقد ناما لتوهما بعد عناد طول اليوم » . وإذا اقترح نوعاً من التسلية صاحت به : « لا ، فهذا يقلق الطفلين » . وإذا ألح لها يوماً بالخروج معه لسماع محاضرة أو حضور حفلة موسيقية ، أجابت وفى عينيها لوم وعتاب : « أيليق بنا أن نترك الطفلين وحدهما من أجل مسراتنا ؟ » . واضطرب نوم جون : تارة بسبب صراخ الطفلين بالليل ، وتارة أخرى لحركة ميج وهى تتسلل كالشبح فى الظلام لتطمئن عليهما كل ساعة ، أما وجبات الطعام فلم تعد لها لذة لكثرة ما تعودت ربة البيت أن تنصرف عن المائدة قبل أن تتم نصف طعامها إذا سمعت صيحة من عش الصغيرين بالدور العلوى . ولم يعد يهنأ بقراءة صحيفة المساء ، لأن مسز بروك ، التى لم تعد تهتم إلا بأخبار البيت وشئونه ، تلاحقه بمتاعبها ، فيختلط المغص الذى أصاب ديمى بقائمة سفن الشحن ، ويتدخل وقوع ديزى على الأرض فى أسعار الأوراق المالية بالبورصة .

وعاش جون المسكين محروماً من جميع أسباب راحته ، فقد أخذ الطفلان منه زوجته ، وقلبا بيته كله إلى دار للحضانة ، ولاحقته كلمة « هس » التى دأبت ميج على زجره بها كلما جاء من الخارج ، حتى بات

يشعر أنه وحش متطفل لا مكان له فى أرض الطفولة المقدسة . وتحمل الأب آلامه صابراً ستة شهور كاملة ، ولكنه لما فقد الأمل فى عودة السكينة ، فعل ما يفعله الآباء المهجورون عادة ، بأن راح يبحث عن الهدوء فى مكان آخر .

كان صديقه سكوت قد تزوج وأقام فى بيت غير بعيد ، وكانت مسز سكوت سيدة مرحة حسناء لا يشغلها أمر عن أن تكون بشوشة لطيفة المعشر ، ولذلك كانت حجرة استقبالها مشرقة جذابة ، ورقعة الشطرنج دائماً على استعداد ، والمعزف يردد أجمل الأنغام ، والحديث المسلى البهيج يدور بمهارة ولباقة ، والعشاء البسيط مجهز فى أناقة تغرى بالإقبال عليه .

وكان جون يفضل الجلوس إلى نيران مدفأته ، ولكن غرفة جلوسه كانت مقفرة لا حياة فيها ، فاستعاض عن فردوسه المفقود بصحبة صديقه وجاره ، واعتاد أن يلجأ إليه كل مساء ساعة أو ساعتين ، حين تخلو غرفة استقباله من الزائرين ، وتنصرف عنه زوجته ميج إلى ولديها الصغيرين تنشد لهما مالا نهاية له من الأغانى والأهازيج .

ورضيت ميج بهذا الوضع الجديد فى أول الأمر ، وسرها أن يتسلى جون بصحبة صديقه ، بدل أن يجلس فى غرفة الاستقبال نعسان ، أو يتجول فى أرجاء البيت فيوقظ الصغيرين بوقع خطواته . ولكن ما إن انقضت فترة الشنين المتعبة ، وتعود الإلهان الصغيران أن يناما فى أوقات منتظمة ، حتى بدأت ميج تحس بغياب جون وتفتقده ، وأصبحت سلة

التطريز تثقل عليها عندما لا تجد زوجها يجلس بجانبها كعادته القديمة ، وقد أسند قدميه إلى حاجز المدفأة فى استرخاء ودعة . وغاب عنها أنها أهملت شأنه ليالى لا تعد ، فثارت كبرياؤها لإهماله شأنها ، ولكنها كتمت عواطفها ولم تطلب منه أن يبقى معها . وأجهدها السهر والفكر والهم ، فتهدمت أعصابها ، ووصلت إلى تلك الحالة الثائرة السيئة التى تعترى الأمهات أحياناً ، عندما يهدهن الإرهاق فيضقن بشئون البيت ومشاكله ، وتفقدهن الحاجة إلى الرياضة مرحهن وبشاشتهن ، ويجعلهن الإفراط فى شرب الشاى — وهو شراب الأمريكيات المفضل — يشعرن كأنهن كتلة من الأعصاب بلا شحم ولا لحم .

وكانت تنظر إلى وجهها فى المرآة وتقول :

— لقد أصبحت عجوزاً شمطاء ، ولم يعد جون يجد فىّ ما يسليه ويسره ، ولذلك تحول عنى بعد أن ذبلت إلى زوجة جاره الجميلة المرحة . . ولكن طفلىّ يحبانى ولا ينفرهما منى تحولى واصفرارى ، ولا يعنيهما أن جعدت شعرى أو أرسلته مهملا . إنهما عزائى وسلوتى ، وسيعرف جون فى يوم من الأيام كيف ضحيت بشبابى راضية من أجل ولدى . . . أليس كذلك ياصغيرىّ العزيزين ؟

وتجيب ديزى على نداء أمها العاطفى بمناغاة بريئة ، ويرد ديمى بصيحة عالية ، فتشغل ميج مؤقتاً عن همومها ، وتنسيها لذة الأمومة لواعج وحدتها . ولكن هذه الهموم لا تلبث أن تعود حين ينغمس جون فى قراءة

الأخبار السياسية ثم يسارع إلى بيت سكوت يناقشه فى تطوراتها الهامة ، غير مدرك كم تحتاج زوجته إلى صحبته ولا تجدها . ومع ذلك أصرت ميج على الصمت ، ولم تشأ أن تلفت نظره بكلمة ، حتى وجدتها أمها ذات يوم دامعة العينين ، فألحت فى معرفة سر بكائها ، فإن تدهور حالة ميج المعنوية لم يفت نظرها الثاقب .

قالت ميج وهى تجفف دموعها فى ميدعة ديزى :

— لن أبوح لغيرك بما أعانيه يا أماه . والواقع أنى فى حاجة إلى نصيحتك ، لأنه خير لى أن أترمل إذا استمر جون على حاله هذه .

سألتها أمها فى قلق :

— وما هى هذه الحال يا عزيزتى ؟

قالت :

— إنه يغيب عن البيت طول النهار ، فاذا حل المساء وشعرت بشوق لرؤيته وصحبته ، تركنى إلى بيت سكوت . ليس من العدل أن أتحمل متاعب البيت كلها ، وأحرم فى الوقت نفسه من أسباب التسلية . إن الرجال — بلا استثناء — أنانيون لا يحبون إلا أنفسهم .

قالت الأم :

— شأنهم فى ذلك شأن النساء ، لا تلومى جون قبل أن تعرفى مواطن الخطأ من نفسك .

قالت :

— ولكن لا حق له فى أن يهملنى هكذا !

قالت الأم :

— ألم تبدئى أنت بالإهمال ؟

قالت ميج :

— ماذا تقولين يا أماه ؟ ظننتك فى جانبى ؟

قالت الأم :

— أنا فى جانبك من حيث عطفى عليك ، ولكنى أعتقد أنها غلطتك يا ميج .

قالت :

— وكيف ؟

قالت :

— سأريك كيف كان ذلك . هل أهملك جون مرة واحدة ، عندما كنت تعطينه من صحبتك ما يريد فى أمسياته ، وقت راحته الوحيد ؟

قالت :

— أبداً . ولكنى لا أستطيع الآن ذلك وورائى طفلان أعنى بهما .

قالت الأم :

— بل تستطيعين يا عزيزتى ، وواجبك يحتم عليك ذلك . سأكون صريحة معك ، واذكرى أن لائمتك هى أمك التى تعطف عليك .

قالت ميج :

ـ طبعاً يا أماه ، كلميني كما لو كنت ميج الصغيرة ، فإني في حاجة إلى مزيد من المعرفة منذ جاء الطفلان ، وازدادت مسئوليتي نحوهما .

وسحبت ميج مقعداً منخفضاً إلى جانب أمها ، وجلست الاثنتان تتحدثان طويلا ، وكل منهما تهز على حجرها طفلا صغيراً ، وأحست الابنة أن رباط الأمومة لم يكن يوماً ما أقوى منه في هذه الجلسة .

قالت الأم :

ـ لقد وقعت فيما يقع فيه معظم الزوجات الصغيرات : أنسيت حبك لطفليك واجبك نحو زوجك ، وهذا خطأ طبيعي جدير بالصفح يا ميج ، ولكنه خطأ يجب أن يعالج قبل أن يستفحل أمره ، فالأطفال يجب أن يزيدوا الحب ويقووا الرابطة ، ولا يصح أن يكونوا سبباً في الخلاف والفرقة . إنك تتصرفين كما لو كان الطفلان ملكاً لك ، وليس لجون إلا أن يعولهما وينفق عليهما . لقد رأيت الأمور تجرى في هذا الطريق منذ أسابيع ، ولكني لزمت الصمت راجية أن تنصلح الحال في الوقت المناسب .

قالت ميج :

ـ أخشى ألا تنصلح ، وأخاف أن أطلب صحبته فيظن بي غيرة عليه وهي إهانة لا أحب أن تصدر مني . إنه لا يرى مدى حاجتي إليه ، ولست أعرف كيف أخبره بذلك دون أن أتكلم .

قالت الأم :

ـ اجعلي الحياة في البيت بهيجة سارة فلا يخرج يا عزيزتي . . إنه

يتوق إلى الحياة العائلية التى لاتستقيم بغير وجودك ، فكيف تتأتى له بغيته وأنت مقيمة فى غرفة الطفلين لا تبرحينها إلا لماما ؟

فقالت ميج :

ــ ألا ينبغى أن أبقى فيها ؟

قالت :

ــ ليس كل الوقت ، فطول بقائك فيها يحطم أعصابك ويجعلك عديمة الفائدة ، فضلا عن أن واجبك نحو جون يعادل واجبك نحو الطفلين . لاتهملى زوجك من أجلهما ، ولا تبعديه عن غرفتهما . . . علميه كيف يعاونك ، فمكانه فيها مكانك سواء بسواء ، والأطفال فى حاجة إليكما معاً . أشعريه بأن له نصيباً يقوم به ، ولن يتوانى عن أدائه مخلصاً مسروراً ، وبذلك يتحقق لكما الخير كل الخير .

قالت :

ــ أهذا ما تظنين حقّاً يا أماه ؟

قالت :

ــ بل أنا على يقين يا ميج ، واعلمى أنى لا أنصح على غير أساس عملى . لقد مررت بهذه التجربة من قبل ، فعند ما كنت أنت وجو صغيرتين ، أحسست أنى لن أؤدى واجبى نحوكما ما لم أنقطع لكما تمام الانقطاع . وفعلت ذلك دون تردد ، ورفضت المعونة التى قدمها أبوكما لى ، فانصرف المسكين وتركنى أقوم بتجربتى وحدى . . . وجاهدت قدر

طاقتى ، ولكن جو كانت أكثرمما أحتمل ، فكدت أفسدها بكثرة التدليل ، وكنت أنت ضعيفة عليلة فأقلقنى أمرك حتى أصابنى المرض . وعندئذ تقدم أبوك لإنقاذى فى هدوء وسكينة ، وأعاد الأمور إلى مجاريها ، فأدركت مدى المعونة التى يستطيع أن يقدمها لى ، ومنذ ذاك اليوم لا أسير خطوة بدونه ، وهذا سر سعادتنا العائلية . إنه لا يدع عمله يصرفه عن تحمل متاعبنا الصغيرة ، ولا يسمح لأمر من الأمور أن يلهيه عن مشاركتنا فى الواجبات التى تتصل بحياتنا الجماعية ، وأنا بدورى لا أترك مشاغل البيت تصرفنى عن الاهتمام بأعماله . كل منا يؤدى واجبه منفرداً فى معظم الأعمال ، ولكننا فى البيت نعمل دائماً يداً واحدة .

قالت ميج :

— صدقت يا أماه ، وليتنى أكون لزوجى وأولادى ، كما كنت لزوجك وأولادك . . . أرشدينى إلى الطريق يا أماه ، وسأعمل برأيك دون تردد .

قالت الأم :

— عهدى بك دائماً مطيعة ، فاستمعى جيداً لنصيحتى . لو كنت مكانك ماتوانيت عن إعطاء جون أكبر نصيب فى رعاية ديمى ، فالصبى يحتاج إلى تنشئة خاصة يصح أن تبدأ من الآن . وإذا شئت نفذنا ما سبق أن اقترحته عليك من إرسال حنة لمساعدتك . . إنها مربية ممتازة ، وليس أحب إليها من رعاية الصغيرين ، فاعهدى بهما إليها ، والتفتى أنت

لأعمال البيت ، وبذلك تجدين متسعاً من الوقت للرياضة ، ويستعيد جون صحبة زوجته ورعايتها ، اخرجي معه كثيراً ، واستردى ابتسامتك ، واشغلى وقتك بالعمل ، فأنت شمس البيت المشرقة إن خبت تعكر الجو وذهب الصفاء . . اهتمى بما يهتم به جون ، واسعدى لما يسعده . . حادثيه وكلميه ودعيه يقرأ لك ويبادلك الآراء والأفكار . عاونيه واطلبى معونته . . لا تغلقى دونك أبواب المعرفة ، ولا تعتزلى الحياة العامة لأنك امرأة . . تتبعى ما يدور حولك من أحداث ، وثقفى نفسك لتفهمى ما جريات الأمور ، وتدركى الأحداث العالمية ، فإن لهذا كله أثره فيك وفيمن حولك .

قالت ميج :

— إن جون رجل غزير المعرفة ، وأخشى أن يظننى غبية إذا سألته فى أمور السياسة وغيرها .

قالت :

— لن يظن بك الغباء ، فهو يحبك ، والحب أعمى عن العيون ، ثم ، من تسألين غير زوجك . . ؟ جربى نصيحتى وسيسعد بصحبتك أكثر من سهرات مسز سكوت .

قالت :

— سأفعل ذلك كله . . مسكين جون ، لقد أهملته بالفعل إهمالا ذريعاً ، ولكنى كنت أعتقد بصواب ما أفعل ، ولم يشأ هو من جانبه أن يرشدنى .

قالت الأم :

ـ لقد حاول أن ينكر ذاته أمامك ، ولكنه شعر أخيراً بأنه أصبح كمًّا مهملا . إن هذا الوقت هو الذى يشعر فيه الزوجان بدواعى الفرقة يا ميج ، وهو أصلح وقت لاتحادهما قلباً وقالباً . فالنشوة الأولى لا تلبث أن تخمد ، ما لم يبذل الطرفان عناية خاصة فى المحافظة عليها . وليس أجمل ولا أعز على الأبوين من تلك السنوات الأولى التى يهبهما الله فيها أطفالا يربيانهم وينشئانهم . لا تجعلى جون يحس بأنه غريب على الطفلين ، ففيهما ما يسعده ويقيه شتى أسباب الفتنة والغواية وسيعلمكما الطفلان كيف تعرفان بعضكما بعضاً وكيف تتحابان . والآن ، وداعاً يا عزيزتى ، فكرى فى نصيحتى ، واعملى بها إن رأيت فيها خيراً لك ، والله يتولاك برعايته .

وفكرت ميج فى نصيحة أمها ، ووجدتها خير نصيحة ، فشرعت فى تنفيذها ، ولكن المحاولة الأولى لم تتم كما كانت تشتهى : فقد أمعن الطفلان ـ بالطبع ـ فى استبدادهما دون شفقة ، وسيطرا على البيت بصراخهما وعويلهما ، وأصبحت « ماما » أمة لنزواتهما . ولكن « بابا » لم يكن من السهل إخضاعه . وأحياناً ما كان فؤاد زوجته يتعذب حين يقوم بمحاولة فى ترويض ابنه على بعض الطاعة والنظام ، إذ كان ديمى مثل أبيه فى صلابة الرأى ـ ولا نقول العناد ـ إذا اعتزم أن يفعل أمراً أو يأخذ شيئاً ، لا يمكن لقوة أن تثنيه عن عزمه . وكانت ميج تعتقد أن الصغير العزيز لم يبلغ سن التوجيه بعد ، ولكن جون كان يرى عكس ذلك

فبدأ يأخذه بأسباب النظام ويعوده الطاعة . وفهم ديمى من البداية أنه الخاسر فى كل معركة يخوضها مع « بابا » . ولكنه كان — كأى إنجليزى — يحترم الرجل الذى يهزمه ، لذلك أحب الولد أباه ، وعندما كان يقول له « لا » بلهجته الرزينة الجادة ، تفعل فيه هذه الكلمة أضعاف ما يفعله تدليل أمه الصادر عن حب عميق .

وبعد أيام من الحديث الذى دار بين ميج وأمها ، قررت الشابة أن تجرب قضاء سهرة عائلية مع جون ، فأمرت بإعداد عشاء شهى ، وزينت قاعة الاستقبال مبكرة ، ثم ارتدت أحسن ثيابها ، وتأنقت فى زينتها ، ثم وضعت الطفلين فى فراشهما مبكرين ، حتى لا يعكرا صفو تجربتها المقبلة . ولكن ، يشاء سوء الحظ أن تتملك ديمى إحدى نزواته المعهودة ، فيمضى فى عبثه ويأبى أن يذهب إلى فراشه مبكراً . وعبثاً حاولت ميج أن تسلس قياده : غنت له ، وأرجحت سريره ، وروت له قصصاً مسلية ، وجربت كل شىء يغريه بالنوم ؛ ولكن الشيطان ديمى أبى أن ينام ، وظلت عيناه الواسعتان تحملقان فى الأنوار ، وعلى سيماه ما يدل على منتهى اليقظة ، أما ديزى فقد أسلمت جفنيها للنعاس على عادتها الوديعة الطيبة .

فقالت له ميج حين سمعت باب الردهة يقفل فى هدوء ، وخطوات زوجها تتجه بخفة إلى غرفة الطعام .

— ألا ينام ديمى كالولد الطيب ، حتى تعد ماما الشاى لبابا المسكين؟

أجاب الطفل ، وهو يستعد للاشتراك فى الحادث البهيج :

ـ وأنا أشرب شاياً !

قالت :

ـ لا . . . ولكن إذا نمت كأختك ديزى ، أحتفظ لك ببعض الحلوى تأكلها فى الصباح ، نم يا حبيبى نم . . !

قال :

ـ حاضر . .

وأغمض عينيه بشدة ، كمن يتعجل النوم فى لقاء الصباح الموعود ، فانتهزت ميج هذه الفرصة ، وتسللت خارجة من الغرفة بسرعة لتحيي زوجها بوجه باش . وكانت قد ربطت شعرها بشريط أزرق على الطريقة التى تعجبه ، فلما رأى جون ذلك ، قال فى سرور يمتزج بالدهشة :

ـ لم كل هذا أيتها الأم الصغيرة ؟ أتنتظرين ضيوفاً ، أم تحتفلين بعيد ميلاد ، أم هى مناسبة سعيدة لا أعلم بها ؟

قالت :

ـ لا هذا ولا ذاك ، ولكنى سئمت إهمالى زينتى ، فقررت أن أتجمل على سبيل التغيير . إنك تحرص دائماً على أناقتك مهما كنت متعباً ، فلم لا أحذو حذوك إذا سمح الوقت ؟

قال الزوج ذو الآراء التقليدية :

ـ إنى أفعل ذلك احتراماً لك يا عزيزتى .

قالت ضاحكة ، وقد استردت شبابها وجمالها ، وجلست تشاركه فى

احتساء الشاى :

ـ وأنا مثلك يا مستر بروك .

قال :

ـ أمر جميل يذكرنى بأيامنا الأولى . . إن طعم الشاى لذيذ ، فلنشرب نخب صحتك يا عزيزتى .

ورفع جون فنجانه يرشف الشاى فى نشوة من الرضا والسرور ، ولكن هذه النشوة لم تدم إلا فترة قصيرة ، إذ ما كاد يضع الفنجان جانباً ، حتى تحركت أكرة الباب بهدوء ، وسمع صوت ديمى يقول فى ضيق :

ـ افتحوا الباب . . أنا قادم . .

فقالت ميج ترد النداء :

ـ إنه ذلك الولد الشيطان ، لقد أمرته أن ينام وحده ، ولكن هاهوذا يأتى حافى القدمين على الأرض الباردة .

وأقبل ديمى فى جلباب نومه الطويل المطرز ، وراح يقفز حول المائدة فتهتز خصلات شعره طرباً وسروراً ، ثم قال وعيناه زائغتان بين صحون الحلوى الموضوعة فوق المائدة :

ـ نحن الآن فى الصباح ؟ !

قال الأب :

ـ لا ، الصبح لم يأت بعد ، وما زلنا بالليل ، فيجب أن تعود إلى فراشك وتنام حتى لا تتعب ماما ، وبعد ذلك تأخذ نصيبك من هذه الحلوى .

فقال الطفل اللبق ، وهو يشرع فى الجلوس على ركبتى أبيه استعداداً للاشتراك فى الوليمة :

ــ أنا أحب بابا . .

ولكن چون هز رأسه وقال لميج :

ــ ما دمت أمرته بالنوم وحده ، فعليك أن تحمليه على التنفيذ ، وإلا عصاك دائماً .

قالت :

ــ نعم ، بالطبع . . تعال يا ديمى .

وخرجت بالصغير من الغرفة ، ونفسها تراودها بضرب هذا الشيطان الذى يطمع فى رشوة بمجرد وصوله إلى فراشه ، ولم تخيب ميج أمله هذا ، فما إن وصلت به إلى غرفته ، حتى أغراها قصر نظرها بمنحه الرشوة التى يتوق إليها ، فأعطته قطعة من السكر ، ثم أدخلته فى فراشه ، وأمرته أن ينام حتى الصباح .

وقال ديمى : « نعم » ، وهو يمص السكر مزهوًّا بانتصاره فى أول جولة .

وعادت ميج إلى مكانها ، واستؤنف العشاء فى سرور ، ولكن سرعان ما ظهر الشبح الصغير يدب على الأرض مرة ثانية ، وكشف عن خطأ أمه حين طلب بجسارة قائلا :

ــ أريد قطعة أخرى من السكر يا ماما . .

قال چون فى حزم وجد :

ـ هذه طريقة مضرة ، ولن نعرف السلام أبداً حتى يتعلم هذا الطفل كيف يذهب إلى فراشه بانتظام . لقد استعبدك وقتاً طويلا ، فأعطيه درساً واحداً يضع حداً لكل هذا العبث . ضعيه فى فراشه واتركيه يا ميج .

قالت :

ـ إنه لن يبقى فى سريره إلا إذا جلست معه .

قال :

ـ إذاً دعينى أتولّ الأمر بنفسى ، ديمى . . هيا إلى غرفتك ، واصعد إلى سريرك كما أمرتك ماما .

وأجاب الطفل المتمرد ، وقد مد يده إلى الكعكة التى اشتهاها ، وبدأ يقضم فيها فى تحد وهدوء .

ـ لا . . لن أصعد !

فقال الأب :

ـ لا تقل هذا الكلام لبابا . وإذا لم تصعد إلى سريرك بنفسك ، حملتك إليه رغم أنفك .

وتعلق ديمى بذيل أمه يحتمى بها وقال :

ـ اذهب أنت . أنا لا أحب بابا .

ولكن احتماءه بأمه لم يجده نفعاً ، فقد تخلت عنه لأبيه وهى تقول :

ـ كن رفيقاً به يا چون .

وأثارت كلماتها سخط المذنب ، إذ كان يعلم أن تنكر أمه له ، يعنى

اقتراب ساعة الحساب ، وفار مرجل غضبه إزاء حرمانه من كعكته وعودته إلى الفراش عنوة ، وراح يصرخ بأعلى صوته ويرفس برجليه وهو يصعد إلى غرفته . وما إن وضعه أبوه على أحد جنبيه ، حتى انقلب على جنبه الآخر ، ونزل يجرى نحو الباب ، ولكن جون جره إلى الفراش بيد قوية . وتكررت هذه التمثيلية حتى أنهكت قوى الرجل الصغير ، فاكتفى بالنحيب والصراخ والعويل . وفعلت هذه الجهود الصوتية فعلها فى ميج ، فراحت تتألم من أجل ابنها ، ولكن جون جلس بجواره ثابتاً حازماً : لا يربت على رأسه ، ولا يرشوه بالسكر ، ولا يغنى له أهازيج النوم ، ولا يقص عليه قصصاً ! وحتى النور أطفأه . وكان وهج نيران المدفأة الأحمر يضىء فى الظلام ، فجعل ديمى ينظر إليه بدافع من حب الاستطلاع لا الخوف . وأثارت الأوامر الجديدة سخطه ، وحن الطاغية الصغير إلى لين أمه ، فصاح محزوناً يستغيث بها فى صوت ضعيف أنهكه الصراخ . وأثار نداؤه عطفها عليه ، فصعدت تجرى إلى حجرة النوم ، وقالت لزوجها فى ضراعة :

ـ دعنى أمكث معه ، وسيهدأ حالا يا جون .

قال :

ـ لا يا عزيزتى ، لقد أمرته بالنوم ، فلا بد أن ينام ولو اضطررت إلى قضاء الليل كله معه .

قالت تدافع عن الصغير ، وتؤنب نفسها لأنها هجرته :

ـ ولكنه سيبكى حتى يمرض .

قال :

— لن يمرضه البكاء ، ولقد بلغ به التعب أقصاه ، وسيغلبه النوم وتنتهى المسألة . لا بد أن أعلمه الطاعة ، فأرجوك ألا تتدخلى ، ودعينى أعالج أمره بنفسى .

قالت :

— إنه طفلى ، ولن أدعك تحطم نفسيته بهذه القسوة .

قال فى جد وحزم :

— وهو طفلى أيضاً ، ولا أحب أن تفسدى خلقه بهذا التدليل . انزلى إلى البهو يا عزيزتى ودعيه لى .

وكان من عادة ميج أن تطيع زوجها عندما يتكلم بهذه اللهجة ، ولم يحدث مرة أن ندمت على طاعتها ، فقالت :

— دعنى أقبله مرة واحدة يا جون .

قال :

— بالتأكيد . قل لماما « ليلة سعيدة» ياديمى ، ودعها تذهب لتستريح فقد أتعبتها رعايتك طول النهار .

وكانت ميج تظن أن القبلة أقوى سلاح للنصر ، لذلك قبلته وانصرفت ، فانهمك ديمى فى نشيج هادئ ، هدأ بعده فى ركن السرير الذى عبث غضبه بنظامه .

وبعد لحظات هادئة ، ظن جون أن النوم غلب ابنه الصغير ، فاقترب

من الفراش وهو يقول فى نفسه :

ــ يا للرجل الصغير المسكين ! لقد أنهكه البكاء ، فلأدثره بالغطاء ، ثم أهبط إلى ميج وأطمئنها .

وما إن نظر الأب يستطلع حال الصغير ، حتى فتح ديمى عينيه ، وارتجف ذقنه ومد ذراعه قائلا وهو يشهق نادماً :

ــ أصبحت ولداً طيباً . .

وعجبت ميج ، وهى تجلس على درجات السلم خارج الحجرة ، للصمت الطويل الذى أعقب الضجة الصاخبة . وبعد أن سرح بها الخيال فى عالم من التكهنات ، تسللت إلى الغرفة لتهدئ مخاوفها ، فوجدت ديمى مستغرقاً فى النوم ، وقد أمسك بإصبع أبيه ، وطوقه بذراعه ، كأنما أدرك أن الرحمة عماد العدل ، فنام أكثر تعقلا وإن كان أشد حزناً . وترك جون إصبعه فى قبضة الصغير صابراً ، حتى تراخت هذه القبضة ، فرقد بجواره ، وقد أضناه جهده مع ابنه أضعاف ما أضناه العمل طول اليوم .

ووقفت ميج ترقب الوجهين النائمين على الوسادة ، وقالت وهى تخرج من الغرفة راضية باسمة :

ــ لا خوف أن أترك ديمى لجون ، فهو يعرف كيف يسلس قياده ، وسيكون عوناً كبيراً لى على متاعب الصغير ونزواته .

وحين نزل جون أخيراً ، وهو يتوقع أن تقابله زوجته غاضبة مهمومة ، أدهشه أن يجدها تطرز قلنسوة جديدة بهدوء ملحوظ ، وكانت تحيتها له

رجاء بأن يقرأ لها أخبار الانتخابات إذا لم يكن متعباً . وأحس جون بأن هناك انقلاباً لا يدرك سره ، ولعلمه بأن ميج صريحة لا تكتم سرًّا ، فقد اختار عن حكمة ألا يستفسرها سر هذا الانقلاب ، واثقاً بأنها لن تستطيع كتمانه طويلا . وراح يقرأ لها مقالا طويلا ، ويفسر لها ما جاء فيه بأسلوب مشوق جذاب . وأبدت ميج اهتماماً شديداً بالحديث ، فراحت توجه إليه أسئلة بارعة ، وهى تركز فكرها فيما يقول حتى لا يشرد من مشاكل الدولة إلى مشاكل القلنسوة التى تطرزها . وعلى الرغم من هذا المجهود الفكرى ، كانت تؤمن فى قرارة نفسها بأن السياسة معقدة كالرياضيات ، وأن رسالة السياسيين تنحصر فى تبادل الشتائم والسباب ، ولكنها احتفظت بآرائها النسوية لنفسها . وحين توقف جون عن القراءة ، هزت رأسها فى أسلوب دبلوماسى مبهم ، وقالت :

ـ حسناً ، لست أدرى فى الواقع إلى أى طريق نسير .

وضحك جون ، وأخذ ينظر إليها لحظة وهى تستعرض على يدها بعض الدنتلا والزهور لتزين بها القبعة ، وتبدى من الاهتمام بها أضعاف ما أبدته فيما شرحه لها من أمور السياسة ، فقال يحدث نفسه :

ـ إنما تحاول أن تستسيغ السياسة من أجلى ، فلأحاول من أجلها أن أستسيغ شئون الحياكة والتطريز .

ثم رفع صوته وهو يقول :

ـ إنها تحفة جميلة ، أهذه ما تسمينها قلنسوة الصباح ؟

قالت :

— ليست هذه قلنسوة يا رجلى العزيز ، بل قبعة ، وستكون أجمل ما أرتديه فى المسارح والحفلات الموسيقية .

قال :

— أستميحك عذراً ! ! رأيتها صغيرة جداً ، فأخطأت وظننتها من تلك الأشياء الهفهافة التى تلبسينها أحياناً . خبرينى كيف تثبتينها على رأسك؟.

قالت ، وهى تشرح كلماتها عليها ، وعلى سيماها تعبير لا يقاوم من الرضا والهدوء :

— قطع الدنتلا هذه تربط تحت الذقن ، وتزين الربطة بوردة ، هكذا...

قال وهو يطبع على الوجه الباسم قبلة ، ربما أفسدت الوردة التى تزين أسفل الذقن :

— إنها قطعة فنية رائعة ، ولكنى أفضل عليها الوجه الذى بداخلها ، بعد أن استرد فتوته وسعادته .

قالت :

— يسرنى أنها أعجبتك ، وأريد منك أن تصحبنى ذات ليلة إلى إحدى الحفلات الموسيقية ، فقد اشتقت إلى الموسيقى ، وأحب أن أسترد بها انسجامى . . أتسمح من فضلك ؟

قال :

— يسرنى أن أصحبك إلى أى مكان تحبين ، فقد طال بك الحبس ؛

والخروج يفيدك إلى أقصى حد ، وسأجد فى رفقتك غاية المتعة ، ولكن ، خبرينى ، من الذى وجهك إلى هذا التفكير الجديد أيتها الأم الصغيرة ؟

قالت :

ـ لقد تحدثت مع أمى منذ أيام ، وشرحت لها ما أعانيه من ملل وضيق وثورة أعصاب ، فنصحتنى أن أقلل من انغماسى فى هموم الأسرة وأعبائها ، واتفقنا أن تقوم حنة برعاية الطفلين ، وأعنى أنا بشئون المنزل ، وبذلك يتيسر لى فسحة من الوقت أقضيها فى ترفيه يعالج اضطرابى ، ويقينى شر التحطم قبل الأوان . إنها محاولة أحب أن أقوم بها من أجلك ومن أجلى فى الوقت نفسه ، وسأعيد البيت جنة كما كان . لقد طال إهمالى لشأنك ، وأملى ألاّ يكون لديك اعتراض .

ونمر مرور الكرام على ماقال جون ، وكذلك على القبعة التى كادت تنهرس فى غمرة العناق ، إذ كل ما يعنينا أنه لم يبد اعتراضاً على التغير التدريجى الذى شمل حياته العائلية من مختلف نواحيها . . حقيقة أن البيت لم يتحول إلى جنة خالية من العيوب ، ولكن تنظيم العمل وتوزيعه أشاع الراحة والاطمئنان : فقد ترعرع الطفلان تحت رعاية أبيهما ، واستتبت دعائم الطاعة فى مملكة الصغار ، واستردت ميج مرحها ، فهدأت أعصابها بالإكثار من الرياضة والإقلال من المسرات الفارغة ، والاستزادة من أحاديث زوجها الودية . وعادت البهجة العائلية إلى البيت ، ورغب جون عن الخروج من غير ميج ، أما آل سكوت فقد بدأوا يكثرون من

زيارة آل بروك ، ووجد جميعهم فى البيت الصغير مكاناً بهيجاً تغمره السعادة ويظله الرضا والحب . وحتى سالى موفات أقبلت على زيارة ميج وكانت تقول لها : « إن بيتك دائماً يسر الخاطر ، ووجودى فيه ينعشنى ياميج » . ثم تنظر حولها كمن تبحث عن مواطن السحر فيه لتقتنيها فى بيتها الكبير ، الذى أضاعت الوحشة فخامته وعظمته ، ودبت الوحدة فيه لخلوه من ضجيج الأطفال ، وانصراف ند إلى حياة لا مكان لها فيها .

ولم تأت السعادة طفرة واحدة ، ولكن الزوجين وجدا الطريق إليها ، وجاءتهما السنوات بأساليب جديدة ، يغترفان بها من كنوز الحب العائلى ، ويستعينان بها على تبادل المعونة التى قد يعرف الفقراء السبيل إليها ، ولا يستطيع الأغنياء شراءها بالمال .

إنه النوع الوحيد من الرفوف التى ترضى الزوجات الشابات والأمهات الصغيرات بأن يوضعن عليه ، آمنات من قلق الدنيا ، حيث يجدن فى حب أولادهن وطاعتهم حمًى من أحزان الفقر ومتاعب الشيخوخة ، ويتمتعن فى رفقة أزواجهن بوفاء الحارس الأمين ، الشريك المخلص فى السراء والضراء .

إن الأولاد زينة الحياة ، والزوج الطيب على حد قول الإنجليز « رباط العائلة » ، وعندما تتوافر هاتان النعمتان لامرأة ، يتبين لها — كما تبين لميج — أن البيت أسعد مملكة لها ، وما من شرف يعدل حكمها لها ، لا كملكة متوجة ، بل كزوجة عاقلة وأم ذكية حنون .

الفصل التاسع والثلاثون

لورنس الكسلان

عندما ذهب لورى إلى نيس ، كان ينوى الإقامة فيها أسبوعاً واحداً، ولكنه مكث شهراً ، إذ كان قد مل السفر والترحال ، فوجد فى صحبة آمى ما أسبغ على المناظر الأجنبية المحيطة به سحراً من الوطن . وكان فى الواقع يتوق إلى التدليل الذى حرمه طويلا ، فعاد يغترف منه مرتانية ، قانعاً به عن كل تدليل سواه ، فلم تكن رعاية الأغراب ومجاملتهم له تعدل بعض ما يحس به من سعادة للإعجاب الأخوى ، الذى تغدقه عليه بنات مارش

فى البيت . ولم يكن من عادة آمى أن تدلله كأخواتها ، ولكنها فرحت بلقائه ، واعتبرته مندوباً عن أسرتها التى جا وز شوقها إليها حد التصريح ، فتعلقت به سعيدة ، وصحبته فى روحاته وغدواته . . وكانا يركبان معاً ، ويسيران معاً ، ويرقصان معاً ، ويثرثران معاً ، وهو كل ما يستطيع الإنسان أن يفعله خلال الموسم السياحى فى مدينة نيس ؛ ولكن هذا اللهو الظاهر كان يبطن أمراً آخر ، ففى غمرة الفراغ والدعة ، بدأ كل منهما يكشف نواحى جديدة فى صاحبه ، ويكون فكرة عنه . وعلى مضى الأيام ازدادت آمى تقديراً لصديقها ، وازداد هو حباً لها ، وأدركا الحقيقة فى نفسيهما قبل أن يبوح أحدهما بكلمة للآخر . وكانت آمى معترفة بجميل ما قدمه لها من أسباب السرور والتسلية ، فعملت من جانبها على إسعاده ، وكافأته على حسن صنيعه بتلك الخدمات الصغيرة التى تعرف المرأة ذات الأنوثة الفياضة كيف تضفى عليها سحراً لا يوصف . وكان لورى ينشد النسيان ، ويعتقد أن من حقه على نساء العالم كله أن يسلينه ويلاطفنه ، جزاء ما فعلته إحداهن بعواطفه المتأججة ، لذلك ترك الأمور تسير فى مجاريها ، وتحمله كما تشاء . كان كريماً بطبعه ، فتمنى لو استطاع أن يقدم لآمى كل ما حوته حوانيت مدينة نيس من أجمل الحلى وأفخرها ؛ ولكنه كان يعلم تمام العلم أنها لن تقبل شيئاً منه ، إن هداياه مهما بلغت ، لن تغير رأيها فيه . ولم يكن رأيها فيه مشجعاً ، بدليل ما يلمسه فى نظراتها من المعانى التى اختلط فيها الأسى بالاستخفاف والدهشة ، وقد ردته هذه

النظرات عنها بعض الرد ، وملأت قلبه بالخشوع والرهبة .

وذات يوم أقبل لورى على عادته ليستريح قبيل الظهر ، فقالت له أمى :

— لقد ذهبوا جميعهم لقضاء اليوم فى موناكو ، ولكنى اخترت أن أتخلف لأكتب رسائلى ، وقد انتهيت منها الآن ، وأريد أن أذهب إلى فالروزا لأرسم بعض المناظر ، فهل ترافقنى ؟

قال فى بطء وهو يشعر بالفارق بين حرارة القيلولة فى الخارج وبين الجو الرطيب الذى يغريه بالراحة فى الصالون الظليل :

— لا مانع عندى ، ولكن ، ألا ترين أن حرارة الجو لا تشجع على المشى طويلا ؟ !

فقالت وهى تنظر ساخرة إلى الفتيات الأنيقات اللواتى كن دائماً موضع تقدير لورى :

— لاتخش المشى ، فسيقود لنا بابتيست العربة الصغيرة ، وما عليك إلا أن ترفع مظلتك ، وتحافظ على جمال قفازك .

قال وهو يمد يده نحو كراسة رسمها ليحملها لها :

— إذاً سأذهب معك بكل سرور .

ولكنها سحبت الكراسة منه ، ووضعتها تحت إبطها وهى تقول بحدة :

— لا . . اتركها لى ، فحملها لا يجهدنى ، ولكنه يرهقك .

ورفع لورى حاجبيه دهشة ، وتبعها فى استرخاء وهى تهبط السلم

جرياً ، وعندما ركبا العربة ، أمسك بأعنة الجياد ، وترك بابتيست ينعس مرتاحاً فى المقعد الخلفى .

ولم يتخاصم الاثنان : فقد كانت آمى آية فى حسن التربية ، وكان لورى فى تلك اللحظة أكسل من أن يبدأ معركة . ولم تمض دقيقة حتى اختلس نظرة متسائلة إلى وجهها المختفى تحت إطار قبعتها الواسعة ، فأجابت بابتسامة رشيقة هادئة ، سارا بعدها فى صفاء ومحبة .

وكانت رحلة ممتعة ، انقضت فى طريق متعرج تكتنفه المناظر الطبيعية الخلابة ، التى تنعش النفس بالرضا والحبور : فهنا دير أثرى قديم تتعالى بين أرجائه تراتيل الرهبان ، وهناك على صخرة جانبية يجلس راعٍ عارى الساقين ، يلبس حذاء خشبياً وقبعة مدببة وسترة خشنة ، ويتسلى بالنفخ فى الناى ، ومن حوله عنزاته تقفز بين الصخور أو ترقد تحت قدميه . وعلى طول الطريق كانت الدواب تجرى محملة بسلال الحشائش الخضراء ، وقد اعتلت السلال بنات صغيرات أو نساء مسنات فى أيديهن مغازل يغزلن بها . وكان الأطفال يخرجون من الأكواخ الحجرية المنتثرة على طول الطريق ، يعرضون على المتنزهين باقات الأزهار والفروع المحملة بالبرتقال الطازج ، وكانت سفوح التلال تكسوها أشجار الزيتون بأوراقها الرمادية ، وأشجار البرتقال بأحمالها الذهبية ، وشقائق النعمان الحمراء تحف بالطريق من جانبيه . ومن وراء هذا كله تنحدر السفوح الخضراء حول جبال الألب الشامخة التى ترتفع قممها البيضاء ، حتى تكاد تمس سماء إيطاليا الزرقاء .

وكانت فالروزا مكاناً جميلا حقًّا : جوها الدافئ يجعل مناخها صيفاً مستديماً ، وورودها المتفتحة تتدلى من التكاعيب ، وتطل برءوسها من بين قضبان أسوار البيوت ، كأنها تحيي القادمين بعبيرها الشذى ، هذا إلى أشجار الليمون والنخيل التى تصطف على طول الطريق الموصل إلى الفيلا . وفى كل ركن ظليل كانت المقاعد المريحة تغرى بالجلوس ، والورود اليانعة تتكتل فوق كل مرتفع أخضر ، وقد وقف فى وسطها تمثال من المرمر لحورية باسمة تحرسها غلالة مزهرة ، وعلى صفحة المياه المحيطة بالنافورات كانت تنعكس صور الورود الحمراء والبيضاء والصفراء والوردية ، التى تميل وكأنها تبتسم فرحاً بجمالها . وكانت الورود تغطى حوائط الفيلا ، وتمتد فوق « كرانيشها » ، وتتساق أعمدتها ، وتلتف حول حواجز شرفاتها الواسعة المطلة على البحر المتوسط ، الذى تسطع على شاطئه الشمس ، وعلى نيس ذات المبانى البيضاء الأنيقة .

ووقفت آمى على الشرفة تستمتع بسحر المناظر وشذى الورود ، ثم سألت لورى قائلة :

ـ أليست هذه الجنة أمتع مكان يقضي فيه شهر العسل ؟ وهل رأيت مثيلا لهذه الورود ؟

قال وهو يمص إصبعه الذى جرحته شوكة ، بعد أن حاول قطف وردة حمراء بعيدة المنال :

ـ لا . . ولم أرقط مثل هذه الأشواك !

قالت آمى ، وهى تقطف من فوق الجدار القريب ثلاث وردات صفراء :

— جرب الورود المنخفضة ، واقطف ما ليس به أشواك .

وثبتت الورود الثلاث فى عروة سترته عربوناً للسلام ، فظل الفتى يتأمل الورود برهة وعلى وجهه تعبير غريب ، فقد كانت الدماء الإيطالية التى تجرى فى عروقه تغريه أحياناً بالتشاؤم وأحياناً بالتفاؤل ، فجاءت هدية آمى ، على ما فيها من مجاملة له ، باعثاً لقلقه ، شأن الشباب الذى يغلبه الخيال فيتلمس فى كل شىء تافه معنى يغذى به خياله الخصيب . كان يفكر فى جو حين حاول أن يقطف الوردة الحمراء ، لأن الزهور الزاهية تناسبها ، وكانت تقطفها من حديقته وتتزين بها . وكانت الورود الصفراء التى قدمتها له آمى ، من ذلك النوع الذى يضعه الإيطاليون على قبور الموتى ولا يقدمونه هدية أو يتزينون به فى مناسبة مفرحة ، ولذلك وقف حائراً يسائل نفسه : أهى نذير شؤم له أو لجو ؟ ولكن ثقافته الأمريكية لم تلبث أن تغلبت على تطيره ، ففاضت عواطفه ، وأطلق ضحكة عالية مخلصة ، لم تسمعه آمى يضحكها منذ أن التقت به فى نيس ، قالت وهى تظن أن كلامها أضحكه :

— إنها نصيحة مخلصة ، ومن الخير أن تعمل بها رحمة بأصابعك .

قال فى مجاملة فاترة :

— أشكرك ، سأعمل بها .

ولم يكن يدرى أنه سيتحمس لهذه النصيحة بعد شهور قلائل .
وجلست آمى على مقعد خشبى خشن المظهر ، وقالت بعد لحظة :
— متى تعود إلى جدك ؟
قال :
— بعد وقت قصير جداً .
قالت :
— سمعتك تقول ذلك عشرات المرات خلال الأسابيع الثلاثة الماضية .
قال :
— صدقت ، و بمثل هذه الإجابات المختصرة يهرب المرء من المتاعب .
قالت :
— ولكنه ينتظرك ، فينبغى لك حقيقة أن تعود إليه .
قال :
— يا لك من مضيفة كريمة ! أعرف أنه ينتظرنى .
قالت :
— ولم لا ترجع إليه ؟
قال :
— إنه عقوق طبيعى على ما أعتقد .
قالت وهى ترميه بنظرة قاسية :
— بل كسل طبيعى ، فيا للخزى !

قال وهو يتمدد راقداً على حافة السور العريض :

— ليس الأمر مخزياً إلى هذا الحد ، فلن ينال جدى من عودتى إلا المضايقة والانزعاج ، ورأيى أنك أكثر احتمالا منه ، لذلك أفضل أن أبقى هنا لأزعجك ، وأظنك ترتاحين لذلك كل الارتياح .

وهزت أمى رأسها يائسة ، وفتحت كراسة الرسم فى استسلام ، ولكنها قررت فيما بينها وبين نفسها أن تلقن « هذا الصبى » درساً لا ينساه .

قالت بعد لحظة :

— ماذا تعمل الآن ؟

قال :

— أراقب بعض السحالى !

قالت :

— بل كنت أسألك عن العمل الذى تنوى أن تشغل نفسك به .

قال :

— سأشغل نفسى بتدخين سيجارة إن سمحت !

قالت :

— يالك من رجل مزعج ! إنى لا أحب التدخين ، ولكنى أسمح لك به إذا سمحت لى برسمك فى كراستى ، فإنى فى حاجة إلى التمرن على رسم الأشخاص .

قال :

— إنك تغمرينى بسرور الدنيا كلها ، فكيف تريدينى ؟ صورة كاملة أم ثلاثة أرباع ؟ أأقف على رأسى أم على قدمى ؟ . . أقترح أن ترسمينى مضطجعاً ، وترسمى نفسك بجانبى ، وتسمى اللوحة « اكسل اللذيذ » !

قالت فى حماسة :

— ابق كما أنت ، ونم إذا شئت ، فإنى أريد أن أعمل بجد لا أمزح .

قال راضياً وهو يستند إلى جرة كبيرة مليئة بالزهر :

— هذه حماسة جميلة .

قالت وهى تحاول أن تثير اهتمامه بذكر أختها النشيطة المرحة :

— ترى ماذا تقول چو لو رأتك الآن ؟

قال وهو يضحك :

— كالعادة « ابعد عنى ياتيدى ، فأنا مشغولة الآن » .

ولكنها كانت ضحكة مفتعلة اكتسى فيها وجهه بظل من الحزن ، فقد مس اسمها العزيز جرحاً فى قلبه لم يندمل بعد . وتنبهت آمى إلى ما اعتراه وكانت قد لاحظت بعض الأمور من قبل ، ورفعت رأسها نحوه ، وعندئذ لاح لها وجهه عامراً بالجمود والمرارة والألم وعدم الرضا . ولكن هذه الانفعالات لم تلبث أن اختفت قبل أن تدرسها جيداً ، وعاد إليه بشره السابق . فراحت ترقبه وتفحصه من الناحية الفنية ، فرأته أقرب شبهاً إلى الإيطاليين ، وهو يرقد عارى الرأس تحت أشعة الشمس ، وقد تاهت

نظراته فى عالم الأحلام ، وأنسته تأملاته وجودها معه .

قالت ، وهى تمضى فى رسم وجهه من الجانب ، وقد أبرز لها الجدار الأسود القاتم من خلفه دقة ملامحه :

— إنك تبدو كنحت بارز لفارس صغير ينام على نصب مقبرته .

قال :

— ليتنى كنت كذلك !

قالت :

— هذه أمنية حمقاء ، ولست أفهم لها معنى إلا إذا كنت قد أفسدت حياتك . إنك تغيرت كثيراً ، وأظن أحياناً . . .

وتوقفت ، وقد تجلى فى وجهها من علائم الحيرة والخجل والحزن ما يغنى عن الكلام .

ورأى لورى نظراتها ، وأدرك ما تنطوى عليه من قلق فضح عواطفها التى حرصت على إخفائها طويلا ، فواجهها بصراحة وقال ، كما كان يحدث والدتها :

— كل شىء على ما يرام ، ياسيدتى .

ونزل كلامه عليها برداً وسلاماً . وانزاحت عنها الشكوك التى كانت تنتابها أخيراً . فقالت له فى تأثر :

— إنى سعيدة بذلك ، والواقع أنى لم أظنك سيئاً فى يوم من الأيام ، ولكنى خشيت أن تكون قد خسرت مالا فى ذلك المكان الموبوء المسمى

بادن بادن ، أو ربما وقعت فى شراك غانية متزوجة ، أو تورطت فيما يتورط فيه الشبان وهم فى بلاد غير بلادهم . . . لا ترقد فى وهج الشمس هكذا ، تعال هنا على هذه الحشائش الخضراء ، ولنتصالح مرة ثانية .

وكانت لهجتها فى الكلام شبيهة بچو حين تدعوه إلى الجلوس معها على الأريكة بجانبها ، لتتبادل معه الأخبار والأسرار .

وأطاع لورى أمرها ، ورقد على البساط الأخضر ، وراح يرشق الأزهار الصغيرة فى قبعتها الملقاة أمامه ، ثم رفع رأسه إليها وهو يقول فى اهتمام واضح :

— علىّ بالأسرار ، فأنا على أتم الاستعداد لسماعها .

قالت :

— ليس لدىّ ما أقوله ، فابدأ أنت .

قال :

— ولا أنا أيضاً ، ولكن ربما كانت لديك أخبار من الأسرة .

قالت :

— أنت تعلم آخر أخبارها ، وأعتقد أن چو تكتب لك مجلدات ومجلدات .

قال :

— إنها مشغولة جداً ، وأنا لا أستقر فى مكان واحد كما ترين ، فمن المستحيل أن تنتظم الرسائل بيننا .

وسكت لحظة وهو يتساءل فى نفسه إذا كانت آمى تعرف بما جرى بينه وبين چو ، وتريد بهذه الطريقة أن تستدرجه إلى الكلام. قال يغير الموضوع :

— متى تبدئين عملك الفنى الخالد يا « رفائيلا » ؟

قالت :

— لن أبدأه أبداً ، فقد شفتنى روما بأعاجيب فنها وتحفها ، فأمام عظمة مارأيت ، شعرت أن لاقيمة له ، فتنازلت يائسة عن آمالى الحمقاء.

قال :

— ولم تنزلين عن آمالك ، وأنت نشيطة موهوبة ؟

قالت :

— ليست الموهبة كل شىء والنشاط مهما بلغ لا يخلق العبقرية ؛ وأنا أحب أن أكون عظيمة أو لاأكون شيئاً مطلقاً . لايرضينى أن أصبح رسامة عادية ، لذلك لم أشأ أن أقوم بمحاولة جديدة فى هذا الميدان .

قال :

— وماذا اعتزمت أن تفعلى بنفسك ؟

قالت :

— قررت أن أرعى مواهبى الأخرى ، لأصبح زينة المجتمع إذا ما سنحت الفرصة .

وكان حديثها هذا ينم عن شخصية تؤمن بالمغامرة ، وكان لها من

شبابها المتفجر ، وأطماعها الطيبة ، ما تستند إليه فى تحقيق آمالها . وابتسم لورى معجباً بحزمها وسرعتها فى التحول إلى غرض آخر ، بعد أن ضاع أول أمل تعلقت به طول حياتها . قال :

— عظيم . . . ويخيل إلى أنى أرى أثر فريد فوهن فى كل ذلك .

ولزمت آمى الصمت التام ، ولكن النظرة الواعية فى عينيها المسبلتين ، جعلته ينتصب جالساً ويقول فى جد :

— أتسمحين لى أن ألعب الآن دور الأخ وأسألك بعض الأسئلة ؟

قالت :

— سل ماشئت ، ولكنى لا أعدك بالإجابة .

قال :

— سأقرأ الرد فى وجهك إذا لم أسمعه بلسانك ، فلست المرأة المحنكة ، التى تعرف كيف تخفى مشاعرها . الواقع أنى سمعت فى العام الماضى إشاعات كثيرة عن علاقتك بفوهن ، وأعتقد أنه لولم يستدع على عجل إلى بلاده فجأة ، ويضطر إلى البقاء فيها مدة طويلة ، لحدثت بينكما أمور وأمور ، أليس كذلك ؟

قالت باقتضاب :

— لست أنوى الإجابة على هذا السؤال .

ولكن شفتيها فضحتا بسمة راضية ، وأفصح لمعان عينيها الماكرتين عن شعورها بسحرها ، ورضاها عن قدرتها على استغلاله .

قال فى جد ، وقد اتخذ لنفسه صفة الأخ الأكبر :

ــ أرجو ألا تكونا مخطوبين ؟

قالت :

ــ لا .

قال :

ــ ولكنك ستوافقين على خطبته إذا عاد من بلده ، وجثا على ركبتيه بالطريقة المثلى . . أليس كذلك ؟

قالت :

ــ يحتمل جداً .

قال :

ــ أتحبينه إذاً ؟

قالت :

ــ من السهل أن أحبه إذا حاولت .

قال :

ــ لن تحاولى ذلك حتى يأتى الوقت المناسب ، فلست أراه الرجل الذى يعجبك يا آمى ، رغم طيبته وتهذيبه .

وأخجلتها أطماعها ، رغم حسن نواياها ، فقالت وهى تصطنع الهدوء والوقار :

ــ إنه كريم الأخلاق ، غنى ومهذب .

قال :

— تعنين أن ملكات المجتمع لا يظهرن بغير المال ، فهل قررت أن تتمى هذه الزيجة الرابحة ، وتبدئى حياتك بهذه الصورة ؟ إنه عين الصواب فى كل أنحاء الدنيا ، ولكنى أستغرب أن يصدر عن إحدى بنات والدتك !

قالت :

— ولكنها الحقيقة على كل حال .

ولم تكن الجملة الحازمة القصيرة تتفق مع صاحبتها الشابة البريئة ، فانتابت لورى خيبة أمل غريزية لا يفهم كنهها ، لذلك استلقى على الأرض مرة ثانية ، وأمسك عن الكلام ، ولكن صمته أقلق أمى ، كما أقلقها نفورها الداخلى من الرأى الذى أبدته . قالت فى حدة :

— هل تصنع فىّ معروفاً فتستيقظ لنفسك وتستفيق ؟

قال :

— إذا أردت ذلك ، فأنقذينى أنت من فضلك !

قالت ، وكأنها تقصد التنفيذ بأخصر طريق :

— يمكننى إذا حاولت .

قال وهو يتلذذ بإغاظتها بعد أن طال حرمانه من هذه الوسيلة اللطيفة للتسلية :

— وأنا أسمح لك بذلك ، فحاولى من فضلك .

قالت

— ثم تغضب منى بعد خمس دقائق ؟

قال :

— تتوالد النار عادة باحتكاك حجرين من الصوان ، وأنت كالثلج هادئة ناعمة .

قالت :

— للثلج بريق وهّاج ، وإذا أحسن استعماله كانت له لسعة قاسية ، وفى مقدورى أن أفعل أكثر مما تتصور . إنك تصطنع عدم المبالاة ، ومن السهل أن أثبت لك ذلك بقليل من الاستثارة .

قال :

— استثيرينى ما شئت ، فلن يصيبنى ضرر ، بل ربما أجد فيما تفعلين تسلية ، كما يقول الرجل الضخم عندما تضربه زوجته النحيلة . فافترضى أنى زوجك أو أنى بساط تفرشينه على أرضيتك ، واضربينى حتى يكل ساعدك ، إذا كان يلذ لك هذا التمرين .

ولما كانت آمى قد أوقعت نفسها بنفسها فى هذا المأزق ، وكانت فى ذات الوقت تتوق إلى إخراجه عن جموده ، فقد شحذت لسانها مثلما شحذت قلمها وقالت :

— لقد اتفقنا أنا وفلو أن نطلق عليك اسماً جديدا ، هو « لورنس الكسول » ، فما رأيك ؟

وكانت تظن أنها ستغضبه بهذا الكلام ، ولكنه شبك يديه تحت رأسه وقال بهدوء :

ـ اسم لا بأس به ، شكراً لكما أيتها السيدتان .

قالت :

ـ أتريد أن تعرف رأيي فيك ؟

قال :

ـ إني أذوب شوقاً لأعرفه .

قالت :

ـ حسناً ، إني أحتقرك .

ولو أنها اختارت أن تقول هذه الجملة في تحدٍّ أو في دلال ، لضحك منها ، وتقبّل كلماتها ، ولكن لهجتها الحزينة جعلته يفتح عينيه ويقول :

ـ ولِمَ إذا سمحت ؟

قالت :

ـ لأنك رغم ما توافر لك من الفرص لتكون طيباً نافعاً سعيداً ، فضلت حياة الخطأ والكسل والتعاسة .

قال :

ـ ألفاظ قوية يا آنسة !

قالت :

— إذا كانت تروقك ، فلدىّ منها مزيد .

قال :

— استمرى من فضلك ، فإن حديثك يسلينى إلى أبعد حد .

قالت :

— كنت واثقة من ذلك ، فالأنانيون أمثالك يحبون الحديث عن أنفسهم .

قال :

— وهل أنا أنانى ؟

ونطق بهذا السؤال فى دهشة طبيعية صادقة ، إذ كان يعتقد أن إنكار الذات أبرز فضائله .

قالت :

— نعم . أنت أنانىّ جداً .

واستطردت تقول فى هدوء أشد وقعاً فى النفس من ثورة الغضب :

— وسأبرهن لك كم أنت أنانىّ ؛ فقد درست أحوالك ونحن نمرح معاً ولم أجد فيها ما يرضينى ، ومن ذلك مثلا أنك قضيت ستة شهور فى أوربا ، لم تؤد فيها أى عمل من الأعمال ، اللهم إلا إضاعة الوقت والمال ، مما خيب آمال أصدقائك فيك .

قال :

— أليس من حقى أن أتمتع بوقتى بعد كفاح دام أربع سنوات ؟

قالت :

— ولكنك لا تبدو مستمتعاً بوقتك ، ورأيي أنك لا تستحق هذه المتعة ، لقد قلت لك حين التقينا إنك تحسنت كثيراً عن ذى قبل ، ولكني أسحب كلامي ، فأنت الآن نصف ما كنت عليه حين تركتك فى الوطن ، أصبحت كسولا خاملا ، تحب الثرثرة والأقاويل ، وتضيع وقتك فى توافه الأمور ، قانعاً عن تقدير العقلاء واحترامهم ، بما يضفيه عليك البله من رخيص التدليل والإعجاب . ورغم ما حباك الله به من مال وجاه وموهبة وصحة وجمال — تلك الحقائق التى لا يسعنى إنكارها مع مافيها من إطراء يرضى غرورك — عزفت عن استغلال مزاياك هذه فيما يجعلك رجلا عظيما واخترت الدعة والعبث ، حتى أصبحت . . .

وتوقفت آمى عن الحديث وفى عينيها أبلغ معانى الألم والرثاء ، فأكمل لورى جملتها قائلا :

— شرابة خُرْج ! !

قالها بلهجة لطيفة هادئة ، ولكن حديث آمى — فى الحقيقة — أصابه فى صميمه ، فقد التمعت عيناه ، واتسعت حدقتاه ، وحلت علائم الغضب فى وجهه محل الاستهتار وعدم المبالاة .

قالت آمى بمرارة :

— قد تجيب على ذلك بأننا معشر النساء ملائكة ، وفى مقدورنا أن نصنع منكم ما نريد ، ولكن ما إن نبدأ فى المحاولة ، حتى تعرضوا عنا ساخرين مستهزئين ، مما يدل على زيف إطرائكم لنا .

وأدارت آمى ظهرها لصديقها المحنق الذى يرقد عند قدميها ، فلم تمض لحظة حتى أحست بيد تغطى الصحيفة التى ترسم فيها ، وسمعت صوت لورى يقول مقلداً لهجة الطفل التائب :

ـ سأكون ولداً طيباً ، سأكون ولداً طيباً .

ولم تضحك آمى ، فقد كانت جادة فى حديثها متحمسة له . قالت فى رزانة ، وهى تدق بقلمها على اليد التى تغطى كراستها :

ـ ألا تخجل من يدك هذه ؟ إنها كيد امرأة : بيضاء ناعمة ، كأنك لم تستعملها إلا فى لبس القفازات الغالية التى تشتريها من محل « جيوفانى » ، أو حمل باقات الأزهار للسيدات . لست رقيعاً والحمد لله ، فأصابعك ما زالت خلواً من الخواتم والماسات ، ولست أراك تلبس سوى هذه « الدبلة » الصغيرة التى أهدتك إياها چو منذ زمن طويل ، فياليتها كانت معى الآن لتساعدنى عليك !

قال :

ـ ليتها كانت !

وسحب يده فجأة كما وضعها ، ولكن لهجته العامرة بالحيوية والقوة أثارت أفكاراً جديدة فى رأس آمى ، فالتفتت إليه تبحث عن الحقيقة فى عينيه . وكانت قبعته الواسعة تغطى نصف وجهه ، وشاربه يحجب فمه ، فلم تر منه إلا صدراً يرتفع وينخفض فى أنفاس طويلة ، كأنما يتنهد ليخفف عبئاً يثقل عليه ، أما يده فقد غاصت بالدبلة فى الحشائش ، كما

لوكان يحاول أن يخفى شيئاً عزيزاً ، أثمن وأدق من أن يتحدث عنه . وطافت برأس آمى فى هذه اللحظة القصيرة أشتات من الأفكار ، وتجمعت فى ذهنها إشارات وعبارات ، وتذكرت حركات وسكنات ، ثم بدأت تكون من كل هذا صورة ناطقة بالمعانى والدلالات . أدركت لفورها أن سرًّا لا تعرفه يربط لورى بأختها ، استعادت فى ذاكرتها كيف كان يغتم حين تحدثه عن چو ، وكيف تغيرت شخصيته وتبدل مسلكه فى رحلته هذه ، وكيف وضع الخاتم القديم فى إصبعه مع أنه لا يصلح حلية ليده الأنيقة . وأرشدتها غريزتها النسائية — والنساء أسرع ملاحظة لمثل هذه الأمور الصغيرة ، وأشد إدراكاً لمعانيها — أن وراء هذا التغيير فى نفسية لورى قصة حب فاشل ، فزايلتها قسوتها عليه ، وفاضت عيناها الحادتان أسى وعطفاً ورقة ، وقالت تحدثه بصوت حنون تعرف كيف تصطنعه فى الوقت المناسب :

— أعلم أنه ليس من حقى أن أتحدث إليك بهذه اللهجة يالورى ، ولولا كرم أخلاقك ما قبلت تطفلى على شئونك ، ولكن عذرى أننا جميعاً نحبك ونفخر بك ، وليس أبغض إلينا من أن تعود إلى الوطن خائباً ، وإن كنت على يقين أنهم هناك يدركون أسباب تغيرك أكثر منى .

قال لورى فى صوت أجش محطم ، وقد رفع قبعته عن وجهه :

— أظن ذلك .

قالت آمى فى دهاء تريد به أن تستدرجه إلى اعتراف بالحقيقة :

ـ كان يجب على أخواتى أن يحدثننى بكل شىء ولا يتركننى أسىء بك الظن ، فأعنفك وألومك ، بدل أن أضاعف عطفى عليك . والواقع أننى لم أكن أحب مس راندل فى يوم من الأيام ، ولكنى الآن أكرهها من صميم قلبى !

وأزاح لورى القبعة عن وجهه فى غضب ، ونظر إلى آمى نظرة قطعت بحقيقة عواطفه ، نحو مس راندل ، ثم قال بسرعة :

ـ فلتذهب مس راندل إلى الشيطان !

قالت :

ـ أستميحك عذراً ، فقد ظننت . . .

وتوقفت آمى عن إتمام حديثها فى مهارة دبلوماسية ، فقال لورى وهو يشيح بوجهه ثائراً :

ـ لم تظنّى شيئاً ، لأنك تعرفين تماماً أننى ما اهتممت يوماً بامرأة غير چو .

قالت :

ـ لم يحدثنى أحد فى هذا الموضوع ، ولم أتلق فى رسائلى كلمة تشير إليه ، فمن أين لى أن أعرف بجفاء چو ، خصوصاً بعد سفرك إلى الوطن ومجيئك إلى هنا؟ أعتقد أنها تحبك أعمق الحب ، فلم تصرفت معك هكذا ؟

قال :

ـ كانت تعاملنى دائماً بحنان ، ولكن حنانها كان من نوع آخر غير

الذى أنشده ، ولعلها أحسنت بذلك ما دمت رجلا تافها كما تقولين . لقد أخطأت فى حقى على كل حال ، ويمكنك أن تبلغيها هذا الكلام .

وعادت النظرة الصارمة المريرة إلى وجهه ، فأشفقت عليه آمى ، واحتارت أى بلسم تستخدم لتخفف آلامه . قالت :

ــ أعتذر عن ثورتى عليك ، وقد أخطأت لجهلى بالأمر ، وعلى كل حال لم يكن فى استطاعتى أن أمنعها ، ولكنى كنت أظنك أهلا لاحتمال رفضها بطريقة أفضل ، يا تيدى العزيز !

قال :

ــ لا تقولى « تيدى العزيز » فليس لغيرها أن يناديني بهذا الاسم !

ورفع يده إلى فم آمى كأنه يريد أن يوقف الكلمات قبل أن تنطق بها فى لهجة چو ، التى تجمع بين الحنان والتأنيب ، ثم أردف فى صوت خفيض وهو يقتلع الحشائش من الأرض بكلتا يديه :

ــ انتظرى حتى تمرى بمثل هذه التجربة !

قالت :

ــ إذا لم أفز بالحب المنشود ، فان أتردد عن احتمال الفشل فى رجولة ، وبذلك أصون كرامتى .

وكان لورى يظن أنه احتمل الصدمة صامتاً صابراً ، وطوى صدره على عذابه ليعانيه وحيداً . ولكن حديث آمى فتح له آفاقاً جديدة ، فرأى لأول مرة ، أنه من الضعف والأنانية أن يفقد المرء اتزانه عند أول فشل

يصدمه ، فيعتزل الدنيا غير مبال بما يدور حوله فيها . وأحس بما يحس به النائم إذا استيقظ فجأة من كابوس ثقيل طيّر النوم من عينيه . سأل آمى فى تمهل :

ــ أتحتقرنى چو كما احتقرتنى أنت ؟

قالت :

ــ أخشى أن تفعل إذا ما رأتك على هذه الحال ، فهى تكره الكسالى ورأيى أن تأتى عملا عظيما يجعلها تحبك !

قال :

ــ بذلت غاية جهدى بلا جدوى .

قالت :

ــ أتعنى تخرُجك فى الكلية بامتياز ؟ كان هذا واجباً يتحتّم عليك أن تؤديه إرضاء لجدك ، وكان من العار أن تفشل بعد ماضيعت من مال ووقت ، خصوصاً وقد كنا جميعاً نعلم أنك أهل للنجاح ، وفى مقدورك أن تنال أعلى درجاته إذا شئت .

فقال لورى ، وقد أسند رأسه على راحته فى قنوط :

ــ بل فشلت رغم كل ما تقولين ، فقد رفضت چو أن تحبنى !

قالت :

ــ لا ، لم تفشل ، وستدرك ذلك فى النهاية ، فقد أفدت وبرهنت على أنك تستطيع كثيراً متى شئت . ويقينى أنك إذا بدأت محاولة جديدة من

هذا الطراز ، تسترد بشاشتك وسعادتك ، وتنسى همومك وأحزانك .

قال :

— مستحيل !

قالت :

— جرب تَرَ ! . . لاتهز كتفيك وتقل « هذه الفتاة لاتعرف شيئاً » فلست أدعى الحكمة والمعرفة ، ولكنى أرقب سير الأمور ، وأرى الأشياء أكثر مما تتصور . قد لا أستطيع تفسير أحوال الناس ، غير أنى أهتم كثيراً بتجاربهم وأخطائهم ، وأحاول أن أتذكرها دائماً ، لأستفيد بما فيها من عظات وعبر . لا مانع من أن تحب چوطول حياتك ، ولكن لا تدع هذا الحب يفسد عليك أمرك . فحرام أن يدمر الإنسان مواهبه من أجل امرأة يريدها ولا يستطيع الحصول عليها . لن أمضى فى نصائحى ، وعلى كل حال ، فعن قريب تستجمع شتات نفسك ، وتصحو من غفوتك ، فتسلك مسلك الرجال رغم قساوة قلب هذه الفتاة .

وساد الصمت برهة ، كان لورى خلالها يعبث بالخاتم فى إصبعه ، وتشاغلت آمى عنه بوضع اللمسات الأخيرة فى الصورة التى كانت ترسمها ، وعندما انتهت منها ، وضعتها فوق ركبتيه وقالت :

— ما رأيك فى هذه الصورة ؟

وابتسم لورى أمام ما رأى فى هذه الصورة من مهارة وإتقان ، إذ كانت آمى قد رسمته فيها ممدداً على الحشائش فى استرخاء وكسل ، عيناه

مسبلتان ، وعلى وجهه سيماء الشرود ، وكان يمسك سيجاراً ينعقد دخانه فى حلقات حول رأسه الحالم .

وتأمل لورى الصورة مليًّا ، ثم قال فى غبطة ودهشة :

— إنك تحسنين الرسم .

ثم أضاف ضاحكاً :

— نعم هذا أنا . . وهذه صورتى بعينها .

قالت آمى وهى تضع صورة أخرى بجانب الأولى :

— هذه صورتك الآن ، أما هذه فصورتك كما كنت أولا . .

ولم تكن الصورة الثانية متقنة كالأولى ، ولكن أخطاءها اختفت وراء ما فيها من حياة وحركة . كانت تمثل الماضى بسعادته وجماله ، فتدافعت الذكريات إلى ذهن لورى ، واكتسى وجهه بسحابة حزينة لم يخف أمرها على الفتاة الحصيفة . ولم تكن الصورة إلا خطوطاً مبدئية ، تمثل لورى وهو يروض حصاناً بعد أن خلع قبعته وسترته ، وكان منظراً عامراً بالحيوية المتدفقة : فقد خضع الحصان الجامح لمدربه الماهر ، وحنى رأسه لقوة الفارس الذى يشد عنانه ، وأخذ يضرب الأرض بإحدى قدميه فى صبر نافد ، فى حين انتصبت أذناه كأنما ينصت لصوت مدربه . وكانت صورة الفارس ، بقوامه الممشوق وشعره المتموج ، تنطق بالقوة والشجاعة والفتوة والانشراح ، مما يتعارض كلية مع الصورة الأخرى التى أطلقا عليها « الكسل اللذيذ » .

ولم يتكلم لورى ، ولكن آمى أحست بحيرته ، وهو ينقل بصره من صورة إلى أخرى ، وقد احمر وجهه وزمّ شفتيه ، كأنما فهم الدرس الصغير الذى ألقته الفتاة عليه . واغتبطت نفسها بذلك ، فلم تنتظر حتى يتكلم ، بل بادرت تقول فى لهجة صافية :

ــ أتذكر يوم روضت الفرس الجموح على مشهد منا ، فخافت ميج وبث ، ولكن چو راحت تصفق لك وتقفز إعجاباً ؟ جلست يومها على السور أرسم صورتك ، ثم وضعتها فى حافظتى ونسيت أمرها ، حتى عثرت عليها أمس الأول بمحض المصادفة ، فأكملت اللمسات الأخيرة فيها قبل أن أريكها .

قال :

ــ أنا شاكر ممتن ، وأشهد أنك تقدمت فى الرسم كثيراً منذ ذلك الوقت فلك مزيد التهانى . وبعد ، فهل لى أن أذكرك ، ونحن فى جنة شهر العسل هذه ، أن الساعة الخامسة هى موعد تقديم الطعام فى فندقنا ! !

ووقف لورى أمامها ، وأعاد إليها الصورة بابتسامة وانحناءة ، ثم نظر إلى الساعة كأنه يذكرها بوجوب الانتهاء من المواعظ والمحاضرات . وقد حاول أن يستعيد مظهر الاستهانة وعدم المبالاة ، ولكنه بان مصطنعاً ، لأن آمى أصابت الهدف باستثارتها له ، وتركت فيه أثراً أعظم كثيراً مما يجب أن يعترف به . وأحست آمى بظل من البرود فى طريقة معاملته ، ولكنها قالت لنفسها :

ـ يسعدنى أن أغضبته لصالحه ، ويؤسفنى أن يكرهنى لما قلته ، ولكنها الحقيقة ولا تراجع عنها .

وفى طريقهما إلى الفندق ، راح السائق باتست يرقبهما من مقعده ، ويقول لنفسه : « إن السيد والمدموازيل منسجمان جداً » ، إذ كانا يثرثران معاً ويضحكان طول الوقت ، ولكنهما كانا يشعران بحرج داخلى ، ويحسان كأن غمامة غشيت صفاء مودتهما السابقة . وبالرغم من تظاهرهما بالمرح ، حل بقلب كل منهما بعض النفور والقلق .

وحين وصلا إلى باب عمتها ، سألته :

ـ أنراك هذا المساء يا أخى ؟

قال وهو ينحنى ، كأنما يهم بتقبيل يدها على الطريقة الأوربية التى يتقنها أكثر من غيره من الرجال :

ـ يؤسفنى أنى ارتبطت بموعد سابق . فوداعاً يا آنسة !

ورأت آمى فى وجهه ما أقلقها ، فقالت بحرارة :

ـ خل عنك هذا التصنع يالورى ، ولنفترق بطريقتنا القديمة الحلوة ، فأنا أفضل أن تصافحنى بحرارة على هذه التحيات الفرنسية العاطفية .

فقال وهو يشد على يدها حتى أوجعها :

ـ مع السلامة يا عزيزتى .

وفى صباح اليوم التالى ، لم يأت لزيارتها كالمعتاد ، وجاءتها بدلا منه رسالته ، فما إن قرأت آمى السطور الأولى منها ، حتى تنهدت باسمة .

قال فى رسالته :

« مرشدتى العزيزة

أرجو أن تبلغى عمتك تحية وداعى ، وتهنئى نفسك لأن « لورنس الكسول » عاد إلى جده كأحسن الأولاد . أتمنى لك شتاء سعيداً ، وشهر عسل مباركاً فى ڤالروزا . وأظن أن « فريد » سيفيد كثيراً من إرشاداتك ، فأبلغيه ذلك مع تهانئى .

« الشاكر الضال »

قالت لنفسها وهى تبتسم راضية :

— إنى مسرورة بذهابه ، فيا للولد الطيب !

ونظرت حولها فى الحجرة الخاوية فاغتم وجهها وقالت :

— سأفتقده كثيراً ، ولكنى سعيدة بذهابه .

الفصل الأربعون

وادى الظلال

حين انقضت لوعة الحزن الأولى ، تقبل أفراد الأسرة باستسلام قضاء الله الذى لا مفر منه ، وحاولوا جهدهم أن يخففوا وطأته بالتفانى فى بذل المحبة التى تقوى روابط الأسرة فى أوقات الشدائد ، فتركوا أحزانهم جانباً ، وتعاونوا على أن يشيعوا السعادة فى كل يوم من أيام السنة الباقية لبث .

وخصصت أبهج الغرف فى البيت لإقامة بث ، وجمع فيها كل ما تشتهيه الفتاة وتحبه من زهور وصور ، وكذلك وضع فيها معزفها و « طاولة »

أشغالها وقطيطاتها العزيزة . وأودع الأب فى هذه الغرفة خير كتبه وأكثرها تشويقاً للنفس ، وبعثت الأم إليها بمقعدها المريح ، وجاءت آمى بأحسن رسومها وچو بذخيرتها من المؤلفات العظيمة . وحرصت ميج على أن ترسل أطفالها كل يوم لزيارة خالتهما بث ليبعثوا السعادة فيما تبقى من حياتها . وخصص جون جانباً من ماله لشراء الفواكه التى قد تحتاج إليها المريضة أو تشتهيها ، ولم تدخر حنة جهداً فى إغرائها على الأكل بصنع ألذ الأطعمة وأطيبها ، وكانت تعد تلك الأطعمة ودموعها تسيل على خديها حزناً وإشفاقاً ، وكانت الهدايا المفرحة تأتيها من وراء البحار ، فتجلب معها نسمات عاطرة من بلاد لا تعرف برودة الشتاء .

وجلست بث فى هذه الصومعة العامرة بالحب ، هادئة مشغولة كعادتها ولم يغير المرض طبيعتها الحلوة المنكرة لذاتها . فظلت إلى آخر ساعات حياتها تشيع الهناء فى قلوب أولئك الذين ستتركهم وراءها . ولم تنقطع أناملها الواهنة لحظة عن العمل بلا كلل ولا ملل ، وكان يسعدها أن تصنع تحفاً صغيرة تهديها لأطفال المدارس الذين يمرون بنافذتها كل يوم فى ذهابهم وعودتهم ، فكانت تلقى إليهم أشياء صغيرة مبهجة : مثل قفاز يحمى اليدين اللتين هرأهما البرد ، أو ثوب صغير لدمية ، أو ممسحة لقلم لكاتب صغير تائه فى بيداء الكتابة ، أو كتيب مصور لمحبى الفنون ، إلى آخر هذه المبهجات البسيطة التى تسعد السائرين فى طريق المعرفة والعلم . وكان الأطفال يقدسون تلك الراعية الكريمة ، التى تمطرهم من برجها العالى

بأجمل الهدايا وأحبها إلى نفوسهم . وإذا كانت بث تنتظر جزاء على عملها هذا ، فقد وجدته وفيراً فى الوجوه المشرقة التى تتطلع دائماً إلى نافذتها محيية باسمة ، وفى الرسائل العجيبة التى كانت تصلها عامرة بالوفاء وبقع الحبر .

ومضت الشهور القلائل الأولى فى سعادة ، فكانت بث تنظر إلى المجتمعين حولها فى حجرتها المشمسة وتقول : « ما أبدع هذا ! ! » ؛ فالتوأمان يلعبان على الأرض ، وأمها وأخواتها يشتغلن بجانبها ، وأبوها يقرأ لها بصوته الرخيم ، ويسمعها أجمل ما احتوته الكتب القديمة من حكم غابت القرون بقوتها وسحرها . وكانت غرفتها أشبه بكنيسة صغيرة يفتن راعيها فى توجيه أتباعه إلى ما يجب أن يعرفوه من أن المحبة تنتعش بالأمل ، وأن الإيمان يروض النفس على الرضا بحكم القدر . كانت دروساً بسيطة تلك التى يلقيها الأب ، ولكنها كانت عامرة بالإيمان الراسخ ، فأصابت من القلوب صميمها ، وزادها أثراً فى النفوس ، رجفة صوته ، واختلاجة نبراته .

وخيم السلام على تلك الفترة الحزينة ، وأشاع الإيمان فى نفوس أفراد الأسرة هدوءاً أعدهم لقبول أحكام المحنة المقبلة عليها ، فقد استبدت العلة ببث وأتت على قواها ، حتى عجزت أصابعها الواهنة عن حمل الإبرة فتركتها إلى الأبد . وأصبح الحديث يجهدها ، والوجوه الحزينة تقلقها ، واستولى عليها الألم كلية ، واكتست روحها الهادئة بغلالة من الحزن الدفين فى جسدها النحيل الضعيف . وكم كان عسيراً على أفراد الأسرة أن يروا الأيام تحمل بث إلى نهايتها المحتومة فى بطء يجعل من الساعة دهراً . . وكم

كان مضنيا لقلوبهم أن تمد إليهم ذراعيها النحيلتين تطلب المعونة ، وهم على فرط حبهم لها ، عاجزون عن تلبية طلبها . كان صراعاً عنيفاً بين فتوة الروح وجبروت الموت ، ولكن رحمة الله لم تلبث أن أدركتها ، فكفت عن الصراع ، وسكنت روحها راضية مرضية ، وأصبحت نفسها أبهى ماتكون إيماناً واطمئناناً ، وأحس من حولها أنها قد أعدت العدة لتلبية نداء ربها رابطة الجأش ، وقنعت بالوقوف على حافة الحياة فى انتظار الملائكة الذين أقبلوا ليصحبوا روحها ، وهى تعبر المضيق إلى الأبدية الخالدة .

ولم تفارق چو مكانها بجانب أختها منذ أن سمعتها تقول : « إنى أشعر بالقوة ما دمت معى ، » فكانت تنام على أريكة بغرفتها ، وتستيقظ بين ساعة وأخرى لتغذى نيران المدفأة بالوقود ، أولتطعم المريضة ، أو تساعدها على الحركة ، أو تؤدى لها خدمة . لأن بث كانت تكره أن تكون عبئاً على غيرها فلا تطلب شيئاً من أحد . وفى أثناء النهار كانت چو لا تسمح لغيرها بتمريض أختها ، فخورة بأنها اختيرت لهذه المهمة ، التى تؤمن بأن قيامها بها ، هو أعظم مجد نالته فى حياتها . وكانت هذه الساعات عزيزة على نفس چو ، فقد تعلمت منها ما كان ينقصها من صبر وتسامح ، مع استعداد مخلص لغفران أخطاء الآخرين . وهكذا صقلتها المحنة عن ذى قبل ، ومنحتها التجارب قدرة على تذليل الصعب ، ومجابهة الأخطار فى إيمان عميق لا يعرف الخوف أو اليأس .

وكلما استيقظت چو وجدت بث تستعين على قطع الليل الطويل

بالقراءة فى كتيبها الصغير العتيق ، أو بالغناء فى صوت شجى واهن ، أو تراها وقد اعتمدت وجهها على كتفيها ودموعها تتساقط فى بطء بين أصابعها البيضاء النحيلة ، وينفطر قلب چو وهى ترى أختها تحاول بطريقتها السهلة ، أن تقطع ما بينها وما بين الحياة العزيزة بترديد الأدعية والصلوات وبالموسيقى التى تحبها كل الحب .

وكانت هذه المناظر أعمق أثراً فى فؤاد چو ، من المواعظ الحكيمة ، والأناشيد المقدسة ، والصلوات الحارة ، فقد أدركت بعينيها الدامعتين وقلبها الذى أصفاه الحزن ، مدى جمال الحياة الفارغة التى عاشتها أختها ، جمال الحياة التى خلت من الأحداث والمطامع ، وإن عمرت بخير الفضائل التى يزهر نبتها ناضراً فى ثرى دنيانا الفانية ، فينعش النفوس بعبيره الزكى ، كما أدركت من سلوك أختها تجاه نهايتها المحتومة ، أن نكران الذات يجعل أقل الناس شأناً على الأرض ، أعلاهم مقاماً فى السماء ، وهو أجمل نجاح يناله إنسان .

وبينما كانت بث ذات ليلة تقلب فى كتبها الموضوعة على المائدة ، باحثة عما ينسيها ضيقها بالدنيا ، وهو ما كانت تجد مشقة فى احتماله كالألم سواء بسواء ، عثرت فى طيات كتابها الحبيب المفضل « رحلة الحجيج » على ورقة صغيرة مكتوبة بخط چو . واستوقفت نظرها فى هذه الورقة ، حروف طمستها دموع كاتبتها ، فقالت فى نفسها وهى تلقى نظرة حانية على أختها الراقدة على السجادة ، وبجوارها قضيب حديدى وضعته

فى متناول يدها لتحرك به نيران المدفأة حالما تستيقظ من نومها :

إن چو المسكينة مستغرقة فى نومها ، ولست أظننى فى حاجة إلى أن أوقظها لأستأذنها فى قراءتها ، قد تعودت أن ترينى كتاباتها كلها .

وراحت تقرأ :

إلى عزيزتى بث

جلستْ صابرة فى طيات الظلال
تنتظر سطوع النور المقدس .
يا لها من روح راضية مرضية
تنشر الرحمة فى بيتنا المكدود .
مسرات الدنيا ، وآمالها وآلامها ،
تنكسر مثل أمواج صغار
ترتطم بشاطئ النهر المقدس ،
حيث تقف أقدامها فى استسلام .

أواه يا أختاه ! يا من سترحلين
بعيداً عن هموم البشر وكفاحه ،
أعطينى بعضاً من فضائلك الغالية ،
التى سبغت على حياتك منتهى الجمال ،
أعطينى ، أيتها العزيزة ، صبرك العظيم ،

الذى أطلق روحك بالرضا والانشراح
وأعطاها من لدنه قوة ،
وهى حبيسة فى سجن الألم

أعطينى بعض حاجتى ،
من حكمة شجاعتك الحلوة
التى عبرت طريق الأبدية المرير
تحت خطواتك الثابتة المطمئنة ،
هبينى طبيعتك المنكرة للذات ،
التى استطاعت ببرها القدسى .
أن تغفر الأخطاء من أجل الحب !

أيها القلب السمح ، اغفر لى بدورى ما أخطأت ،
وبهذا يهون ألم الفراق ،
وتخف مرارة وقعه على النفس ،
وتصقلنى المحنة بدرسها العصيب ،
فأخرج من خسارتى بكسب عظيم ،
يهدئ المصاب من طبعى الوحشى ،
ويسبل عليه السكينة والهدوء ،
ويحيل أحزانى آمالا وإيماناً

وثقة بما يأتى به الغيب المجهول .
وإذا جاء دورى
لأعبر النهر إلى ذات المصير
نحو روح عزيزة تقف فى الانتظار
لتلقانى على شاطىء الأبدية الفسيح ،
سأسير إليها ثابتة الجنان
مع الأمل والإيمان ملكىّ الحارسين ،
فتتلقانى أخت سبقتنى للرحيل ،
ويأخذ كلهم بيدى إلى مقرى الجديد .

وعلى الرغم مما أصاب هذه السطور من المحو وعدم الظهور ، وعلى الرغم من ركاكتها وضعف لغتها ، فقد أشرق وجه بث بالراحة والهدوء ، فقد كانت تظن آسفة ، أنها لم تفعل شيئاً فى حياتها ، ولكن هذه السطور أكدت لها أن حياتها لم تنقض هباء ، وأن موتها لن يجلب اليأس الذى كانت تخشاه .

وبينما هى جالسة والورقة مطوية فى يدها ، سقطت قطعة خشب من نيران المدفأة ، فاستيقظت چو من غفوتها ، وقامت تغذى النيران ثم زحفت إلى جانب فراش أختها وهى ترجو أن تجدها نائمة ، ولكن بث قالت فى حماسة وتواضع حزين :

— لست نائمة ، ولكنى سعيدة جداً يا چو . انظرى ! لقد وجدت هذه الورقة فقرأتها ، ولا أظنك ترين بأساً فى ذلك . . هل حقاً تحبيننى كل هذا الحب يا چو ؟

قالت چو ، وهى تضع رأسها على الوسادة بجانب أختها :

— أواه يا بث ! بل أحبك أكثر من هذا . . أكثر كثيراً !

قالت :

— إذاً فلم تذهب حياتى هباء ، لست طيبة بقدر ما تصفين ، ولكنى بذلت جهدى لأفعل الصواب دائماً ، والآن ، وقد فات الأوان لعمل أفضل ، يسعدنى غاية السعادة أن أجد من يحبنى إلى هذا الحد ، ويعتقد أننى فعلت شيئاً يستحق الذكر .

قالت چو :

— لقد أحببتك أكثر من أى إنسان آخر فى هذه الدنيا يا بث ، وكنت أظن أننى لن أستطيع فراقك أبداً ، ولكنى أعرف الآن أن الموت لن يفرق بيننا وستكونين لى على الدوام أكثر مما كنت .

قالت بث :

— إنى أعرف أنه لن يفرق بيننا ، ولذلك لم أعد أخشاه ، وسأظل دائماً حبيبتك بث التى تحبك وتساعدك إلى الأبد . يجب أن تأخذى مكانى يا چو ، فتملئى حياة أبى وأمى عند ما أرحل ، سيلجآن إليك بطبيعة الحال فلا تخيبى رجاءهما ، وكونى لهما صدراً حنوناً ؛ وإن شق عليك

أن تقوى بهذه المهمة اذكرى أنى معك ، وتأكدى أن سعادة هذه الذكرى تفوق متعة التأليف والأسفار ، فالحب هو كل ما نستطيع أن نحمله معنا حين نرحل ، وهو وحده الذى يسهل النهاية ، ويجعل وقعها مقبولا على النفس .

فقالت چو :

ــ سأحاول يا بث !

وهكذا تخلت چو عن مطامحها القديمة ، وآثرت أن تحيا حياة جديدة أفضل ، معترفة بتفاهة الشهوات الدنيوية ، شاعرة بما فى الإيمان بخلود الحب من أقدس عزاء على الألم .

وجاءت أيام الربيع وتوالت ، وصفت السماء واخضرت الأرض ، وأينعت الأزهار مبكرة ، وعادت الطيور فى موعدها ، كأنما تودع بث التى تعلقت كالطفل المتعب المستسلم بالأيدى التى تعهدتها طوال حياتها ، أيدى أبيها وأمها اللذين قاداها فى رقة وحنان خلال وادى الظلال ، ليتركاها وديعة عند الله .

ويندر ، اللهم إلا فى القصص ، أن يقول الذى يموت كلمات تذكر له بعد موته ، أو أن يرى حلماً ، أو يفارق الحياة بوجه صبيح . ويعرف الذين ودعوا كثيراً من أعزائهم ، أن النهاية تكون فى أغلب الأحيان طبيعية سهلة ، كالنوم سواء بسواء . ولقد حقق الله أمانى بث ، فانحسر الجزر فى بساطة ويسر ، وفى الساعة الحالكة التى تسبق الفجر ، لفظت

الفتاة أنفاسها الأخيرة هادئة ، وهى تستند على الصدر الذى تنسمت فوقه أول أنفاسها . لم تنبس بكلمة وداع ، وكل ما فعلته ، أن نظرت إليهم بعينين يفيضان حبًّا ، ثم شهقت شهقة صغيرة ، وصعدت بعدها روحها إلى باريها .

وبين الدموع والصلوات والأيدى الرحيمة ، أعدت الأم والأخوات

بث لاستقبال الرقدة الأخيرة الطويلة المريحة ، وقد حمدن الله حين رأين السكينة الوادعة تكسو وجه بث ، وتحل محل الصبر الحزين الذى كانت تتقطع له نياط قلوبهن . وأثلج صدورهن أن عزيزتهن الغالية تلقت الموت لا كشبح مخيف بغيض ، بل كملاك للرحمة عزيز .

وحين أقبل الصباح ، خبت نيران المدفأة فى الغرفة لأول مرة منذ بضعة شهور ، وخلا المكان من چو ، وبدت الغرفة ساكنة واجمة ؛ ولكن طائراً حط على غصن تفتحت أزهاره بجوار النافذة ، وبدد السكون بتغريده الشجى ، ثم تدفقت شمس الربيع فى الغرفة ، كأنها فيض من البركات يهبط على الوجه المسجى فوق الوسادة . هذا الوجه الذى فاض بالسلام الوديع ، سلام بعث بين دموع المحزونين بسمة ، وجعلهم يحمدون الله أن أنقذ بث من آلامها المريرة .

الفصل الحادى والأربعون

دروس فى النسيان

أفاد لورى كثيراً من الدرس الذى ألقته آمى عليه ، ولكنه لم يحتفظ به طويلا ؛ شأن الرجال إذا نصحتهم امرأة . فأصحاب الشخصية من هذا الجنس القوى ، لا يعملون بمشورة نسوية قبل أن يقنعوا أنفسهم بأنها تعبير عما كانوا يعتزمونه ؛ وعندئذ فقط يتبعونها ، فإذا نجحت اعترفوا للمرأة بنصف الفضل ، أما إذا فشلوا فيحملونها الوزر كله فى سخاء .

ولقد عاد لورى إلى جده ، وكرس نفسه لخدمته أسابيع عدة ؛ حتى

صرح السيد العجوز بأن چو مدينة نيس أفاده بشكل عجيب ، فمن الخير أن يعود إليها مرة أخرى . وكانت هذه النصيحة فى الواقع أقصى أمنية للفتى ؛ ولكن قطيعاً من الأفيال ما كان يستطيع أن يحمله على العودة إلى المدينة التى تلقى فيها ذلك التعنيف . وكان حين يشتد به الشوق إلى متع نيس ومباهجها ، يستعين على شعوره بترديد ما آذاه من قول آمى : « إنى أحتقرك . . اذهب وافعل شيئاً مجيداً يجعلها تحبك » !

وراح يقلب الأمر فى فكره مرة بعد مرة ، حتى اضطر أن يعترف لنفسه بأنه كان بالفعل أنانياً وكسولا ، ولكنه كان يعتذر عن ذلك بالحزن الذى يغرى بالنزوات طلباً للسلوان . وأحس أن عواطفه الثائرة هدأت عن ذى قبل ، فلا معنى لإعلان أحزانه على الناس رغم وجيعته على حبه الضائع . وما دامت السبل قد تقطعت به إلى قلب چو ، فالأمثل له أن يقوم بعمل مجيد يحملها على احترامه ، ويثبت لها أن فتاة مثلها لا تستطيع تحطيم حياته بكلمة « لا » . وإرضاء لكبريائه راح يقنع نفسه بأن نصيحة آمى لم تكن لها ضرورة ، لأنه كان يعتزم دائماً أن يقوم بعمل كبير مشرف ، وما أخره عن تحقيق هذا المجد إلا جراح قلبه ، التى أراد أن يمنحها فسحة من الوقت لتندمل . أما الآن فقد تم له الشفاء وخفت وطأة الحب ، فأصبح لزاماً عليه أن يسعى إلى العمل الجد المفيد .

ومثلما كان « جوته » يصوغ همومه وأفراحه فى قصائد من الشعر ، فقد استقر رأى لورى على أن يغرق آلامه فى الموسيقى ، ويؤلف منها

مقطوعات رائعة تتفتح لها نفس چو . وتطرب بها قلوب من يسمعها . وبناء على ذلك ، حين نصحه جده بالسفر ، بعد أن رآه قلق المزاج حزيناً ، شد رحاله إلى فينا ، حيث يقيم بعض أصدقائه من الموسيقيين ، وهناك عكف على الدراسة بعزيمة صادقة طلباً للشهرة والمجد . وسواء أكان حزنه أكبر من أن تطويه الموسيقى ، أم كانت الموسيقى أضعف من أن تحمل هموم القلب البشرى ، فقد اكتشف لورى صعوبة شديدة فى وضع اللحن الذى يريده . ولم تكن آراؤه قد استقامت بعد ، ولا تبلورت أفكاره بشكل نهائى ، فكان ذهنه يشرد أثناء محاولته التأليف ، حتى ليجد نفسه يترنم بلحن راقص يذكره بحفلة عيد الميلاد فى نيس ومن حضروها ، خصوصاً الرجل الفرنسى السمين . وفى ظل هذه الظروف اضطر إلى التوقف مؤقتا عن التلحين والتأليف .

وحاول بعد ذلك أن يؤلف أوبرا موسيقية ، وهانت عليه المهمة فى بداية الأمر ، ولكن سرعان ما انهالت صعوبات لا يتوقعها : فقد كان يريد أن يجعل من چو بطلة الأوبرا المنشودة ، وراح يشحذ ذاكرته بذكرياته العاطفية وصورهما الخيالية الرائعة ، فإذا بذاكرته تخونه ، كأنما ركبها عناد چو ، فلم تطالعه إلا بصور مشاكساتها وأخطائها وشذوذها . لم يذكر لچو موقفاً عاطفيا يليق بخيال الموسيقى ، إنما تذكر كيف كانت تصب على عواطفه الملتهبة ماءً بارداً حين تحتمى منه على الأريكة بوسادتها الخشنة القاسية . وتوالت عليه مثل هذه الصور الفكهة ، فلم يستطع أن يكتم

ضحكة أفسدت الخيال الذى كان يريد أن يصنع منه أجواء أوبراه ، وعندئذ أدرك أن جو لا يمكن بحال من الأحوال أن تلعب دوراً فى هذه الأوبرا . قال لنفسه وقد عدل نهائياً عن تنفيذ فكرته : « لله كم عذبتنى هذا الفتاة ! »، وأمسك بشعر رأسه يشده فى عنف حتى اختلط وتشعث فأصبح شكله يشبه الفنانين الحائرين .

وعاد يبحث من جديد عن بطلة أخرى لأوبراه ، ويفتش فيمن يعرفهن عن فتاة تصلح لأن يخلدها بألحانه ، فهدته ذاكرته إلى واحدة تملك المؤهلات اللازمة لهذا الدور ؛ ولكنه لا يستطيع تحديدها بدقة ، لأن صورتها تراءت مع نساء أخريات ؛ كانت تتميز عليهن دائماً بشعرها الذهبى ، وغلالتها الشفافة التى تسبح فى الهواء ، وسط خليط مشتت من الورود والطواويس والأمهار البيض والأشرطة الزرقاء . ولم يحاول لورى أن يطلق على هذا الطيف اسماً ما ، ولكنه اتخذ منه بطلة الأوبرا ، وأسرف فى التعلق بهذه البطلة ، حتى خلع عليها مواهب الدنيا ومحاسنها ، وذهب فى الترفق بها إلى حد يخنق أنفاس أى امرأة ، إذا تحقق فى واقع الحياة .

وحمله الخيال على أجنحته السحرية ، وحلق به رويداً رويداً ، حتى فقد الرغبة فى العمل والتأليف ، وقنع بلذة الأحلام التى كانت تستولى عليه وهو يجلس إلى القلم والورق ، أو يجوب المدينة المرحة ترويحاً عن ذهنه المكدود ، الذى بلغ فى هذا الشتاء أقصى حدود القلق والركود . ولم يكن

إرهاقه الذهنى نتيجة للإسراف فى العمل ، فهو لم يفعل شيئاً يذكر ، ولكنه كان يفكر كثيراً جداً ، ويشعر بأن تغيراً ما سيقع فى حياته بالرغم منه فيقول : « إذا كانت هذه تفاعلات العبقرية ، فلأدعها تأخذ مجراها الطبيعى » . ولكنه كان يحس فى قرارة نفسه أن هذه التغيرات مسائل عادية جداً ، لا تمت إلى العبقرية بصلة . ومهما تكن هذه المسائل ، فقد كانت مراجلها تغلى فى صدره إيذاناً بتحقيق هدف معين ، فازداد مع الوقت سخطاً على حياته المفككة ، وبدأ يحن إلى أداء عمل ملموس ، يستغرق فيه جسداً وروحاً . وخرج من ثورته الفكرية إلى حقيقة حكيمة تقول : ليس كل من يعشق الموسيقى فناناً أو مؤلفاً للأنغام .

وذات ليلة ، عاد من الأوبرا الملكية ، بعد أن استمع إلى إحدى أوبرات موزار العظيمة ، وكانت الفرقة قد أحسنت عزفها ، فأوحى إليه ذلك بإعادة النظر فى أوبراه التى ألفها ، وتقدير أحسن مقطوعاتها دون تحيز أو مجاملة ، وانكب عليها يدرسها قطعة قطعة ، فلما انتهى ، راح يحملق فيما حوله من التماثيل النصفية لعباقرة الموسيقى ، أمثال مندلسون وبيتهوفن وباخ ، ويتأمل ما أنتجوا من روائع الفن ، ثم أمسك فجأة بالأوراق التى سجل عليها أنغامه ، وجعل يمزقها بحزم وهدوء ، حتى أتى عليها كلها . ثم قال لنفسه فى رزانة :

— كانت على حق حين قالت إن الموهبة ليست عبقرية ، والعبقرية لا يخلقها الإنسان . لقد شفتنى الموسيقى من غرورى ، كما شفتها روما من

غرورها ! إنى لا أريد أن أكون مشعوذاً ، فماذا أفعل الآن ؟

وبدا السؤال عسيراً أمام رغبته الملحة فى اكتساب رزقه بعرق جبينه ، وتذكر قوله عن نفسه ذات مرة : « فلأذهب إلى الشيطان ! » ، ورأى أن فرصته لتحقيق ذلك أصبحت الآن أوسع منها فى أى وقت مضى بفضل المال والدعة ، فمن دأب الشيطان أن يستغل الأيدى المنعمة العاطلة . كانت المغريات الآثمة القوية تطوقه ، ولكنه صمد لها ، فقد كان بالرغم من تقديسه للحرية ، يقدر الإيمان والاستقامة والثقة بالنفس . وصانته هذه الصفات من الفساد والانزلاق فى الرذيلة ، وشجعه على التمسك بأهداب الخير ، وعدٌ قطعه لجده ، ورغبة خالصة فى أن يكون صالحاً أميناً عندما يقول لأولئك الفتيات اللواتى أحببنه من صميم قلوبهن : « كل شىء على ما يرام » .

وقد تقول ثرثارة كمسز جراندى : « لا أصدق أن الأمور حقيقة على ما يرام ، فالفتيان لايستغنون عن الملذات ، ومن الحمق أن نطالبهم بإتيان المعجزات » . ولمثل هذه السيدة نقول : قد لا تصدقين يا مسز جراندى أن الأمور على ما يرام ، ولكنها الحقيقة ، ومن النساء من تصنع المعجزات ، وفى مقدور المرأة الصالحة أن ترفع الرجولة إلى مستواها الحق ، إذا كفت عن مثل ما تقولين . دعى الصغار يتصرفوا كالصغار ، وكلما طال أمد ذلك كان خيراً وأبقى . اتركى الشبان يأخذوا حظهم من الدنيا إن أرادوا ، فى إمكان الأمهات والأخوات والصديقات أن يساعدنهم على الخروج

من فترة الطيش فى أقصر وقت ، ما دمن يثقن بهم ، ويعرفنهم أن أحب فضائل الرجل إلى النساء ، الاستقامة والإيمان . وإذا قلت يامسز جراندى إن كلامنا هذا من أوهام النساء ، فدعينا نستمتع بوهمنا ما شئنا ، فبدونه تفقد الحياة نصف جمالها وخيالها وبهجتها ؛ ولولا هذا الوهم لحطمت المرارة آمالنا فى الفتيان الشجعان الصالحين ، الذين ما زالوا يحبون أمهاتهم أكثر من أنفسهم ، ويقولون ذلك فى صراحة تامة .

كان لورى يعتقد أن نسيان حبه لحو سينهك قواه سنين وسنين ، وكم كانت دهشته عظيمة حين اكتشف أن النسيان يأتيه مع الأيام سهلا ميسوراً . ورفض فى بادئ الأمر أن يقبل هذا التحول أو يصدقه ، بل ثار غضباً يتهم نفسه بالغدر ، ويتساءل عن سره ، إذ كان يجهل أن القلوب تأتى بالمتناقضات ، ومن طبع الزمن أن يؤثر فيها رغم أنوفنا .

أحس لورى بأن جرح قلبه قد اندمل بسرعة ، ووجد نفسه يحاول أن يتذكر حو بعد أن كان يبذل الجهد فى نسيانها ، ولم يكن الفتى مستعداً لمثل هذا التغير ، فغلى قلبه بالغضب على نفسه ، وغلبه شعور تمتزج فيه الراحة بخيبة الأمل ، فجعل يحرك جذوة حبه الخابية ، عساها تتقد ، ولكنها أبت إلا أن تتحول إلى وهج خفيف يشيع الدفء فى جوانحه ، دون أن يعرضه للحمى . واضطر أخيراً إلى الاعتراف بأن ثورة هواه الصبيانى قد هدأت بالتدريج ، حتى أصبحت عاطفة مستقرة لطيفة يغشاها الحزن أحياناً ، ولكنه حزن قصير الأجل لن يلبث أن يفسح الطريق

لحب أخوى يدوم إلى الأبد . وحين جال الحب الأخوى بفكره ، نظر باسماً إلى صورة موزار المعلقة أمامه ثم قال لنفسه : « الحق أنه كان رجلاً عظيماً ، فحين أعياه الفوز بإحدى الأختين اتجه إلى الأخرى ، وعاش معها هانئاً سعيداً » . ولم ينطق لورى بهذه الكلمات ، ولكنها جالت بخاطره فانحنى على الخاتم القديم الصغير يقبله ، وقال لنفسه مستدركاً : — لا . . لن أفعل ذلك ! لم أنس ولن أنسى . سأحاول مرة ثانية ، فإذا فشلت ، فعندئذ . . .

ولم يكمل لورى كلامه ، بل أسرع إلى القلم والورق يكتب إلى چو ليخبرها بأنه لا يستطيع الاستقرار على أمر ، ما دام هناك أمل فى أن تغير رأيها ، ثم يسألها ملهوفاً إذا كان فى مقدورها أن ترجع عن رفضها ، فيعود إلى الوطن ويسعد بالحياة معها ؟

وبقى ينتظر حائراً قلقاً ، وأخيراً أتاه ردها قاطعاً ، فحسم الموقف نهائياً إذ أرسلت تقول بإصرار وصراحة إنها لم تغير رأيها ولن تغيره ، وإنها مشغولة ببث ، ولا تريد أن تسمع كلمة الحب مرة ثانية ، فرجاؤها إليه أن يبحث عن السعادة مع غيرها ؛ على أن يحتفظ بركن صغير فى قلبه لأخته چو . وكتبت على هامش الخطاب تطلب منه أن يخفى عن أمى سوء حالة بث ، وما دامت تنوى العودة فى الربيع القادم ، فلا داعى لتعكير صفو ما تبقى لها من أيام فى الخارج ، ثم توجهت إلى الله بالدعاء أن يمنح بث فسحة من الوقت حتى ترى أختها . وطلبت من لورى أن

يواظب على الكتابة إلى آمى ، ولا يتركها فريسة للوحدة والقلق والحنين إلى الوطن .

وقال لورى يحدث نفسه ، وهو يفتح مكتبه استعداداً لتحرير رسالة لآمى ، وكأنما وجد فى الكتابة لها النهاية الطبيعية للجملة التى لم يتمها منذ أسابيع .

— سأفعل ذلك فوراً ! ويا للفتاة المسكينة ! أخشى أن تكون عودتها إلى البيت مؤلمة محزنة !

ولكنه لم يكتب الرسالة فى ذلك اليوم ، فبينما كان يقلب فى أوراقه بحثاً عن شىء تاه منه وسط قوائم الحساب وجوازات السفر ووثائق الأعمال ، عثر فى أحد أدراجه على رسائل كثيرة من چو ، وثلاث رسائل من آمى ، ربطت بشريط أزرق أنيق ، وفاحت منها رائحة الزهور المجففة بداخلها . وجمع لورى خطابات چو ، وقد كسا وجهه تعبير من العجب والألم ، ثم رتبها ونفض عنها الغبار وطواها ، وأودعها درجاً صغيراً من أدراج مكتبه . وتوقف لحظة يفكر ، وهو يدير الخاتم الصغير فى إصبعه ، ثم أخذ يخلعه فى بطء ، ووضعه مع الخطابات ، وأغلق الدرج . وأحس كأنما هو عائد من مأتم ، فخرج إلى كنيسة القديس ستيفان ليستمع إلى عظة راعيها ، وعلى الرغم من أنه لم يكن يحس بألم طاغ ، فقد بدا له أن هذا التصرف أليق به من الجلوس لكتابة رسائل إلى فتيات جميلات

وأرسل الخطاب سريعاً ، وأجابت آمى دون تأخير ، إذ كانت تشعر ببالغ الحنين إلى الوطن ، ولم تجد غضاضة فى ان تعترف بذلك فى

كتابها وازدهرت المراسلة بينهما ، وانتظمت الخطابات جيئة وذهاباً طيلة بواكير الربيع . وباع لورى ذخيرته من تماثيل الموسيقيين ، كذلك أحرق أوراقه وكراساته التى سجل فيها ألحان أوبراه ، ثم عاد إلى باريس راجياً أن تصل إليها إحداهن قبل مضى وقت طويل . وكان يتحرق شوقاً إلى مدينة نيس ، ولكنه ابتعد عنها من تلقاء نفسه ، ولم تشأ آمى من جانبها أن تدعوه لأنها كانت تمر بتجربة جديدة ، لاتحب أن يعرف بها الفتى الذكى .

كان فريد فوهن قد عاد من سفره ، وسألها ذلك السؤال الذى كان فى نيتها أن تجيب عليه قائلة : « نعم » وأشكرك ، ولكنها اختارت الآن أن تقول له بصراحة وأدب : « لا ، أشكرك » . . والحق أن شجاعتها خانتها فى اللحظة الحرجة ، بعد ماتبين لها كم غيرت التجارب أهدافها ، فأصبحت ترمى فى حياتها إلى ما هو أسمى من المال والجاه ؛ ورنت فى أذنها كلمات لورى حين قال : « فريد شاب لطيف المعشر ، ولكنى لا أعتقد أنه الرجل الذى تتشوقين إليه » . ولم تستطع إبعاد كلمات لورى عن ذهنها ، لا ، ولم تستطع أيضاً أن تنسى قولها له : « سأتزوج من أجل المال » ، وآلمها ذكرى هذا الرأى المخجل الذى يتنافى مع دواعى الأنوثة . فتمنت أن لو كان فى مستطاعها أن تسحبه ، حتى لا يظن لورى أنها امرأة مادية لا قلب لها ولا إحساس ، لأنها لم تكن تبتغى فى الواقع سيادة المجتمعات ، قدر ما تبتغى أن تكون محبة محبوبة . ومن حسن حظها أن لورى لم يكرهها من أجل هذه الكلمات المريعة ، إنما تغاضى عنها وبدا أشد عطفاً عليها

من ذى قبل . وكانت خطاباته الأخيرة تأتيها بفيض من السرور يعوض عليها معانى الأسى المكبوت التى كانت تلمسها فى رسائل أهلها المتباعدة، فانتظمت فى الرد عليها بلذة مضاعفة . كانت تشعر بأنه واجب يتحتم عليها أن تؤديه نحو الفتى المسكين الوحيد ، الذى عاندته چو فى موقفها منه ، ولم يرق قلبها القاسى لتوسلاته . وعجبت آمى كيف لم تبذل چو جهداً فى حبه ، مع أنه أمر ليس بالعسير ، وكثيرات غيرها يتمنين نظرة منه . ولكن چو تختلف عن الفتيات الأخريات ، ولذلك استعصى عليها أن تكون له أكثر من صديقة ، فآثرت آمى أن تظل له أختاً شقيقة عزيزة .

ولو أن كل أخ لقى من المعاملة مثلما لقى لورى أثناء هذه الفترة ، لأصبح الإخوة أسعد أهل الدنيا قاطبة : امتنعت عن مضايقته بالمحاضرات والعظات ، وراحت تسأله الرأى فى كل أمر تقدم عليه ، وكانت تبدى منتهى الاهتمام بأحواله ، وتبعث إليه بهدايا صغيرة جميلة ، وتكتب له كل أسبوع خطابين تزينهما بأجمل الرسوم ، وتملؤهما بأرق عبارات الثقة والإخلاص .

وبعض الأخوات يسعدهن أن يحملن فى جيوبهن رسائل إخوتهن ، ليعدن قراءتها مرة بعد مرة ، فى إعزاز بالغ وشوق عظيم : يبكين إذا كانت قصيرة ، ويضحكن إذا كانت طويلة ويحرصن فى المحافظة عليها كأنها كنز ثمين .. ولكن آمى لم تفعل ذلك على وجه التحقيق ، إنما شغلها التفكير حتى ذبل وجهها ، وفقدت اهتمامها بالمجتمعات ، فأعرضت عن الحفلات

والتفتت إلى الرسم تسلى به نفسها . ولم تكن ترسم صوراً جديرة بأن تحملها معها إلى أسرتها ، ولكنها كانت تقضى جل وقتها فى دراسة الطبيعة وتجلس الساعات الطوال مكتوفة اليدين فى شرفة قصر « فالروزا » ، تسرح الطرف حولها ساهمة ، أو تخطط صوراً لما يجول بخاطرها المشغول . فمرة ترسم تمثال فارس مفتول العضل منحوت على قبر ، ومرة ترسم شاباً يستلقى على الحشائش وقبعته تغطى عينيه . . أو فتاة ذات شعر متموج تخطر أنيقة فى حلقة الرقص ، وهى تستند إلى ذراع سيد فارع الطول ، وكانت الوجوه فى تلك الرسوم غير واضحة المعالم ، تمشياً مع التقاليد الفنية فى ذلك العهد .

وظنت عمتها بأنها نادمة على رفضها الزواج من فريد ، ولكن آمى نفت ذلك مراراً وتكراراً ، حتى إذا أعيتها الحيلة إلى إقناع عمتها بخطئها ، تركتها لشأنها تظن ما يحلو لها ، مكتفية بأن تطمئن لورى إلى أن فريد سافر إلى مصر . ونزل الخبر عليه برداً وسلاماً ، فهدأت هواجسه ، وقال فى نفسه :

— كنت واثقاً من أنها ستغير رأيها . يا للفتى المسكين ! إنى أقدر شعوره ، وأرثى لحاله ، فقد مررت بتجربة مماثلة .

وشعر بارتياح كمن أزيح عن عاتقه عبء ثقيل ، ثم أسند قدمه إلى الأريكة ، وعاد إلى خطاب آمى يقرؤه بلذة ، كأنه قام نحو الماضى بالواجب كاملا .

كانت هذه الأمور تجرى فى الخارج ، والأحزان تبلغ أقصاها فى

بيت آل مارش ، ولكن آمى لم تتسلم الرسالة التى تنبئ بضيعة الأمل فى حياة بث ، وحين أتتها الرسالة التالية فى مدينة فيفاى ، كانت الحشائش قد اخضرت على قبر أختها الراحلة .

كانت حرارة الجو فى شهر مايو قد أغرت آمى وصحبها بالرحيل عن نيس إلى سويسرا عبر جنوة والبحيرات الإيطالية ، وهناك جاءها الخبر المحزن فاحتملته ، ولكنها لم تقطع رحلتها عملا بمشورة أهلها ، الذين رأوا أن تطلب السلوى فى السفر ، بعد أن فاتتها رؤية أختها قبل موتها . ومضت بها الأيام مثقلة القلب بالهموم ، وغلبتها أحزانها فآثرت أن تقضى وقتها أمام البحيرة ، ترنو إلى الأفق ، راجية أن يعود لورى ، ليسرى عنها ويعزيها . ولم تكذبها آمالها ، فعند ما تلقى الفتى النبأ الحزين متأخراً ، بسبب سفره إلى ألمانيا ، حزم أمتعته ، وودع أصدقاءه ، ثم رحل إليها فوراً ، وقلبه ملىء بالحزن والسرور ، والقلق والأمل .

وكان لورى يعرف مدينة فيفاى جيداً ، فما إن مست سفينته رصيف الميناء ، حتى قفز إلى البر وهو يحث الخطى نحو مبنى « لافور » حيث يقيم آل كارول . وقابله الخادم بدهشة ، وأخبره بانصراف جميع أفراد الأسرة إلى النزهة فى البحيرة إلا المدموازيل الشقراء ، فقد تكون فى الحديقة ، ثم رجا السيد أن يتفضل بالجلوس لحظة حتى يخطرها بحضوره . ولكن السيد لم ينتظر ولا نصف لحظة ، بل غادر المكان مسرعاً ، ليبحث بنفسه عن المدموازيل !

وعلى شاطئ البحيرة الجميلة ، كانت الحديقة مثل جنة رائعة ، تظللها أشجار الكستناء الفارعة وتزينها شجيرات اللبلاب المتسلقة ، ومن بين الأغصان تنعكس صورة البرج الأسود على صفحة المياه الساطعة . وكانت آمى فى ركن منها تجلس على مقعد اعتادت أن تخلو إلى نفسها فيه لتقرأ أو ترسم أو تمتع نفسها بما حولها من الجمال الطبيعى . وكانت ، حين أقبل لورى ، تعتمد رأسها بيديها ، وقد فاض قلبها بالحنين للوطن ، ودمعت عيناها حزناً على بث ، فلم تنتبه إلى وقع أقدامه وهو يعبر الفناء ، لا ، ولم تره وهو يقف فى الطريق الموصل إلى الحديقة المزينة بالأقواس . ولزم الفتى مكانه لحظة يتأملها بعين جديدة ، فيرى فيها العاطفية الرقيقة ، ذلك الجانب من شخصيتها الذى لم يره من قبل . كان كل ما حولها يوحى فى صمت بالحب والأسى ؛ من الخطابات التى محت سطورها الدموع إلى الشريط الأزرق الذى ربطت به شعرها ، إلى الألم والصبر اللذين تجليا على وجهها ، وحتى الصليب الأبنوسى الأسود الذى كانت تزين به جيدها ، أثار فى نفسه شئوناً وشجوناً ، إذ كان قد أهداها إياه فى إحدى المناسبات ، فاختارت اليوم أن يكون حليتها الوحيدة . وإذا كان لورى فى شك من وقع زيارته عليها ، فقد تبخر شكه فى اللحظة التى وقع فيها نظرها عليه . والحق أنها أخذت بمجيئه ، فأسقطت ما فى يدها وحجرها وهرعت إليه تصيح فى لهجة تفيض بالحب والشوق :

— أواه يا لورى ! كنت واثقة من حضورك !

وجاءت لحظات الصمت التالية أبلغ من الكلام ؛ وقفا جنباً إلى جنب خاشعين ، رأسه الأسود ينحنى عطوفاً على رأسها الذهبى ، كأنما يريد أن يحميها من أحداث الزمن . وأحست آمى أن أحداً غير لورى لا يستطيع أن يعيد السكينة إلى نفسها ، وشعر لورى أنه ما من امرأة فى العالم غير آمى تستطيع أن تملأ مكانة چو فى قلبه . ولم يفصح الفتى عن شعوره ، ولم تتضايق آمى لذلك ، فقد أدرك الاثنان الحقيقة بمنتهى الرضا ، وتركا للصمت البليغ تتمة ما بدأته العيون .

وبعد قليل عادت آمى إلى مقعدها وهى تجفف دموعها ، فتشاغل عنها لورى بجمع الأوراق المتناثرة على الأرض ، متفائلا بما فيها من صور وأضواء تبشر بمستقبل سعيد . وحين جلس إلى جانبها احمر وجهها خجلا على ما بدر منها عند لقائهما منذ لحظة ، وقالت وهى تحاول عبثا أن تستعيد هدوءها :

— لم تكن لى حيلة فى أمر نفسى ، فاعذرنى ! كنت وحيدة حزينة ، فجاءت رؤيتك مفاجأة سارة ، بعد ما كدت أفقد الأمل فى حضورك .

قال :

— ما إن بلغنى الخبر حتى أسرعت إليك . ليتنى أعرف كيف أعزيك عن فقد الصغيرة العزيزة بث . ولكنى فقط أحس . . .

وتولاه هو الآخر خجل مفاجئ ، فتلعثم عاجزاً عن الكلام . كان بوده أن تسند رأسها إلى كتفه ، وتبكى أحزانها وآلامها ، ولكنه لم يجرؤ

على التقدم بهذا الاقتراح ، فاكتفى بأن أخذ يدها بين يديه وضغط عليها فى عطف أبلغ من الكلام . قالت أمى فى رفق :

— لا داعى للكلام ، فنى إحساسك أجمل العزاء . إن بث الآن أسعد حالا ، وما من أحد يتمنى لها العودة إلى عذاب المرض ، ولكنى أتهيب الرجوع إلى أهلى رغم شوق البالغ إليهم . . دعنا من هذا الحديث فإنه يثير أشجانى ، وأنا أريد أن أسعد بوجودك معى ، فهل تبقى معنا أياماً ، أم تراك مضطرًّا إلى العودة سريعاً .

قال :

— لن أعود إذا كنت تريدينى معك .

قالت :

— بل أريدك أن تبقى ، فأنا شديدة الحاجة إليك ، لست أنكر حنان عمتى وفلو ، ولكنى أعتبرك واحداً من أهل بيتى ، وصحبتك تعالج أحزانى وتسرى عنى .

وبان الحنين إلى الوطن فى لهجتها ، فكانت وهى تتكلم مثل طفل طالت غيبته ، فاستبد به الشوق إلى بيته . وإزاء ذلك تخلى لورى عن خجله ، وراح يسبغ عليها ما وسعه من التدليل ، فيقول لها بعطف امتزج فيه الرجاء بالأمر :

— يا للصغيرة المسكينة ! ! يبدو أن الحزن أورثك السقم والمرض ، فعلىّ أن أعنى بك وأرفه عنك . كفاك بكاء ياعزيزتى ، وهيا بنا نتمشى

قليلا ، فجلوسنا فى مثل هذا الجو البارد غير مستحب .

وتأبط ذراعها ، وسارا يذرعان الممر المشمس جيئة وذهاباً تحت أغصان الكستناء الخضراء الجديدة . وانتعش لورى بالسير على قدميه ، واغتبطت آمى إذ وجدت إلى جانبها ذراعاً قوية تعتمد عليها ، ووجهاً مألوفاً يبتسم لها ، وصوتاً حنوناً يتحدث إليها فى غبطة وسرور .

كانت الحديقة القديمة قد سبق أن أظلت كثيراً من المحبين ، ولكنها بدت فى ذلك اليوم كما لو كانت أنشئت لهما وحدهما ، فالشمس تغمرهما فى عزلتهما ، والبرج الأثرى يطل عليهما دون غيرهما ، والبحيرة لا تردد إلا صدى صوتيهما . ومضت ساعة وهما يسيران ويتحدثان ، أو يستريحان على السور المنخفض فى نشوة بسحر اللقاء والمكان . ثم قطع حبل الخيال صوت ناقوس الغداء ذو الرنين الخالى من الجمال ، منذراً إياهما بالافتراق ، فسارت آمى إلى البيت وهى تشعر كأنما انزاح عن صدرها كابوس الوحدة والحزن ، وكأنما تركت أشجانها جميعاً وراءها فى تلك الحديقة .

وما إن وقع نظر مسز كارول على وجه آمى ، ورأت ما حدث فيه من تغير ملحوظ ، حتى برقت فى ذهنها فكرة جديدة ، فقالت تحدث نفسها بدهشة : الآن عرفت كل شىء ، فقد كانت الفتاة تحن طول الوقت إلى رؤية لورنس ، فليرحمنى الله ! ! لم يدر ذلك فى خلدى قط !!

وكتمت السيدة الطيبة خبر مارأت ، ولم تحدث أحداً به أو تفضح سرورها ، واكتفت بملاطفة الفتى ، راجية إلى آمى أن تستمتع بصحبته

بعد ما أمعنت فى الوحدة والانزواء . وأثبتت آمى أنها مثل يحتذى فى طاعة العمة ، فانصرفت إلى تحية صديقها والترحيب به فى منتهى الحماسة والتوفيق ، وساعدها على ذلك تشاغل العمة عنها بأمور ابنتها فلو .

وتغيرت حال لورى فى فيفاى عنها فى نيس تغيراً أثار إعجاب آمى وسرورها . فبعد أن كان خمولا كسولا ، أصبح متحمساً نشيطاً ، لا يرى إلا وهو يمشى أو يركب ، أو يجدف فى قاربه بشدة ، أو يدرس فى همة واجتهاد ، وكان يعزو تغيره إلى جو فيفاى المنعش فتؤمن آمى على قوله ، لتفسر هى الأخرى تحسن صحتها باعتدال روحها المعنوية .

وكان للجو المنعش فعله الطيب فيهما ، كما أفادتهما الرياضة جسداً وعقلا ، وترتب على ذلك أن تكشفت لهما الأمور على حقائقها ، ووضحت معالم الحياة وحدود الواجبات فى ربوع تلك البقعة الجبلية ، وبددت الرياح المنعشة سحب الشكوك وضباب الأحزان ، وأيقظت شمس الربيع الدافئة ألواناً حلوة من الأفكار والآمال والأحلام ، وغسلت مياه البحيرة الرقراقة متاعب الماضى القاسية ، وأطلت عليهما الجبال الشاهقة تهمس فى أسماعهما حانية مترفقة : « أيها الطفلان الصغيران ، دعا الحب ينم فى قلبيكما . »

ومضى الوقت بهما سعيداً ، رغم مصابهما فى بث ، وكانت السعادة دافقة بحيث لم يجرؤ لورى أن يعكر صفوها بكلمة أو إشارة . ولقد أدهشت الفتى تلك السرعة التى شفى بها من حبه الأول ، فخلا إلى نفسه يجمع شتات أفكاره ؛ كان يعتقد أن حبه لچو هو حبه الأول والأخير ، فراح يعزى

نفسه على عدم ولائه لها بأن آمى أخت چو ، فكأنها چو نفسها ، ولولم تكن كذلك ما انشغل قلبه بها .

لقد كان حبه الأول عاصفاً ، وكان ينظر إليه كحلقة طويلة من الأحداث التى تبعث فى النفس خليطاً من العاطفة والندم ، دون أن يكون فيها ما يدعو إلى الخجل ، وقد نجح ، بعد طول تفكير ، فى تنحية هذا الحب جانباً كتجربة حلوة مرة ، ومن حسن الحظ أن مرت بآلامها وأشجانها .

أما حبه الجديد ، فقد قرر أن يجعله هادئاً ما استطاع : فآمى تعرف مايكنه لها ، وليس هناك ما يدعو إلى تعقيد الأمور بموقف يبثها فيه غرامه ، والواقع أنها أدركت الحقيقة من البداية ، ورضيت بالوضع مطمئنة ، وتم الأمر فى أسلوب طبيعى هادئ سوف يسر له الجميع حتى چو نفسها ، ولكن صدمته فى غرامه الأول جعلته أكثر حذراً فى تصرفاته وأشد تمهلا فى شق طريقه إلى تجربته الجديدة ، ولذلك ترك الأيام تمر ، وراح يستمتع بكل لحظة منها ، تاركاً للظروف خلق الفرصة التى يبوح فيها بغرامه.

وكان الخيال يرسم له ختام هذه القصة الغرامية فى موقف جميل بالحديقة الرائعة تحت ضوء القمر الساحر ، وفى أسلوب جذاب رشيق ، يتفق وجمال القصة والمكان ، ولكن الحوادث هدمت تخيلاته كلها ، إذ جاء الختام على مياه البحيرة فى وقت الظهر ، وبكلمات قليلة بسيطة : كانا يتنزهان معاً فى القارب منذ الصباح ، يتنقلان من سان جينجولف

الرزينة إلى مونترو المرحة ، تحف بهما جبال الألب من ناحية ، وقمة جبل سان برنارد من الناحية الأخرى ، وأمامهما تظهر فيفاى وسط الوادى وبجوارها لوزان فوق التلال ، ومن فوقهما سماء صحو زرقاء ، ومن تحتهما مياه البحيرة التى انتشرت القوارب الجميلة على صفحاتها اللازوردية ، كأنها نوارس بيضاء ، تضرب الماء بجناحيها .

كانا يتحدثان عن بونيفارد وهما ينزلقان بالقارب أمام شيلون ، ثم ذكرا روسو وهما يمران بكلارنس . . المدينة التى كتب فيها قصته « هلواز ». ولم يكن أحدهما قد قرأ تلك القصة ولكنهما كانا يعرفان أنها قصة غرام ، ويتساءلان : هل كانت كحبهما قصة ممتعة ؟ . . وران عليهما الصمت لحظة كانت آمى خلالها تتأمل يدها المغموسة فى ماء البحيرة ، وحين رفعت رأسها رأت لورى يميل بجسده على المجاديف ، وفى عينيه تعبير جعلها تقول فى عجلة :

— إنك متعب ولا شك ، فاسترح قليلاً ودعنى آخذ المجذافين منك ، فانا لم أجذف منذ جئنا إلى هذا المكان ، وحياتى كلها تنقضى فى خمول وكسل .

قال ، وكأنما الفكرة التى يعرضها ترضيه .

— لست متعباً ، ولكن لا مانع من أن تمسكى بأحد المجذافين ، والمكان يتسع لكلينا ، وإن يكن من الضرورى أن أجلس فى وسط المقعد حتى لا يدور بنا القارب .

ولم تجد آمى فى هذا الاقتراح حلا للموقف ، ولكنها قبلت ثلث المكان الذى قدمه لها ، ورفعت شعرها المتهدل على وجهها ، وأمسكت بالمجذاف وأخذت تحركه فى مهارة ، شأنها فى كل عمل تقوم به . وعلى الرغم من أنها كانت تستعمل كلتا يديها ولورى يستعمل يداً واحدة ، فقد تناسقت قوى المجذافين ، وسار القارب يشق الماء فى هدوء .

وقالت آمى تقطع حبل الصمت :

— ما أحسن تعاوننا على تسيير القارب !

قال :

— تعاون بديع . . بودى لو يدوم ، فهل توافقين يا آمى على أن نرتبط بمصير واحد ؟

همست قائلة :

— نعم . . . يا لورى !

ودون أن يشعرا بما يفعلان ، توقفا عن التجذيف ليضيفا منظراً جديداً جميلا إلى لوحة الحب البشرى السعيد ، التى تنعكس صورها على صفحة البحيرة . .

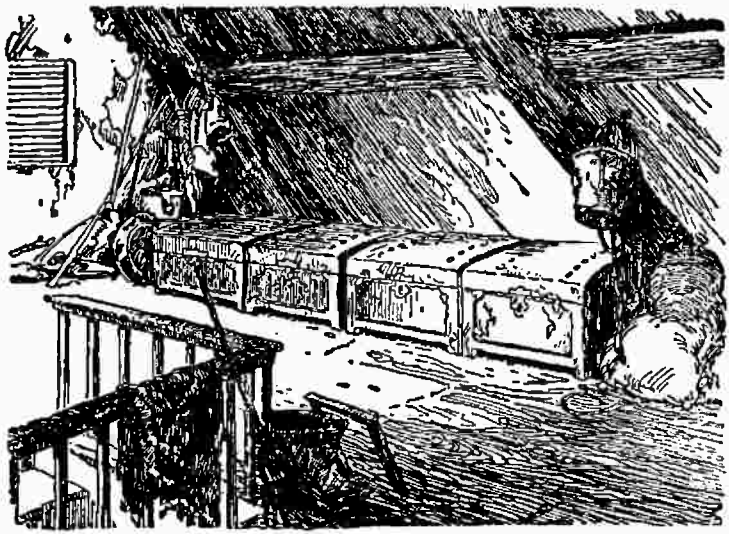

الفصل الثانى والأربعون

بين زوايا الوحدة

يسهل على المرء أن يقطع على نفسه وعوداً بالتضحية وإنكار الذات ، إذا اندمجت نفسه وتلاشت فى شخص آخر حبيب إليه ، يراه دائماً أمامه كمثل يحتذيه فى صفاء الروح ونقاوة المثل العليا . ولكن يشق على المرء أن يفى بوعوده هذه إذا غاب صوت الوحى عنه إلى الأبد ، وذهب المثل الأعلى إلى غير رجعة ، واحتجب الحبيب عن العيون فى ثنايا الأبدية ، تاركاً وراءه أحزاناً لا نهاية لها . . . فى مثل هذا الوضع وجدت چو نفسها بعد

رحيل بث ، ورأت صعوبة الوفاء بعهودها على التضحية وإنكار الذات . فكيف تستطيع أن تبعث السكينة والهدوء فى قلبى أمها وأبيها وهى لا تقوى على تهدئة سعير قلبها الذى يحترق بنيران الشوق إلى أختها الراحلة ؟ وكيف يمكنها أن تشيع البهجة فى البيت بعد أن هجره النور والدفء والجمال حين غادرته بث إلى مرقدها الأخير ؟ وأين تجد فى العالم كله عملا نافعاً تسعد به وتُشغل ، بعد أن انقضى عهد الخدمات العزيزة التى كانت تؤديها لأختها الراحلة ، فتلقى من تقديرها أجمل العزاء والسلوى ؟ لقد حاولت بكل جهدها أن تؤدى واجبها مغمضة العينين بلا أمل ؛ ولكن ثورة مكبوتة تملكت قلبها ، فقد بدا لها ظلماً أن تساب منها مسراتها القليلة المحدودة ، فى الوقت الذى يثقل فيه حمل أعبائها ، وأن تشتد عليها الحياة حين يتضاعف نصيبها من العمل والكفاح . ليس من العدل فى شىء أن يجد بعض الناس الحياة أمامهم كلها نضرة ونعيم وإشراق ، ولا يجد بعضهم الآخر إلا ظلالا باردة موحشة . لقد جاهدت كى تصير فتاة طيبة صالحة أضعاف ما فعلت آمى ولكنها لم تنل حقها من جزاء ، ولم تفز إلا بالشقاء والنصب وخيبة الأمل .

يا لحو المسكينة ! لقد مرت بها فى تلك الفترة أيام حالكة ، كان اليأس يستبد بها فيها حين تفكر فى أنها ستقضى بقية عمرها فى هذا البيت الهادئ ، لاتجد من المسرات إلا قليلا ، ولا من الأعمال إلا مُملّها ، ولا من الواجبات إلا أثقلها !

وعندما فشلت جهودها فى قهر أحزانها ، وغلبتها التعاسة التى تولد

عندما تخضع الإرادة القوية لواقع الأمر مضطرة ، قالت لنفسها : إنى لا أستطيع القيام بمهمتى ، لأنى لم أخلق لحياة كهذه ، وإذا لم يبادر أحد بمعونتى ، فلا بد أن تثور نفسى ، فأرتكب عملاً طائشاً .

ولم يخب رجاء چو ، فقد جاءها المعين دون أن تدرك ، وقيض الله لنجدتها ملكاً بشرياً ، وجهه مألوف لها ، وعباراته محببة إلى نفسها . . كانت چو ، منذ رحيل بث ، تتخيل وسط الليل أن أختها تناديها ، فتقوم من نومها ملبية النداء مذعورة ، وما إن تنظر إلى الفراش الصغير الخالى من صاحبته ، حتى تبكى بكاء حاراً ، يكشف عن حزن عميق ، لم تستطع الأيام أن تتغلب عليه . ووسط هذه الدموع المنهمرة تصيح من أعماق قلبها : « بث ! أواه يا ربى ! عودى إلىّ ! . . عودى إلىّ ! » ، ثم تمد ذراعيها فى ضراعة ، فلا تمتد عبثاً ، إذ سرعان ما تسمع الأم صوت نحيبها فتُهرَع إليها كما كانت تفعل مع بث حين تسمع أناتها المتوجعة المكبوتة ، فتهرع إليها لتخفف عنها باللفظ الحلو والحنان البالغ ، فتمسح آلامها بلمسة خفيفة تنم عن حزن أعمق من حزن چو ، أو بهمسة متقطعة أبلغ فى أثرها من الدعوات . ولا غرابة فقد كان تسليمها بقضاء الله لا يقل عن أملها فى رحمته . وفى هذه اللحظات المقدسة ، التى يتحدث القلب فيها إلى القلب فى سكون الليل ، فتتحول الشدائد نعماً بما تغرسه من حب وما تزيحه من حزن . . والتى يتدفق فيها الحب الأموى ، فيخفف عن النفس همومها ، استطاعت چو أن تحمل العبء بسهولة ، وأن تقبل على

أداء واجبها راضية النفس ، وبين ذراعى أمها الحنون أصبحت الحياة محتملة مقبولة .

وحين سكنت آلام القلب قليلا ، واسترد العقل المتعب بعض هدوئه ، دخلت چو ذات يوم إلى غرفة المكتب ، وانحنت على رأس أبيها الأشيب الطيب ، فرفع بصره إليها يحييها ببسمة هادئة . قالت فى تواضع :

— هلا حدثتنى يا أبى كما كنت تحدث بث ؟ ! إنى أحتاج إلى حديثك أكثر مما كانت هى تحتاج إليه ، لأنى غارقة فى الخطأ إلى قمة رأسى !

قال فى صوت خفيض متقطع ، وهو يحتويها بين ذراعيه كما لو كان هو الآخر فى حاجة إلى معونتها ولا يخجله أن يطلبها منها :

— ليس أبعث إلى راحة نفسى من ذلك !

وجلست چو بجواره على مقعد بث الصغير ، وراحت تقص عليه أحزانها الثائرة لفقد أختها ، ثم فشل جهودها فى التغلب على تلك الأحزان حتى تزعزع إيمانها ، وأصبحت حياتها مظلمة موحشة . . . منحته ثقتها كاملة ، فأعطاها العون الذى تنشده ، ووجد كلاهما العزاء كل العزاء فى هذه الجلسة التى مكنتهما من أن يتحدثا معاً ، لا كأب وابنته ، بل كرجل وامرأة يسرهما أن يتبادلا المعونة عن حب وعطف .

وفى هذا المكتب القديم ، الذى كانت چو تسميه « كنيسة الفرد الواحد » ، قضت الفتاة الحزينة وقتاً عامراً بالتفكير والسعادة ، وخرجت

منه وقد جددت شجاعتها ، واستعادت بشرها ، وسيطرت على روحها ، وصفت نفسها . وهكذا تكاتف الوالدان ، اللذان استطاعا أن يعدا طفلتهما لاستقبال الموت راضية شجاعة ، على أن يعدا طفلتهما الأخرى لاستقبال الحياة فى ثقة تعلمها كيف تنتهز الفرص الجميلة ، وتستمتع بها قوية راضية شاكرة .

وتوالت المعونات على چو ، فاستطاعت أن تدرك أن فى أداء الواجبات المتواضعة مسرات صغيرة تخفف عن نفسها ، فتضاءلت كراهيتها للمكانس والمناشف التى كانت من اختصاص بث فيما مضى ، وراحت طبيعتها المحبة لبث تدفعها إلى استعمال مكنسة بث وفوطتها ، اللتين لم يلق بهما فى سلة المهملات أبداً . واعتادت على حملهما بالتدريج ، ثم وجدت نفسها تترنم بالأغانى التى اعتادت بث أن تترنم بها وهى تشتغل ، كما سلكت فى تنظيم البيت سلوكها أيضاً ، فتضفى لمسة هنا ولمسة هناك لتعيد إلى الغرف رونقها السابق . هكذا بدأت چو طريقها إلى إعادة السعادة المنزلية دون أن تشعر ، ولم تدرك كم بذلت فى هذا الطريق من خير ، حتى قالت لها حنة ذات يوم ، وهى تضغط على يدها تقديراً وإعزازاً :

— يا لك من مخلوقة ذكية ، يبدو أنك قد قررت ألاّ تدعينا نفتقد جهود راحلتنا العزيزة ، فقمت عنها بكل ما كانت تفعله . . إننا نرى ولا نتكلم ، فبارك الله فيك من أجل معونتك لنا !

وذات يوم جلست چو وميج تطرزان معاً ، وطال الحديث بينهما ،

فأدركت چو مدى التقدم الذى أحرزته أختها فى إدارة بيتها ورعاية شئون أسرتها ، وارتاحت نفسها لما سمعتها تتكلم عن أطيب دوافع النساء وأرق مشاعرهن ، وتصف بحماسة كيف أصبحت سعيدة بزوجها وأطفالها ، وإلى أى مدى تتبادل وچون المعونة فى سبيل تحقيق الهناء المنزلى . قالت ، وهى تصنع طائرة لابن أختها ديمى فى حجرة الأطفال ، التى انقلبت رأساً على عقب :

— الزواج حياة جميلة على كل حال ، ولكنى أتساءل هل يكون فى استطاعتى إذا ما تزوجت أن أحرز نصف ما بلغته من سعادة ؟

فقالت ميج :

— إنه الأمر الوحيد الذى يكشف عن الجانب الرقيق من طبيعتك النسوية ، أنت كثمرة الكستناء يا چو ، خشنة الملمس فى ظاهرها ، ناعمة كالحرير فى داخلها ، حلوة المذاق إذا استطاع إنسان أن يصل إلى غورها . سيكشف الحب يوماً عن دخيلة قلبك ، وعندئذ تسقط عنك هذه القشرة الخشنة ويظهر لبك الجميل .

قالت چو وهى تعالج طائرة ديمى ، وقد تعلقت بها ديزى كحمل ثقيل يمنعها من الطيران :

— لا أود ياسيدتى أن أكون كالكستناء ، فإن الصقيع يشقق قشورها الخشنة ، ولا بد من هزة عنيفة لإسقاطها من أشجارها ، ثم إن الصغار لا يسكتون عن محاولة جنيها ، ولست أحب أن أوضع فى الحقائب التى يجمعونها فيها .

وضحكت ميج وقد سرها أن ترى وميضاً من روح چو القديمة ، وأحست فى ذات الوقت بواجبها فى إقناع أختها برأيها ، فراحت فى حديثها تقدم الدليل بعد الآخر ، وتوضح ما كان منه متصلا بالأطفال الذين تحبهم چو . ولم يذهب حديثها سدى ، فالحزن عند بعض الناس خير مفتاح للقلوب المغلقة ، خصوصاً أن چو كانت كالثمرة التى شارفت على النضج ، ولم يعد ينقصها سوى مزيد من أشعة الشمس لتبلغ كمالها . . لم يكن يصلح لقطافها هزة صبى صغير ضيق الصدر ، إنما كانت فى حاجة إلى يد رجل قوى ، يخرجها برفق من بين الأشواك المحيطة بها ، ليستمتع بها سليمة كاملة . ولو أن مثل هذا الخاطر جال بفكر چو ، ما ترددت عن إبراز أشواكها فى صمت وعنف ، ولكنها لم تكن عندئذ تفكر فى نفسها من حسن الحظ ، فلما حان الوقت سقطت ثمرتها الناضجة ، من غير أن تدرك أو تحس .

والعادة فى بطلات القصص الأخلاقية ، أن يظهرن فى صورة القديسات ، ويفقن أهل العالم فى عمل الخير ، ويملأن جيوبهن بالكتب الدينية . ولكن چو لم تكن بطلة بحال من الأحوال ، وإنما كانت امرأة تجاهد فى الحياة وتكافح ، شأنها شأن مئات من مثيلاتها . ولقد تصرفت بما توحيه عليها طبيعتها المتقلبة بين الحزن والغضب ، وبين الشرود والنشاط .

وجميل أن يقول المرء : سأكون طيباً ، ولكنه لن يستطيع أن يكون كذلك فوراً ، فالأمر يحتاج منه إلى مجهود طويل شاق ، وتعاون بالغ مع

الناس ، حتى تتضح له طريق الخير ، فيستطيع أن يسير فيها . ولقد وضعت جو قدمها فى أول الطريق ، بعد أن تعلمت كيف تؤدى واجبها ، ثم قطعت فيها خطوة أخرى حين روضت نفسها على الرضا بأداء هذا الواجب . كانت أمنيتها دائماً أن تقوم بعمل مجيد ، وأن تبلغ به غاية الكمال مهما اعترضها من صعاب ، فكان من حسن حظها أن تحققت أمنيتها بأنبل عمل تستطيع أن تقوم به فى حياتها ، ألاوهو خدمة والديها ، وإسعادهما فى شيخوختهما ، مثلما أسعداها فى طفولتها . وإذا كانت الصعاب والشدائد ضرورية لتتمة الجهاد ، فليس أشق على فتاة طموح من أن تنزل عن آمالها وأمانيها مختارة ، لتحيا وتفنى فى خدمة الآخرين راضية !

لقد أخذتها المقادير عند كلمتها ، فأبرزت لها هدفاً جديداً يختلف تمام الاختلاف عن أهدافها الأولى ، ولكنه يفوقها جمالا لما حواه من النفع الشخصى ، فهل تنجح فى بلوغه ؟ كان فى نيتها أن تحاول ، وقد شاءت الظروف أن تنجح فى محاولتها بفضل معونة والديها ، ثم عرضت لها معونة أخرى قبلتها شاكرة ، لا كجزاء تستحقه ، بل وسيلة إلى الترفيه عن النفس ، فقد قالت لها أمها ذات يوم ، بعد أن انقشعت عن نفسها موجة القنوط :

— لم لا تكتبين ، وقد كانت الكتابة تسعدك دائماً ؟

قالت :

— قلبى لا يطاوعنى على الكتابة ، وحتى إذا استطعت أن أتغلب عليه فلن يهتم أحد بما أكتب .

قالت الأم :

— إننا معنيون جميعاً بما تكتبين . فاكتبي انا ولا تهتمي ببقية العالم . حاولي يا عزيزتي ، فلا شك أن الكتابة تفيدك مثلما تسعدنا .

قالت چو :

— لا أستطيع ذلك على ما أعتقد .

ولكنها رغم ذلك ، أخرجت محتويات مكتبها ، وبدأت تنظم مخطوطاتها التي لم تتم .

وبعد ساعة من هذا الحديث ، استرقت أمها نظرة من ثقب الباب ، فوجدتها غارقة في الكتابة وقد لبست ميدعتها السوداء ، وبدا عليها منتهى الاهتمام والاستغراق ، فانسحبت مسز مارش بهدوء وعلى شفتيها ابتسامة الرضا بنجاح فكرتها .

ولم تدر چو كيف تسربت روحها إلى القصة فسمت بها حتى جعلتها تصل إلى صميم قلب من يقرؤها . وعلى غير إرادة منها أرسل أبوها القصة إلى إحدى المجلات المعروفة ، فتلقتها الجريدة لا بالإعجاب فقط بل بدفع أجر عنها ، وطلب المزيد من أمثالها . وعندما نشرت القصة توالت على چو خطابات التقريظ التي بعث بها إليها أناس يعتبر مديحهم شرفاً عظيماً ، وتناقلت الصحف اليومية القصة ، وأعجب بها الأغراب والأصدقاء على السواء . ولقيت القصة ، على قصرها ، نجاحاً كبيراً أدهش چو أكثر مما أدهشها مديح الناس وذمهم لقصتها الطويلة السابقة .. قالت وقد عقدت الحيرة لسانها :

— لست أفهم شيئاً ! ماذا وجد الناس فى القصة ليغدقوا عليها هذا الثناء كله ؟

فقال أبوها :

— وجدوا فيها الصدق يا بنيتى ، فالقصة واقعية ، وهذا سر نجاحها . لقد أضفى عليها اجتماع الحزن والمرح حيوية بالغة ، وسما فيها الأسلوب وبلغ منتهى الكمال ، لأنك كنت تكتبين بوحى من ذاتك ، لا من أجل الشهرة أو المال . كتبتها بقلبك فأخلصت وأبدعت . لقد ذقت المرّ يا عزيزتى ، وها أنت تتمتعين بالحلو أخيراً ! ابذلى جهدك يا چو واسعدى بنجاحك مثلما نحن سعداء .

قالت وقد غلبها التأثر لكلمات أبيها :

— إذا كان فى القصة شئ صادق أو جميل فهو ليس من صنعى ، والفضل لك ولأمى ولبث .

وهكذا تعلمت چو من الحزن والسرور أموراً كثيرة سطرتها فى قصصها فكسبت لنفسها ولقصصها من بين القراء أصدقاء يعتد بهم . ولقد وجدت أيضاً أن العالم بار بهذه الشوارد الذهنية المتواضعة يتقبلها فى رفق ، ليعيدها إليها فى صورة تقدير جميل .

وحين كتبت آمى ولورى ينبئان الأسرة بخطبتهما ، خشيت مسز مارش أن يشق الأمر على نفس چو ، فلا تستقبل الخبر بما يستحقه من غبطة وسرور ، ولكن سرعان ما تبددت مخاوفها ، فبالرغم من أن چو دهشت

للنبأ فى بداية الأمر ، غير أنها لم تلبث أن استردت هدوءها ، وراحت تسلى نفسها بإعداد مشروعات عظيمة للخطيبين الصغيرين . وكان الخطاب فى الحقيقة أشبه بمبارزة غرامية ، تسابق فيها كل من المحبين إلى الإشادة بصاحبه فى أسلوب جميل ينطق بالإعزاز ، فجاء الخطاب مبهجاً لمن يقرؤه ، مرضياً لمن يفكر فيه ، وليس لأحد اعتراض عليه .

قالت چو لأمها ، بعد أن وضعت الخطاب الضخم جانباً :

— أيسرك هذا الأمر يا أماه ؟

قالت :

— نعم ، وكنت دائماً أتمنى ذلك . لقد أدركت يوم أنبأتنا آمى برفضها خطبة فريد فوهن ، أن شيئاً أغلى مما أسميته « الروح التجارية » قد غلب على نفسها . وأحسست من بعض الإشارات والكلمات التى وردت فى رسائلها أن الحب ولورى سيكسبان المعركة .

قالت چو :

— ما أقوى ملاحظتك يا أماه ، وما أشد صمتك ! كنت تتوقعين الأمر ، ولكنك لم تشيرى إليه بكلمة واحدة .

قالت :

— على الأمهات إذا أردن تسوية أمور بناتهن أن يلاحظن فى صمت ، وكنت أخشى ، إلى حد ما ، أن أصارحك بما يجول فى ذهنى ، فتسرعى بتهنئتهما قبل الأوان

قالت چو :

ـ لم أعد طائشة الذهن يا أماه ، أنا الآن عاقلة رزينة ، ولى من الحكمة ما يجعلنى أحرص على ثقة الناس ، وأصون أسرارهم .

قالت الأم :

ـ نعم أنت حريصة وكتوم يا بنيّتى ، وكان بودى أن أستودعك سرى . ولكنى خشيت أن تتألمى إذا عرفت أن عزيزك « تيدى » قد أحب فتاة غيرك .

قالت :

ـ لا يا أماه . لست غبية أو أنانية لأتألم بعد أن رفضت حبه حين عرضه فى أبهى صورة .

قالت الأم :

ـ لست أشك فى أنك كنت مخلصة حين رفضت حبه يا چو ، ولكن لا أخفى عليك أن نفسى كانت تحدثنى أخيراً أنه إذا عاد وطلب يدك مرة أخرى ، فقد تقولين له قولا آخر . سامحينى يا صغيرتى ، فلم يكن يسيراً علىّ أن ألمس عذابك فى وحدتك ، وأرى فى عينيك أحياناً نظرة جائعة تقطع نياط القلوب . ظننت الفتى قد يملأ فراغ نفسك إذا عاد إلى طلب يدك من جديد .

قالت چو :

ـ لا يا أماه ! الخير فيما اختاره الله ، وأنا سعيدة أن أحبته أمى .

ولكنك محقة فى أننى أشعر بالوحدة والوحشة ، وربما قلت نعم للورى إذا حاول مرة ثانية ، لا لأنى ازددت حبًّا له ، بل لأنى أصبحت أهتم بأن أكون محبوبة أكثر من ذى قبل .

قالت أمها :

— ما أعظم سرورى بهذا القول يا چو! فهو يدل على أنك تتقدمين فى معنوياتك . هناك كثير يحبونك ، فحاولى أن تقنعى بمحبة أبيك وأمك وأخواتك والطفلين والأصدقاء ، حتى يخرج من بينهم خير المحبين ، فتنالى بذلك أحسن الجزاء .

قالت چو :

— إن الأمهات خير المحبين فى الدنيا ، ولكن لا يخجلنى أن أهمس فى أذنك يا أماه بأنى أريد تجربة كل أنواع الحب . وهذا شعور عجيب. فكلما حاولت إرضاء نفسى بأنواع الحب الطبيعى ازددت شوقاً إلى المزيد . ولم أكن أعتقد أن القلوب يمكن أن تتسع لكل هذا ، وقلبى فى غاية المرونة وأخشى أنه لم ينل غايته بعد . لقد اعتدت أن أقنع بمحبة أسرتى ، ولست أفهم سر هذا التحول الذى انتابنى .

وانحنت چو على خطاب أمى تعيد قراءة ما كتبته أختها عن لورى ، فقالت مسز مارش وهى تبتسم برزانة :

— ولكنى أفهمه !

وقرأت چو ما كتبته أمى :

« إنه لشعور جميل أن يكون الإنسان محبوباً بالقدر الذى يحب لورى به . إنه لا يتكلم عن الحب إلا قليلا ، ولكنى أشعر بعواطفه فى حركاته وسكناته وفى كل ما يقول وما يفعل . وهذا الشعور يجعلنى سعيدة جداً وضئيلة جداً أمام هذا الحب العظيم . الحقيقة أنى تغيرت ولم أعد الفتاة التى كنتها من قبل . وماعرفت طيبة لورى وكرمه ورقته كما عرفتها الآن ، فهو يسمح لى أن أستشف ما انطوى عليه قلبه من دوافع نبيلة وآمال واسعة أفخر بها . لأنى أعلم أنها كلها لى . إنى أحب لورى من صميم قلبى وروحى ، وبكل ما فى من قوة وعزم ، ولن أتخلى عنه ما أمد الله من عمرنا معا ، أواه يا أماه ! لم أكن أدرى أن الحب المتبادل يحول هذه الأرض إلى جنة سماوية ! ! » .

وطوت جو صحائف الخطاب معاً بعناية ، كما تطوى صحائف قصة جميلة تستهوى القارئ وتستأثر بمشاعره حتى يتمها ، فإذا أتمها وتلفت حوله وجد نفسه وحيداً وسط مشاغل الحياة اليومية .

قالت لأمها :

ــ أهذه أختنا آمى العاقلة المتحفظة الهادئة ؟ حقاً إن الحب يصنع المعجزات ! ما أعظم سعادتهما ! لا بد أنهما غارقان فى بحور الهناء .

وبعد قليل أخذت جو تطوف أنحاء البيت وهى فى طريقها إلى الطابق العلوى ، فقد كان الجو مطيراً لا يسمح بالمشى ، وتملكتها روح القلق ، وطغى عليها ذلك الشعور الذى كاد يجرفها بتياره أول الأمر ، ولكنه لم يكن

قاسياً فى هذه المرة ، بل كان مجرد أصداء حزينة لأسئلة تتردد فى نفسها قائلة : لماذا تنال أخت كل ما تطلب وتحرم أخت من كل شىء ؟ . . وكانت چو أعلم بما فى ذلك الخاطر من سوء ، فحاولت إبعاده من رأسها ، ولكن رغبتها فى أن تكون محبوبة كانت قوية متمكنة ، فأيقظت سعادة آمى تعطش نفسها إلى أن يكون لها من يحبها قلباً وروحاً ، ويتمسك بها ما أمد الله فى عمرهما معاً . وظلت چو تطوف بالبيت على غير هدى ، حتى ساقتها قدماها إلى غرفة السطح ، حيث وجدت أربعة صناديق مصفوفة ، يحمل كل منها اسم صاحبته . وكانت الصناديق مليئة بمخلفات الطفولة التى انقضت من حياتهن جميعاً ، فألقت چو على الصناديق نظرة فاحصة ثم استقرت عيناها على صندوقها ، وأسندت ذقنها على حافته ، وراحت تحملق مشدوهة فى محتوياته المشوشة ، حتى رأت حزمة من الكراسات القديمة . فأخرجتها ، وأخذت تقلب صفحاتها وتستعيد ذكريات أيام الشتاء الحلوة ، التى عاشتها مع مسز كيرك العطوف . وابتسمت فى أول الأمر ، ثم استسلمت لموجة من التفكير انتهت بها إلى الحزن ، وحين عثرت على رسالة صغيرة مكتوبة بخط الأستاذ ، بدأت شفتاها ترتجفان ، وسقطت الكتب من حجرها ، وجلست تنظر إلى الكلمات العزيزة ، كأنما تقرأ فيها معانى جديدة تمس شغاف قلبها ، كانت الكلمات تقول :

« انتظرينى يا صديقتى . . قد أتأخر قليلا ، ولكنى سأحضر حتماً ! »

قالت لنفسها : أواه ! ليته يأتى حقاً ! إنه طيب حنون صبور ، ذلك

العزيز فريتز ! لم أكن أقدره حق قدره حين كان معى ، أما الآن ، فبودى أن أراه ، بعد أن تخلى الناس عنى ، وتركونى وحيدة حزينة .

وضمت الورقة الصغيرة إلى صدرها بقوة ، كأنما هى وعد ما زال قائماً ، ثم أسندت رأسها إلى حقيبة مريحة ، وأخذت تبكى بدموع لا تقل غزارة عن الأمطار المنهمرة فوق السطح .

أكان البكاء رثاء لنفسها وما صارت إليه ؛ أم كان للوحدة ، أم لانهيار روحها المعنوية ؟ أم تراها بكت ليقظة عاطفة جديدة ظلت حبيسة فى صدرها ، تنتظر الفرصة التى حان وقتها ؟ ترى ، من يعرف الحقيقة ؟ ؟

الفصل الثالث والأربعون

مفاجآت

رقدت چو على الأريكة القديمة وحيدة ، تقضى ساعة الغسق على طريقتها الخاصة ، دون أن يعكر صفوها أحد ، وقد استغرقت فى التفكير وسرحت ببصرها إلى النار . كانت قد اعتادت أن تستند إلى وسادة بث الحمراء وهى تصوغ أفكارها فى قصص ممتعة ، أو تفكر حزينة فى أختها الراحلة . وكانت فى ذلك اليوم بادية الحزن والتعب والإرهاق ، فقد كان عيد ميلادها الخامس والعشرون فى اليوم التالى ، فراحت تفكر كيف

تعاقبت السنوات بهذه السرعة ، وكيف تقدم العمر بها هكذا ولم تحقق إلا قليلا من آمالها . كانت تعتقد لأول وهلة أنها لم تأت عملا قيماً ، فلما استوضحت أحوالها ، وجدت أنها فعلت كثيراً فى الواقع . قالت وهى تتنهد :

— ترى ما المصير ؟ ! لقد تقدم العمر بى ، ولست أكثر من عانس أديبة ، زوجها القلم ، وقصصها أسرتها وأطفالها ! وقد يمضى عشرون عاماً حتى أنال بعض الشهرة ، ولكن ما الفائدة ؟ سأكون عجوزاً فلا أتمتع بها ، وحيدة لاأجد من يقاسمنى إياها ، قانعة فلا أحتاج إليها ! على أى حال ، لا داعى لأن أصبح لاذعة اللسان أنانية ، فبعض العوانس يعشن حياتهن فى راحة ، بعد أن يعتدن عليها ، ولكن . . .

وتنهدت چو . فقد كانت الصورة التى تتخيلها قاتمة مؤسفة ، لاترضى فتاة فى الخامسة والعشرين من عمرها ، كانت تعتقد أن سن الثلاثين التى تقترب ، هى نهاية كل شىء فى الحياة ، والحقيقة غير ذلك ، فباستطاعة الفتاة أن تعيش إلى تلك السن سعيدة إذا كان فى ماضيها ما يعمر حاضرها بالذكريات الحلوة . والفتاة فى الخامسة والعشرين تتكلم عن نفسها كأنها عانس ، مع أنها لا تنوى أن تكون عانساً بأى حال من الأحوال . فإذا بلغت الثلاثين ، لا تذكر كلمة عانس مطلقاً ، ولكنها تقبل الواقع صامتة ، وإذ كانت فتاة عاقلة ، تعزت بأن أمامها عشرين عاماً أخرى من الحياة النافعة ، التى تتعلم خلالها كيف تصير عجوزاً طيبة . . .

لا تضحكن من العوانس يا فتياتى ، فكثيراً ما كانت ملابسهن القاتمة تخفى تحتها مآسى عاطفية صنعتها التضحيات البالغة بالشباب والآمال والصحة ، بل بالحب أيضاً .. وهذه التضحيات الكريمة تكسب الوجوه الذابلة أمام الله جمالاما بعده جمال . يجب أن ترفق بأخواتنا العانسات ، حتى الحزينات منهن أوسليطات اللسان ، فقد فاتهن التمتع بأحلى وقت فى حياتهن . . انظرن إليهن نظرة رحيمة لا ازدراء فيها ، وعلى كل فتاة فى زهرة العمر أن تذكر دائماً أنه قد يفوتها موسم القطاف ، وأن ورد الخدود لا يدوم ، وأن الشيب يغزو الخصلات الفاحمة فى يوم من الأيام ، وعندئذ تصبح للشفقة والاحترام حلاوة تضارع الحب والتقدير .

وأنتم أيها السادة ، أو بالأصح أيها الفتيان ، احترموا العوانس مهما كن فقيرات أو دميمات أو عجيبات ، فإن أشهم الرجال أقدرهم على احترام الشيخوخة ، وحماية الضعف وخدمة الجنس اللطيف ، بغض النظر عن المركز أو الشكل أو اللون . اذكروا العمات الطيبات ، لا لنصائحهن ومحاضراتهن ، بل لما تجشمن من عناء فى تربيتكم وتدليلكم ولم يتلقين شكراً أو تقديراً . . واذكروا الورطات التى أنقذنكم منها ، والهبات المالية التى نفحنكم بها . ، واذكروا الثقوب التى رتقنها بأصابعهن الواهنة ، والخطوات التى مشينها من أجلكم بأقدامهن الواجفة . . اذكروا كل هذه الصنائع وقدموا فروض الاحترام اعترافاً بجميل أولئك العانسات ، وأحيطوهن بمظاهر العناية التى يحبها النساء ما حيين . واعلموا أنه لو فرق

الموت بين أحدكم وأمه ، وليس غير الموت من قوة تستطيع ذلك ، فسيجد العوض فى الحالة بريسلا مثلا ، التى ما زالت تحتفظ لابن أختها المحبوب . بأدفأ ركن فى قلبها العجوز .

لا بد أن چو قد استسلمت للنعاس — كما استسلم له القارئ أثناء هذه الموعظة الصغيرة — إذ تخيلت أن لورى واقف أمامها ، ولكنها لم تلبث حتى تبينت أن الأمر حقيقة لا خيال فيها ، فقد كان الفتى يقف أمامها ، وفى عينيه تلك النظرة التى تفيض بالعاطفة المكتومة ، ولم تصدق أنه لورى بلحمه ودمه ، فظلت تحملق فيه فى صمت واجف ، حتى انحنى عليها وقبلها . وعندئذ هبت من رقدتها وهى تصيح مسرورة :

— أوه ! أنت ياتيدى ! أهذا تيدى العزيز ؟

قال :

— إذن فأنت مسرورة برؤيتى يا عزيزتى چو ؟

قالت :

— مسرورة ؟ إن الكلمات لا تستطيع ان تعبر عن مدى سرورى يا ولدى المحبوب ! أين آمى ؟

قال :

— عرجنا فى الطريق على بيت ميج ، فتركت زوجتى هناك مع أفراد الأسرة بعد أن أخفقت فى إنقاذها من قبضتهم .

صاحت چو ، وقد لمست فى صوته إعزازاً يكشف عن حقيقة شعوره :

ـ زوجتك ! ؟ ماذا تعنى ؟

قال وقد بدا عليه الحرج :

ـ يا إلهى ! لقد بحت بسرى عن غير قصد !

فأردفت چو تقول بسرعة :

ـ إذن فقد تزوجت ؟

فركع على ركبتيه وقد ضم يديه كمن يطلب المغفرة ، ثم قال وفى عينيه أجلى معانى المرح والنصر :

ـ نعم ، تزوجت ، ولن أفعلها مرة ثانية !

قالت :

ـ تزوجت فعلا ؟

قال :

ـ نعم ، تزوجت إلى أقصى حد !

فجلست چو على كرسيها وقالت وهى تتنفس الصعداء :

ـ رحمتك يا إلهى ! ترى أى عمل مخيف ترتكب بعد ذلك ؟

قال وهو يبتسم فى رضا وسرور ، وما زال راكعاً على ركبتيه أمامها :

ـ طريقتك المعهودة فى التهنئة ، وما زالت غير مشجعة !

قالت :

ـ وهل كنت تتوقع غير ذلك بعد أن تسللت إلىّ كاللصوص فأفزعتنى ؟ انهض أيها الفتى المضحك ، وحدثنى بقصتك كلها .

قال :

ـ لن أنطق بكلمة واحدة إلا بشرطين : أن تسمحى لى بالجلوس فى مكانى القديم ، وألاّ تقيمى حاجزاً بينى و بينك !

وضحكت جوكما لم تضحك منذ زمن طويل ، وربتت على الأريكة بيدها تدعوه ، ثم قالت فى صوت حنون :

ـ وضعنا الوسادة القديمة فى المخزن بعد أن زال الاحتياج إليها ، فتعال واعترف لى بما حدث ياتيدى .

قال وهو يجلس على الأريكة ، وقد تملكه شعور بالرضا :

ـ ما أحلى أن أسمعك تقولين « يا تيدى » ، فما من أحد يناديني بهذا الاسم إلا أنت .

سألته :

ـ و بماذا تدعوك أمى ؟

قال :

ـ تقول : « مولاى » !

قالت وقد امتلأت عيناها إعجاباً بفتاها الذى ازداد ظرفاً ووسامة عما كان :

ـ هذه طريقتها ! ولكنك أهل لهذا النداء .

لم تكن هناك وسادة تحجز بينهما ، ولكن كان هناك حاجز غير منظور ، أقامته الزمن والبعد وتغير القلوب ، وأحس الاثنان به ، فأمعن

كلاهما النظر فى وجه صاحبه ، كأنما هذا الحاجز قد ألقى عليهما ظلا خفيفاً لم يلبث أن انقشع . قال لورى وهو يصطنع الوقار :

ــ ألا أبدو كرجل متزوج ورب أسرة ؟

قالت :

ــ أبداً ! ولن تبدو كذلك فى يوم من الأيام . ولقد كبرت قليلا وازددت وزناً ، ولكنك ما زلت كما كنت ، ولا أمل فى إصلاحك .

قال :

ــ لا يا چو . يجب أن تعامليني الآن باحترام أكثر من ذى قبل .

قالت ، وقد أشرق وجهها بالابتسام :

ــ وكيف أحترمك ، ومجرد التفكير فى أنك تزوجت يضحكنى ويذهب بوقارى ؟

وانخرطت فى الضحك ، وسرت العدوى إلى لورى ، فراح يضحك معها ، ثم هدءا بعد لحظة وجلسا يتبادلان الحديث بطريقتهما القديمة المحبوبة ، قالت :

ــ لا فائدة من أن تخرج لإحضار آنى فى هذا الجو البارد ، وسيحضرون جميعهم فوراً .

قال :

ــ لم أستطع الصبر ، وأردت أن أكون أول من ينبئك بالمفاجأة الكبرى . تماماً كما كنت ألعق أول قطفة ، ونحن نتشاحن على القشدة !

قالت :

ـ أشهد أنك وفقت ، ولكنك بدأت القصة من نهايتها فأفسدتها . والآن ، عد إلى أولها ، وأخبرنى كيف حدث ذلك ، فأنا مشوقة لسماع أخبارك من أولها .

قال وقد التمعت عيناه :

ـ حسناً ، لقد فعلتها لأدخل السرور على آمى !

فصاحت چو :

ـ هذه أول كذبة مفضوحة ! قل إنك فعلتها لتدخل السرور على قلبك . عليك بالصدق إذا استطعت ياسيدى !

فقال لورى ، وقد سره أن يرى بريقاً من صورة طبعها القديم :

ـ الأمر سواء فى الحالتين . كنا قد قررنا العودة إلى الوطن فى صحبة آل كارول منذ شهر أو أكثر ، ولكن آل كارول قرروا ، فى آخر لحظة أن يقضوا شتاء آخر فى باريس ، ولما كان جدى يريد العودة إلى الوطن ، وهو كما تعلمين لم يسافر إلى الخارج إلا من أجلى ، فلم يكن فى الإمكان أن أبقى مع آمى ونتركه يعود وحيداً ، ولم يكن فى الإمكان كذلك أن أترك آمى وحدها وأعود مع جدى . ولما كانت مسز كارول شديدة التمسك بالتقاليد الإنجليزية المحافظة ، فقد رفضت أن تسمح لآمى بالعودة معى وحدى دون مرافقة ترعاها . وتعقدت المشكلة بهذا الشكل ، فرأيت أن نتزوج ثم نفعل ما نريد .

فقالت چو :

ــ ونفذت رأيك بالطبع ، لأنك تفعل عادة ما يعجبك !

قال :

ــ ليس دائماً ! !

وأحست چو فى نبرات صوته بما جعلها تبادر بسؤاله قائلة :

ــ وكيف أمكنك أن تقنع العمة بالموافقة ؟

قال :

ــ كانت مهمة عسيرة ، ولكننا تذرعنا بأقوى الحجج ، فهزمناها حلبة المناقشة ، وذكرناها بأن الوقت لا يتسع لاستئذانكم كتابة ، وليس من داع إلى ذلك ، ما دمتم وافقتم على الخطبة ورحبتم بها ، وهكذا وقفت الظروف إلى جانبنا ، وأصبحت المسألة لا تحتاج إلا إلى خطوة حازمة كما قالت زوجتى .

فقاطعته چو ، وقد رأت فى عينيه لهيب العاطفة ، وأسعدها أن ترى ذلك اللهيب يحتل مكان الحزن الذى غلبه حين تقابلا آخر مرة :

ــ ألا تشعر بالفخر وأنت تردد كلمة « زوجتى » ؟

قال :

ــ قليلا وأحياناً ، إنها امرأة صغيرة فاتنة لا يملك المرء إلا أن يفخر بها . وعلى كل حال ، استطعنا أن ننال موافقة العمة والعم كارول ، فتوليا الأمر كوالديها . وكان الترتيب الذى اقترحته سبباً فى تيسير الأمور كلها ، فقد

كنت وآمى غارقين فى الحب تماماً ، ولو افترقنا لصرنا عديمى القيمة ، ولذلك نفذنا الاقتراح كما ترين .

قالت چو ، وقد تملكتها حمى الفضول النسوى ، فأرادت أن تعرف كل صغيرة وكبيرة :

— ومتى كان ذلك ، وأين كان ، وكيف كان ؟

قال :

— تزوجنا منذ ستة أسابيع فى القنصلية الأمريكية بمدينة باريس ، ولم ننس فى غمرة سعادتنا عزيزتنا بث ، لذلك أقمنا شعائر الزواج بلا احتفال .

وتأثرت چو لكلامه فضغطت بيدها على يده ، وتشاغل لورى بتسوية الوسادة الحمراء الصغيرة ، التى يذكرها جيداً ولا ينساها . وخيم الصمت عليهما لحظة ، ثم عادت چو تسأله فى لهجة أشد هدوءاً :

— ولمَ لم تخبرنا بالأمر بعد ذلك ؟

قال :

— أردنا أن نفاجئكم به ، وكنا نظن أننا سنعود فوراً للوطن ، ولكن الجد العزيز أجّل السفر حين عرف بالخبر ، وسمح لنا بشهر عسل نقضيه أينما نريد . وكانت آمى قد وصفت الحياة فى فالروزا بأنها شهر عسل مستديم ، فذهبنا إليها وسعدنا كما لم يسعد أحد من قبل . . كان غراماً بين الورود !

واغتبطت چو إذ لمست فى حديثه دلائل نسيانه التام لما كان بينه وبينها ، وأكد لها أسلوبه الصريح الواضح أنه سامحها ونسى حبها . وهمت بسحب يدها من يده ، ولكنه تشبث بها ، وقد أدرك الشعور الذى أوحى إليها بهذه الحركة ، ثم قال فى رزانة لم تعرفها فيه من قبل :

— أريد أن أقول لك شيئاً واحداً يا عزيزتى چو ، ثم نترك الأمر كله جانباً إلى الأبد . . عندما ذكرت لك فى خطابى أن آمى تعطف علىّ ، أكدت إلى جانب ذلك حبى لك ، وكنت صادقاً كل الصدق ؛ ولكن حبى تغير إلى الأحسن ، بعد أن تبادلت وآمى مكانيكما فى قلبى . وكان لابد أن ينتهى الأمر إلى ذلك ، لو أننى أخذت بنصيحتك وانتظرت للتأكد من عاطفتى ، ولكنى لم أستطع على الموقف صبراً ، فأصبت بوجيعة فى قلبى . . . كنت صبيًّا عنيفاً عنيداً ، فاحتاج الأمر إلى درس قاس لأتبين خطئى . وأقسم لك أننى تحيرت فى وقت ما ، اختلطت على عواطفى نحوكما ، حتى لم أميز أيكما أحب إلىّ من الأخرى . . حاولت أن أقسم حبى بينكما مناصفة فلم أستطع ، وحين تقابلت معها فى سويسرا ، تكشفت عواطفى فوراً ، واحتلت كل منكما مكانها الصحيح فى قلبى ، وتأكد لى أن الحب القديم قد ذهب قبل أن يحل محله حب جديد ، كما أدركت أنى أستطيع أن أقسم قلبى بين أختى چو وزوجتى آمى وأحبهما معاً حبًّا خالصاً . فهل تصدقيننى الآن ، وهل تعديننى أن نعود سيرتنا الأولى ، كما كنا فى الأيام السعيدة الماضية ؟

قالت :

ـ نعم ، أصدقك من كل قلبي ، ولكن ألا ترى ياتيدى أننا لن نستطيع أن نعود صبيًّا وفتاة ، ولا يصح أن نتوقع ذلك ، بعد أن ذهبت الأيام السعيدة وانتهى أمرها ؟ إننا الآن رجل وامرأة ، علينا واجباتنا نؤديها ويجب أن نكف عن المجون ، فوقت اللهو قد انقضى . لست أشك فى أنك توافقنى على ذلك ، فإنى أراك قد تغيرت ، وأظنك ترانى قد تغيرت كذلك . . أؤكد لك أننى سأفتقد لورى الصبي ، ولكنى سأحب لورى الرجل وأحترمه من صميم قلبي ، لأنه سيحقق آمالى فيه . دعك من صداقة المزاح واللعب ، والأفضل أن نكون أخاً وأختاً يتبادلان المحبة والمعونة طيلة حياتهما . . أليس كذلك يا لورى ؟

وفى صمت تام أخذ لورى اليد التى قدمتها له ، وأسند وجهه إليها لحظة ، وهو يشعر بأن صداقة جميلة قوية تنبعث من بين أنقاض هوى الشباب الماضى . . وانشرح قلب چو ، فبادرت تقول بسرعة ، كارهة أن ينسيه الحزن جمال عودته إلى الوطن :

ـ لا أكاد أصدق أن طفلىّ قد تزوجا ، وأنهما فى طريقهما للعناية بشئون بيتهما ، فما زلت أتخيل الماضى كأنه أمس قريب ، حين كنت أثبت أزرار آمى فى مرولتها ، وأشد شعرك عندما تغيظنى ! رحمتك يا إلهى! كم يسرع الوقت فى مضيه ! ؟

قال لورى ، وهو ينظر إليها مسروراً بلهجتها الأميّة :

ـ كفى عن لهجة الجدّات هذه ، فأحد الطفلين اللذين تذكرينهما يكبرك سنًّا . إنى لأفخر أحياناً بأننى كبرت ، وأصبحت سيداً ناضجاً ، وعندما تأتى آمى سترين بعينيك كم نمت الطفلة قبل الأوان ! !

قالت چو :

ـ قد تكون أكبر منى سنًّا ، ولكنى أكبر منك حسًّا وشعوراً ياتيدى ، شأنى فى ذلك شأن النساء ، أشعر أننى بلغت الأربعين بعد ما اختبرتنى محن السنة الماضية .

قال لورى وهو يشد شعره أسفاً :

ـ مسكينة أنت يا چو ! لقد تركناك تحملين العبء وحدك ، ورحنا نجرى وراء مسراتنا . نعم ، أنت أكبر منى ، والدليل على ذلك هذه التجاعيد والخطوط . . عيناك حزينتان إلا عندما تبتسمين ، ودموعك ما زلت ألمسها على الوسادة . . لقد تحملت وحدك أعباء جسيمة ، فيالى من وحش أنانى !

وقلبت چو الوسادة التى أفشت سرها ، وقالت فى صوت حرصت أن تملأه بالبشاشة والبهجة :

ـ لا ، لم أكن وحدى ، فقد وقف أبى وأمى إلى جانبى يساعدانى ، وراح طفلا ميج يروحان عنى ويسليانى ، وكان مجرد التفكير فى سعادتك مع آمى تخفيفاً عظيماً للألم . إن الشعور بالوحدة ينتابنى أحياناً ، ولكنه شعور مفيد لى ، و . .

وقاطعها لورى وهو يضع ذراعه حولها ، كأنه يحميها من كل شر :

ــ لن تكوني وحيدة بعد الآن . أنا وآمى لا نستطيع السير بدونك ، فيجب أن تأتى إلينا ، لتعلمى طفليك كيف يدبران شئون بيتهما ، على أن نتقاسم كل شىء على عادتنا القديمة . . دعينا ندللك ونعنى بك ، فنعيش معك أسعد الناس .

قالت :

ــ إذا لم يعكر وجودى صفوكما ، فليس أحب إلىّ من صحبتكما ؛ ولقد بدأت أشعر بالشباب من جديد .

ومالت برأسها على كتفه ، كما كانت تفعل منذ سنوات ، عندما كان مرض بث يشقيها ، فيهيب بها لورى أن تعتمد عليه . ونظر لورى إليها وهو يسأل نفسه : أما زالت تذكر تلك الأوقات ؟ ولكن چو كانت تبتسم راضية ، كأنما متاعبها قد اختفت بقدومه . وضحك لورى وقال :

ــ ما زلت على عهدك يا چو ، تبكين لحظة ، ثم تضحكين بعدها ، المكر واضح فى عينيك الآن ، فما الأمر يا جدتاه ؟

قالت :

ــ إنى لأتساءل كيف تسير الأحوال بينك وبين آمى ؟

قال :

ــ كأننا ملائكة !

قالت :

ـــ البداية هكذا دائماً ، ولكن أيكما ياترى الحاكم الآمر ؟

قال :

ـ لا يضيرنى أن أعترف بأنها الحاكمة ، أو هذا على الأقل ما أشعرها به لأسعدها ، ولكن الأوضاع ستتغير بمضى الوقت ، فالزواج ـ كما يقولون ـ يقسم الحقوق ويضاعف الواجبات .

قالت :

ـ ستبقى الأوضاع على ما بدأت به ، وستحكمك آمى طول حياتك .

قال :

ـ يسرنى أن تحكمنى دون أن أشعر ، فهى قديرة على سياسة الرجال ، وبوسعها أن تلف الواحد منهم حول إصبعها كخيط من الحرير ، وتجعله يعتقد فى ذات الوقت أنها تكرمه بذلك وتبجله .

فصاحت چو وهى ترفع يديها :

ـ من كان يظن أن يطول بى العمر حتى أرى رجلا سعيداً بسيطرة زوجته عليه ؟ !

وكان منظراً ممتعاً أن فرد لورى كتفيه فى زهو وخيلاء كأنه يقول : « يا أرض ما عليك إلا أنا » !

قال :

ـ ليس أبغض إلى نفسى من الطغيان ، ولا أظن تربية آمى تسمح بذلك ، وأنا وزوجتى نتبادل الاحترام بما لايدع سبيلا إلى العراك أو الاستبداد .

وأعجبت چو بما رأت من اعتداده بنفسه ، واختلط إعجابها على الصبي الذى يتحول بسرعة إلى رجل ، قالت :

— إنى واثقة بذلك ، ويقينى أن آمى لن تتعارك معك مثلما كنا نفعل أنا وأنت ، فهى الشمس المشرقة ، وأنا الرياح العاصفة ، والقصص الخرافية تقول إن الشمس المشرقة أقدر على حكم الإنسان .

فضحك لورى وقال :

— قد تشرق الشمس ، وقد تحرق أيضاً ! أؤكد لك أن المحاضرة التى ألقتها علىّ فى مدينة نيس ، كانت أقسى من أى تعنيف سمعته منك . . إن لها قدرة عجيبة على الاستثارة ، وسأقص عليك يوماً ماقالته إذ ذاك ، ولكنها لن تكرر أقوالها مرة أخرى ، فبعد أن أعلنت احتقارها لشأنى ، عادت فأحبتنى ثم تزوجتنى .

فقالت چو :

— يا للوضاعة ! إذا أسأت إليك مرة أخرى فتعال إلىّ لأدافع عنك!

قال :

— كما لو كنت محتاجاً إلى هذا الدفاع !

وهب واقفاً ، وقد انقلب من الصرامة إلى المرح ، حين سمع صوت آمى تنادى :

— أين هى ؟ أين عزيزتى چو ؟

ودخل صفٌ « طابور » الأسرة كله ، وابتدأ العناق والتقبيل

من جديد ، وبعد عدة محاولات يائسة ، استطاع الرُّحَّل الثلاثة أن يجلسوا أمام النظرات الفاحصة : كان مستر لورنس قوياً معافى كشأنه دائماً ، وأفادته رحلته إلى الخارج كما أفادت الآخرين تماماً ، فزال عنه تصلبه ، وتهذبت طريقته القديمة فى الحفاوة والترحيب ، وازدادت لهجته رقة وحناناً . وكان جميلا أن يشرق وجه مستر لورنس كلما نظر إلى « طفليه » ، كما كان يسمى العروسين الشابين ، وكان أجمل من ذلك أن نرى آمى تأسر قلبه بحبها البنوى الخالص . وكان أجمل من كل هذا وذاك أن نرقب لورى وهو يدور حول الأختين ، كأنه لا يمل النظر إلى جمالهما .

وحين وقع نظر ميج على آمى ، أدركت لفورها أن الثياب التى ترتديها خالية من الطابع الباريسى الظاهر فى ثياب أختها ، وأن روعة مسز لورنس الشابة ستكسف مسز موفات نهائيا ، وأن العروس الجديدة غاية فى الأناقة والرشاقة . وقالت جو لنفسها وهى ترقب الزوجين : « ما أجملهما معاً ! كنت على حق فى رفضه ، فقد وجد لورى من تلائمه أناقة وتهذيباً ، وبوسعها أن تحسن إدارة بيته أضعاف جو العجوز الحرقاء ، وتكون مدعاة لفخره لا مجلبة لشقائه . » وابتسمت مسز مارش لزوجها ، وأومأ كل منهما للآخر برأسه ، وقد علت وجهيهما علائم السعادة والبشر ، إذ أدركا أن ابنتهما الصغرى قد فازت كل الفوز ، لا من الناحية المادية ، بل من الناحية المعنوية ، فكسبت بمهارتها ثروة لا تقدر من الحب والثقة والسعادة .

وكان وجه آمى مشرقاً بالبشر الذى ينبعث عن قلب عامر بالسلام ،

وكان صوتها ناعماً عذباً هادئاً ، وزالت مسحة الجمود عنها أمام روح الوقار التى زادتها حسناً وجمالا . ولم يكن فى مظهرها أثر للتصنع ، وانسابت تصرفاتها فى حلاوة طبيعية ، أكثر جاذبية من جمالها الجديد ورشاقتها القديمة ، وكان من الواضح أنها أصبحت السيدة الكاملة ، التى كانت تحلم بها طول عمرها .

قالت أمها فى رقة :

— لقد غير الحب ابنتنا كثيراً .

وهمس زوجها فى أذنها يقول ، وهو يلقى نظرة على وجهها الذى أنهكته الأيام ، وشعرها الذى بيضته الأحداث :

— والفضل لك ، فقد كنت لها مثلا أعلى طول حياتها . .

ووجدت ديزى أنه من المستحيل عليها أن ترفع نظرها عن عمتها الصغيرة ، فتعلقت بها ، وتبعتها أينما سارت مثل جرو صغير ؛ أما ديمى ، فقد شغل فى بداية الأمر بدراسة هؤلاء الأقارب الجدد ، ثم أقنع نفسه بقبول رشوة مغرية ، أحضرتها له عمته من برن . وكانت الرشوة عبارة عن مجموعة من الدببة الخشبية ، لم يستطع ديمى بعدها إلا التسليم بلا قيد ولا شرط .

قال العم لورى العملاق ، وهو يهز الطفل يميناً وشمالا ، بطريقة أفسدت وقاره :

— اسمع أيها الرجل الصغير ، حين تشرفت بمعرفتك أول مرة ، لكمتنى فى وجهى ، وأنا الآن أطالبك ، كسيد مهذب ، بالترضية اللازمة .

وقالت حنة :

— فليباركهما الله ! إنها تجلس وقد كساها الحرير من رأسها إلى قدمها ، أليس جميلا أن نرى آمى تخلب القلوب بحسنها ، ويناديها الناس بمسز لورنس ؟ !

رحمة يا إلهى ! كيف كان يتحدث هؤلاء الناس ؟ يبدأ الواحد ، ويتلوه الثانى ، ثم ينفجرون فى الكلام معاً ، ليسردوا تاريخ ثلاث سنوات فى نصف ساعة ! !

ولو طال الحديث بهم على هذه الصورة ، لتعبوا وبحت أصواتهم ، ولكن الشاى كان قد أعد فى هذه اللحظة ، فتهيأت لهم فرصة الهدوء .

وانتقل الركب السعيد إلى غرفة المائدة ، وقد صحب مستر مارش ابنته العزيزة مسز لورنس ، ومالت مسز مارش على ذراع « ابنها » لورى ، وسار السيد العجوز مع جو وهو يهمس فى أذنها قائلا :

— ستكونين من الآن ابنتى .

وألقت جو نظرة سريعة على الركن الخالى جانب المدفأة وهمست بشفتين مرتجفتين :

— سأحاول أن أملأ مكانها يا سيدى .

وسار التوأمان خلف الصفوف ، يمرحان فى غفلة من الجمع . وانتهزا فرصة انشغال أفراد الأسرة بتحية الضيفين ، فأعملا أسنانهما فى القطائر دون حرج ، ثم حشوا جيوبهما بما تبقى من فطائر الزنجبيل والبسكويت الساخن ، التى لم تلبث أن تفتتت وعلقت حلواها بملابسهما . وأثقل عليهما

تأنيب الضمير ، لما ارتكبا من خطايا ، وخافا أن تكشف عيون « بابا » حجب القماش الرقيق الذى يخفى غنائمهما ، فلاذا بحمى جدهما ، مطمئنين إلى أنه يجلس بلا نظارتيه . .

وعادت آمى ، التى كانت تتناقلها الأيدى كالمرطبات ، إلى حجرة الاستقبال مستندة إلى ذراع الجد لورنس ، وسار الباقون مثنى ، مثنى كما دخلوا حجرة المائدة ، وبذلك الترتيب بقيت چو بلا رفيق ، ولكنها لم تشعر بوحدتها ، لأنها كانت فى شغل مع حنة تحدثها وتجيب عن أسئلتها ، قالت حنة :

— ترى هل تركب آمى العربة المقفلة ؟ وهل تستعمل الصحون الفضية المخزونة فى القصر ؟

أجابت چو راضية :

— لن يدهشنى أن تركب عربة يجرها ستة جياد بيضاء ، ولا أن تستعمل صحوناً ذهبية ، ولا أن تلبس الدنتلا أو تتحلى بالماس ، فلا يمكن أن يبخل عليها تيدى بشىء .

قالت حنة :

— جميل ! وعلى فكرة ، ماذا ستأكلون فى الإفطار ، لحماً أم سمكاً ؟

ولم تر چو أن الوقت مناسب للمناقشة فى مثل هذه الأمور ، فقالت وهى تقفل الباب :

— الأمر يستوى عندى .

ووقفت جو تتأمل الجماعة وهم يختفون فى أعلى السلم ، وما إن غادرت قدما ديمى آخر درجة أمامها ، حتى غلبها شعور مفاجئ بالوحدة . وكان شعوراً طاغياً ، جعلها تتلفت حولها بعيون غائمة ، وكأنما تبحث عن شىء تستند إليه ، فقد تركها الجميع حتى تيدى . ولو علمت ما يعده لها الغيب فى عيد الميلاد ، ما قالت تحدث نفسها :

— سأذرف دموعى الحارة حين أذهب إلى فراشى ، أما الآن فلا يليق بى أن أكتب .

ووضعت يديها على عينيها ، فهى ، كعادتها الصبيانية ، لا تعرف أبداً مكان منديلها . وفيما هى تحاول أن تبتسم ، إذ دق الباب الخارجى .

وأسرعت تفتح الباب فى حفاوة ، ولكنها ما كادت تفتحه ، حتى روعت كأنما رأت شبحاً يفاجئها بمقدمه . كان بالباب سيد فارع الطول يبتسم لها فى الظلام كشمس تشرق فى منتصف الليل ! وصاحت چو وهى تتشبث به ، كأنها تخشى أن يعود الظلام فيبتلعه ، قبل أن تتمكن من إدخاله إلى البيت :

— أوه ! أهذا أنت يا مستر بايرز؟ إنى مسرورة جداً برؤيتك !

قال الأستاذ ، وقد توقف قليلا حين سمع ضجيج الأصوات ، ووقع أقدام الراقصين :

— وأنا مسرور جداً برؤية مس مارش. ولكن، لا، إن لديكم حفلة !

قالت :

— لا ، إنها الأسرة فقط ، فقد عادت أختى وبعض الأصدقاء من الخارج ، ونحن جميعاً سعداء ، فتعال وانضم إلينا كواحد منا .

وكان مستر بايرز رجلا اجتماعياً يعرف أصول المجاملة ، ويعرف أن اللياقة تقتضيه الانسحاب إلى يوم آخر ، ولكن ماذا يفعل بعد أن أغلقت چو الباب وأخذت منه قبعته ؟ وأغلب الظن أنه بقى بتأثير السرور الذى بدا واضحاً على وجه چو ، وتحيتها التى فاقت فى حرارتها ما كان يتوقع .

قال :

— يسرنى أن أراهم جميعاً ، إذا لم يكن فى وجودى معكم أى إزعاج .

وعندما سقط النور على وجهها وهى تعلق معطفه ، لم تفت عينيه

التغييرات التى أصابتها ، قال :

ـ أكنت مريضة يا صديقتى ؟

قالت :

ـ بل كنت حزينة متعبة ، فقد مرت بنا أحداث كثيرة منذ رأيتك آخر مرة .

قال :

ـ أعرف بما حدث ، وحزنت من أجلك حين سمعت بالأنباء .

وعاد يصافحها من جديد ، بوجه ينم عن عطفه عليها ، وبالغ مشاركته الوجدانية فى أحزانها ، وأحست چو ، وهو يصافحها ، أن شعوره أفضل بلسم لآلامها ، ولا شىء فى دنياها يعدل نظرته الحانية التى أدخلت السكينة على نفسها .

واصطحبت چو صديقها مستر بايز إلى الجماعة ، وقالت فى زهو ، وكأنها تريد أن تقدم صديقها لأسرتها بين دق الطبول :

ـ أبى ، أمى ، هذا صديقى الأستاذ بايز .

وإذا كان القادم الغريب قد ساورته الوساوس حول استقباله ، فقد زالت هواجسه فى اللحظة التى دخل فيها على الأسرة . إذ حياه كل فرد برقة زائدة من أجل چو ، وإكراماً لشخصه كذلك . ولم يمض على وجوده وقت طويل حتى أحبوه جميعهم ، ولا فضل لهم ، فقد كان مستر بايز يحمل معه ذلك الطلسم الذى تنفتح له القلوب مطمئنة . . واستطاع

الاستاذ أن يدفئ القلوب التى استقبلته بالمحبة ، وازدادت مكانته فى تقديرهم لفقره ، فالفقر يغنى النفوس التى تعيش فيه بالود والعطف والمحبة .

وجلس مستر بايز وسط الأسرة يتطلع حوله ، وعلى وجهه سمات السائح الرحالة الذى يدق باباً غريباً ، فاذا انفتح وجد نفسه وسط أهله وأصحابه . وانجذب الطفلان نحوه كما ينجذب النحل إلى العسل ، وجلس كل منهما على إحدى ركبتيه ، وبدءا يعبثان فى جيوبه ويشدان لحيته ، ويفحصان ساعته الضخمة فى جرأة الطفولة . وتبادلت السيدات نظرات الرضا ، وفتح مستر مارش خزانة معارفه المختارة ، وقد أحس أنه وقع على روح تآلفت مع روحه ، وقبع چون صامتاً يستمع إلى ما يدور من أحاديث ويستمتع بها ، كما وجد مستر لورنس العجوز أنه من المستحيل أن يترك هذا الحديث الشائق ليذهب إلى فراشه .

ولو لم تكن چو مشغولة بأشياء أخرى ، لوجدت فى مسلك لورى ما يسليها ، فقد أحس بألم خفيف يحز فى صدره ؛ كان ألم الشك لا الغيرة ، فراح يرقب الأستاذ من بعيد فى تحفظ واحتراس . ولم يدم الشك طويلا ، فقد أثار الرجل اهتمامه بالرغم عنه ، ووجد نفسه مسوقاً إلى الاشتراك مع من يستمتعون بحديث مستر بايز الساحر ، ولم يتوجه الأستاذ إليه بالكلام ولكنه كان يلقى إليه نظرة ثم يعود إلى حديثه ، وقد اكتسى وجهه بالأسف على ضياع شبابه ، ثم ينقل بصره من لورى إلى چو فى انتباه زائد ، لعلها ترد على نظراته بما يريح فؤاده الحائر . وكان حرياً بچو أن تجيب على

نظراته هذه بما يريح قلبه ، ولكنها كانت مشغولة عنه بالسيطرة على نفسها هى ، خشية أن يستشف الجالسون حقيقة شعورها ، فحنت رأسها على جورب صغير ترفوه ، وركزت اهتمامها فيه ، حتى لا تنم عيونها عما يعتلج فى قلبها . وبين آن وآخر تختلس إليه نظرة تنعش فؤادها ، مثلما ينعش الماء التائه فى الصحارى والقفار . وكشفت لها نظراتها المختلسة عن بشائر مطمئنة ، فقد كان مستر بايرن غاية فى اليقظة والانتباه ، بعد أن زايله شروده القديم ، وبدا سعيداً بوجوده معها ، مهتماً بما يدور حوله ، أما وجهه فكان وسيماً بحرارة الشباب المتفجر . وانساب الرجل فى حديثه ، فانتقل إلى وصف العوائد الجنائزية عند القدماء ، وهو موضوع لا يمكن أن يوصف بالمبهج ، وانتفخت أوداج چو زهواً وخيلاء لما غلب لورى على أمره فى نقاش بينه وبين الأستاذ بايرن ، وقالت تحدث نفسها وهى تنظر إلى وجه أبيها الذى استغرق فى الحديث : « ترى ما ذا يقول أبى فى إبقاء هذا الرجل معه دائماً ؟ »

وكان بايرن يرتدى حلة سوداء جديدة ، بدا فيها سيداً فاضلا بمعنى الكلمة ، وكان شعره ، الأشعث عادة ، مقصوصاً ممشطاً مرتباً ، ولكنه لم يبق على هذا الحال طويلا ، إذ راح كعادته يشد خصلاته إذا حمى وطيس المناقشة ، فلم تمض لحظة إلا ووقفت خصلة من الخصلات فى وسط رأسه ، وكانت چو تفضل شكله بخصلته الناشزة ، لأنها تضفى على جبته مزيداً من الوقار . ولم تكتف المسكينة بالإعجاب فقط ، وإنما راحت

تعظم من شأنه ، وترقبه فى هدوء فلا يفوتها شيء ، حتى أزرار قميصه الذهبية ، وقالت لنفسها وهى ترمقه فى تقدير :

— يا للصديق العزيز! لقد بالغ فى تأنقه كأنه ذاهب لعقد خطبته !

وبعث هذا الخاطر فى رأسها فكرة مفاجئة تخضب لها وجهها بحمرة الخجل ، وارتبكت يدها حتى سقطت بكرة الخيط منها . فانحنت تلتقطها راجية أن تخفى بذلك مشاعرها عن الجالسين . ولكن المناورة لم تنجح كما كانت تأمل ، فما إن رأى الأستاذ البكرة تسقط ، وكان منهمكاً فى وصف كيفية إشعال النيران فى بعض الشعائر الجنائزية ، حتى ترك النار والجنازة ، وقفز وراء كرة الخيط الزرقاء ، فاصطدمت رأسها برأسه صدمة شديدة ، واستقام كلاهما بعدها مغرقاً فى الضحك ، ولكنه خجل لما بدر منه ، فعاد إلى جلسته نادماً ، ولم ينقذ البكرة . .

ومضى الوقت سريعاً ولا من يشعر بمضيه ، فقد هدأت الجلسة بعد أن انصرفت حنة بالطفلين إلى فراشهما ، واستأذن مستر لورنس فى العودة إلى بيته ، واجتمع الباقون حول النار يتسامرون ويتحدثون ، حتى قامت ميج تنشد العودة إلى بيتها خشية أن تكون ديزى قد سقطت من سريرها ، أو أن يكون ديمى قد أحرق قميص نومه وهو يعالج تركيب عيدان الثقاب .

قالت چو وقد أغراها المرح بالغناء :

— فلننشد أغنيتنا المعهودة بطريقتنا القديمة ، احتفالا باجتماعنا كاملين مرة ثانية .

ولم يكن عددهم كاملا فى الواقع ، ولكن أحداً لم ير فى كلامها تجنيا على الحقيقة ، لأن بث وإن غابت بجسدها ، فروحها حاضرة تنشر السلام والمحبة ، والموت لايستطيع أن يفرق أسرة وثّق الحب العميق عُراها : كان الكرسى الصغير ما زال فى مكانه القديم ، وسلة التطريز تقبع حيث تركتها يد صاحبتها على الرف المعتاد حين ثقلت الإبرة على أصابعها ، والمعزف الذى قل أن يمسه أحد ، لم يتحرك من موضعه ، وفوقه صورة بث فى أيامها الأولى ، تطل عليهم بوجهها الباسم الهادئ ، وكأنها تدعوهم قائلة :

« كونوا سعداء فهأنذا دائماً معكم » .

وقال لورى يدعو زوجته فخوراً بتلميذته النابهة :

— اعزفى لهم يا آمى ، وأريهم كيف تقدمت فى الموسيقى .

فهمست آمى ، وعيونها مغرورقة بالدموع :

— لا ، ليس الليلة يا عزيزى . .

ولكنها فى تلك الليلة بالذات كشفت عن شىء أكثر من النبوغ والمهارة ، فقد غنت أغنيات بث بصوت عذب رقيق ، لا يستطيع أن يلقنه أمهر الأساتذة ، ومست برخامة صوتها قلوب سامعيها ، واستحوذت على مشاعرهم بقوة تفوق أى إلهام . وكانت الغرفة هادئة يسودها الصمت حين وصلت إلى البيت الأخير من الأغنية ، فخفضت صوتها وهى تقول فى حزن بالغ :

« ليس فى الأرض حزن لا تستطيع السماء أن تشفيه » .

ومالت آمى برأسها تسنده إلى صدر زوجها الواقف خلفها ، وقد أحست بأن سعادة الاستقبال والعودة تنقصها قبلة من بث .

وبادرت چو تقول بسرعة ، لتنقذ الموقف قبلى أن يتحول الصمت إلى حزن مؤلم :

ـ لنختم الليلة بأغنية « مينيون » ، فستر باير يجيد غناءها .

وتنحنح مستر باير واستعد للغناء ، بعد أن تقدم إلى الركن الذى وقفت فيه چو ، ثم قال لها :

ـ شاركينى فى الغناء ، فنحن ننسجم معاً انسجاماً رائعاً .

وكان فى قوله هذا خيال كبير ، فچو لا تعرف من الموسيقى أكثر مما تعرفه جرادة هائمة ، ولم تكن لتتردد فى تلبية رجاء أستاذها ، ولو طلب منها أن تغنى أوبرا كاملة .

وبدأت تردد معه الأغنية فى سرور ، بغض النظر عما أصاب النغم . لم يكن للنشاز أهمية ، فقد كان مستر باير يغنى بحماسة الألمانى القح فى إتقان زائد ، مما جعلها تقنع من الغناء بالهمهمة ، راضية بالإنصات إلى صوته الشجى ، الذى بدا كأنه ينشد لها وحدها ويقول :

« أتعرفين هذه البلاد ، حيث تنمو أشجار الليمون وتزدهر ! »

وكان هذا البيت أحب ما فى الأغنية إلى نفس الأستاذ ، فهذه البلاد تعنى عنده ألمانيا ، ولكنه تحول باهتمامه وحماسته إلى الأبيات التى تقول :

« هناك . . نعم هناك سنذهب معاً

أنا وأنت يا معبودتى »

واغتبط قلبها وهى تصغى لدعوته العاطفية ، وكان بودها لو استطاعت أن تقول له إنها تعرف هذا المكان ، وليس أحب إليها من أن تذهب إليه معه .

ولاقت الأغنية من الحاضرين إعجاباً شاملا ، ولكن لم تمض لحظات بعد ذلك حتى حدث ما جعل الأستاذ ينسى آداب السلوك كلية ويتصرف تصرفاً أرعن . . كانت چو قد قدمت له آمى بقولها « هذه أختى » ، وطوال السهرة لم ينادها أحد باسمها الجديد ، فلما قامت تضع قبعتها على رأسها ، نهض لورى إلى مستر بايز يودعه ويقول :

— لقد سررت أنا وزوجتى بلقائك يا سيدى ، وأرجوك أن تذكر أننا نرحب دائماً بلقائك .

وإذ ذاك نسى الأستاذ نفسه وراح يحملق فى آمى وهى تضع قبعتها ، وطغت عليه الغبطة فراح يبالغ فى شكر لورى على دعوته ، حتى ظن الفتى أن الأستاذ أظرف شخصية قابلها فى حياته . ثم قال الأستاذ يحدث مسز مارش ، وإن كان ينظر إلى چو :

— وأنا أيضاً أستأذن فى الذهاب يا سيدتى ، ولكن يسرنى أن أعود لزيارتكم ثانية ، إذا سمحتم ، فبعض الأعمال الصغيرة تستلزم بقائى أياماً فى هذه المدينة .

ولم تكن مسز مارش لتغمض عينيها عن مصالح بناتها — كما قالت

مسز موفات فى يوم من الأيام ــ فأجابت على قوله بمنتهى الترحيب .

قال مستر مارش بعد انصراف الضيوف ، وكان لا يزال فى موقفه أمام المدفأة :

ــ أعتقد أنه رجل حكيم عاقل .

وقالت مسز مارش وهى تملأ الساعة :

ــ لا شك أنه رجل طيب .

واكتفت چو بأن تقول وهى تنسحب إلى غرفة نومها :

ــ أعتقد أنكم ستحبونه .

وراحت تسائل نفسها فى عجب عما جاء بمستر بايير إلى المدينة ، وأخيراً ، خيل إليها أنه جاء لحضور حفل تكريم يقام خصيصاً من أجله ، ولكن تواضعه يجعله يخفى هذه الحقيقة . ولو أنها رأت ما ارتسم على وجهه من تعابير ، حين أوى إلى حجرته ، ووقف ينظر إلى صورة فتاة صارمة الملامح ، ذات شعر كثيف منسدل ، تتطلع عيناها إلى المستقبل الغامض لعرفت نوع المهمة التى جاء من أجلها إلى المدينة .

ولو أنها رأته وهو يطفئ المصباح ، ثم يقبل تلك الصورة فى الظلام ، لتأكد لها ذلك بصورة قاطعة .

الفصل الرابع والأربعون

مولاى ومولاتى

دخل لورى فى اليوم التالى بيت آل مارش ، فوجد مسز مارش وقد أجلست مسز لورنس على حجرها ، كأنما عادت هذه طفلة صغيرة ، فقال :

ــ أتسمحين لى يا سيدتى الأم أن أستعير منك زوجتى لمدة نصف ساعة ، فقد وصل متاعنا ، وكدت أفسد أدوات الزينة الباريسية فى بحثى عن بعض أشياء أريدها ؟

قالت مسز مارش وهى تضغط على اليد البيضاءالتى ازدانت بخاتم الزواج ، وكأنها تعتذر عن استحواذها لها :

ــ بالتأكيد . اذهبى يا عزيزتى ، لقد نسيت أن لكما بيتاً غير هذا .

قال :

ــ ما كنت أطلبها لولا حاجتى إليها . . إننى لا أستطيع أن أفعل شيئاً دون معونة زوجتى الصغيرة ، وبغيرها أشعر كأننى . . كأننى . .

وتوقف يبحث عن التشبيه المناسب ، فقالت چو ، وقد استعادت سلاطة لسانها ، منذ عاد لورى إلى الوطن :

ــ كأنك دوارة رياح . . بلا رياح !

قال :

ــ بالضبط . فآمى تجعلنى أشير دائماً إلى الغرب مع لفتة إلى الجنوب بين آن وآخر ، ولم أتجه نحو الشرق منذ تزوجت ، ولا أكاد أعرف شيئاً عن الشمال ولكنى دائماً فى جو صحو معطر . . أليس كذلك يا سيدتى ؟

قالت آمى بلهجة الأمومة المحببة إلى لورى :

ــ الطقس غاية فى الجمال الآن ، ولست أدرى إلى متى يستمر كذلك ! ولكنى لا أخشى العواصف ، فقد تعلمت كيف أسير سفينتى فيها . هيا بنا إلى البيت يا عزيزى ، لأجد لك ما كنت تبحث عنه فى متاعى ، وأظن أنه « لبيسة » الأحذية . إن الرجال قليلو الحيلة يا أماه !

وقالت چو وهى تزر معطف آمى كما كانت تزرلها مرولتها فى الماضى :

ـ ماذا تفعلان حين يستقر بكما المقام ؟

قال لورى :

ـ لدينا خطط كثيرة نفضل أن نبقيها الآن فى طى الكتمان . ما زلنا جدداً فى وظيفتنا ، نكره إضاعة الوقت فى الخمول والكسل ، وفى نيتى أن أشغل نفسى بعمل يسعد جدى ، ويثبت له أننى لست مدللا . لقد سئمت الثرثرة ، ولى رغبة فى أن أشتغل كرجل كامل الرجولة ، وأظننى فى حاجة إلى عمل جدى يحفظ وقارى .

قالت مسز مارش ، وقد أعجبت بقرار لورى وعزيمته :

ـ وآمى ؟ ماذا فى نيتها أن تصنع بنفسها ؟

أجاب لورى :

ـ بعد أن ننتهى من واجب المجاملات ونستريح بعض الوقت ، سندهشكم بما نقدمه فى القصر من كرم الضيافة ، وبمن ندعو من كرام القوم ، ستجدون ما يرضيكم من نشاط طيب فى عالمنا كله . هذه مشروعات آمى المستقبلة . أليس كذلك يا مدام ريكاميه ؟

قالت آمى ، وفى نيتها أن تكون أصلح الزوجات ، قبل أن تفتح صالونها كملكة للمجتمع :

ـ دع الأمر للأيام ، وكفاك قحة أمام أسرتى ، فهيا بنا ننصرف .

قال مستر مارش بعد أن خرج الزوجان وقد عجز عن تركيز ذهنه فى كتب أرسطوطاليس :

– ما أسعد الطفلين معاً ! !

قالت زوجته ، بلهجة الربان الذى قاد سفينته إلى شاطئ الأمان سالمة :

– نعم إنهما سعيدان ، وستدوم سعادتهما على ما أعتقد .

وقالت چو وهى تتنهد :

– وأنا واثقة بذلك . والله ، ما أسعدك يا آمى !

وأشرق وجهها حين رأت الأستاذ باير يدفع البوابة فيفتحها متعجلا.

وفى المساء ، بعد أن أخذ لورى قسطه من الراحة ، وعثرت له زوجته على ما كان يبحث عنه ، قال لها وهى غارقة فى تنسيق كنوزها الغنية الجديدة :

– مسز لورنس !

أجابت :

– مولاى !

قال :

– أيتزوج ذلك الرجل من چو ؟

قالت :

ـ ألست تتمنى معى أن يحدث ذلك ؟

قال :

ـ نعم يا حبيبتى ، فهو رجل فذ بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، ولكنى كنت أفضل لو كان أنضر شباباً ، وأكثر مالاً .

قالت :

ـ لاتكن ماديًّا إلى هذا الحد يا لورى ، فالحب لايعترف بعمر أو ثروة ، ومن الخطأ أن يتزوج النساء من أجل المال .

وأمسكت آمى لسانها بعد أن أفلتت هذه الكلمات منها ، ونظرت إلى زوجها متطلعة ، فأجابها بخبث :

ـ مؤكد . . من الخطأ أن يتزوج النساء من أجل المال وحده ، وإن كنا نسمع من بعض الفتيات الرشيقات غير ذلك ، فقد جاهرت مرة ـ على ما أذكر ـ برغبتك فى الزواج من ثرى ، ولعل ذلك كان السبب فى زواجك من رجل مثلى لا يصلح لشىء .

قالت :

ـ لاتظن ذلك ياعزيزى ، فأنا لم أفكر فى ثرائك حين قبلتك زوجاً ، وما كنت لأتردد لو كنت معدماً . . وإنى لأتمناك فقيراً فى بعض الأحيان ،

حتى أثبت لك إخلاص عاطفتى .

وفى خلوة الحب هذه ، قدمت له آمى التى يعرفها الناس وقورة ، أدلة مقنعة على صدق كلامها . ثم أردفت تقول :

– لاأظنك تعتقد حقًّا أننى المرأة المادية التى كنت أريدها فيما مضى ، فإنه ليتعسنى أن تتصورنى طامعة فى مالك . . فالله يعلم أننى ما تزوجتك إلا لأضع مصيرى بين يديك ، وأقاسمك حياة سعيدة ، وما كان لينتقص من حبى أن تكون معدماً تكسب قوتنا من التجذيف على سطح البحيرة .

قال :

– أأبله أنا أم أحمق ليجول بخاطرى مثل هذا الظن ، بعد أن رفضت الزواج من رجل أغنى منى ، ثم منعتنى من أن أعطيك نصف ما أحب أن أمنحك من هدايا ؟ إن المسكينات يتزوجن من أجل المال كل يوم ، كسبيل إلى الخلاص من همومهن ، ولكنك ذات خبرة وتجربة ، وليست حقائق الحياة خافية عليك . وأعترف بأننى خفت عليك فى وقت من الأوقات ، ثم لم ألبث أن اطمأننت إلى حكمتك وعقلك ، ولا غرابة فالبنت سر أمها . لقد صارحت ماما برأيى هذا أمس ، فأشرق وجهها بالبشر ، كأنما أعطيتها صكًّا بمليون من الجنيهات لتصرفها فى أوجه البر .

وتوقف لورى عن الحديث لحظة عند ما رأى عينى آمى تنظران إليه فى

شرود تام ، ثم قال :

ـ إنك لا تتبعين موعظتى الأخلاقية يا مسز لورنس !

قالت :

ـ إنى أتتبع حديثك وفى ذات الوقت أتأمل بإعجاب طابع الحسن الذى يزين ذقنك . لا أريد أن أثير خيلاءك وغرورك ، ولكنى أعترف أنى فخورة بوسامة زوجى أكثر مما أنا فخورة بثرائه .

ثم ربتت على أنفه الجميل ملاطفة ، وقالت بابتهاج :

ـ لاتضحك منى ، فأنفك يبعث الراحة إلى نفسى .

وكان لورى معتاداً على سماع عبارات الإطراء ، ولكن عبارة مما سمعها لم تبلغ من نفسه ما قالته آمى ، فبان عليه الفرح بوضوح رغم أنه ضحك من مزاح زوجته الغريب :

قالت آمى فى بطء :

ـ أتسمح بأن أسألك سؤالا واحداً يا عزيزى ؟

قال :

ـ طبعاً ، سلى ما شئت !

قالت :

ـ هل يضايقك أن تتزوج چو من مستر بابر ؟

قال :

ــ أهذا كل ما يقلقك ؟ ظننت أن فى طابع الحسن شيئاً لا يروقك ! تأكدى أننى سأكون أسعد مخلوق بزواجها منه ، وسأرقص يوم زفافها بقلب يفيض طرباً وابتهاجاً ، فهل يكفيك هذا أم لديك سؤال آخر ؟

وكانت آمى ترقبه وهو يتكلم ، فاطمأنت نفسها ، وتبخرت مخاوفها ، وانقشعت عن قلبها ظلال الغيرة إلى الأبد . قالت بمنتهى الحب والثقة :

ــ ليتنا نفعل شيئاً لهذا الأستاذ العجوز العظيم ! ألا نستطيع أن نخلق له قريباً غنيًّا مات فى ألمانيا عن ثروة صغيرة يرثها ؟

وتأبط لورى ذراع آمى ، وسار الاثنان فى الغرفة جيئة وذهاباً ، وهى طريقة لقطع الوقت أغرما بها لما فيها من تذكرة بالساعات الهنيئة التى قضياها معاً فى حديقة القصر بفيفاى .

قالت آمى :

ــ ستكشف چو أمرنا وتفسد حيلتنا ، فهى فخورة برجالها كما هو ، وقد سمعتها أمس تشيد بجمال الفقر .

قال :

ــ فليبارك الله قلبها الطاهر ! قد تغير رأيها فى الفقر حين يتحتم عليها أن تعول زوجاً أديباً وذرية كبيرة من صغار الأدباء والأديبات ! الأفضل

ألا نتدخل حتى تحين الفرصة الملائمة ، فنقدم لهما المعونة رغماً عنهما . إنى مدين لچو بجزء كبير من ثقافتى وهى تؤمن بضرورة وفاء الديون ، وبهذه الحجة أستطيع أن أتغلب عليها .

قالت :

ـ أجمل ما فى الحياة أن يسعد الإنسان نفسه بمساعدة الآخرين ! كنت دائماً أتمنى أن يكون لى من القوة ما يمكننى من إعطاء غيرى بسخاء وبفضلك تحققت أمنيتى ، فشكراً لك .

قال :

ـ سنحقق معاً خيراً كثيراً . فهناك نوع خاص من الفقر أحرص كل الحرص على مساعدته ، لأنه يختلف عن فقر المتسولين الذين يلقون بعبئهم على المحسنين ! فالأسر الطيبة التى أخنى الدهر عليها ، لا تجد من يعينها ، لأنها لا تطلب إحساناً ، والناس عادة لا يجرؤون على مساعدتها محافظة منهم على كرامتها ! فى حين أنه توجد ألف طريقة وطريقة تنى بالغرض ولا تجرح الشعور أو تمس الكبرياء . وأؤكد لك أنى أفضل معونة سيد محترم أخنى عليه الدهر على معونة متسول محترف ، وقد أكون مخطئاً فى ذلك ، ولكن هذا ما أفعله على ما فيه من مشقة .

قالت آمى فى إعجاب :

— هذا خلق الرجل الكريم ، ولا يتحلى به إلا كريم مثلك .

قال :

— أشكرك ، وإن كنت لا أستحق هذا الثناء كله . . كدت أفضى إليك بهذه الآراء ونحن فى الخارج ، فقد قابلت شباناً موهوبين يقومون بتضحيات جسيمة ، ويتحملون مشقات كبيرة فى سبيل تحقيق آمالهم . . كانوا شباناً رائعين لا مال لديهم ولا أصدقاء ، ومع ذلك يكافحون كالأبطال بصبر وشجاعة وطموح ، فخجلت من حالى ، وتمنيت لو أمكننى أن أقوم بنفسى بمساعدتهم ، لأنهم إذا كانوا على عبقرية حقة ، نالنى شرف إظهارها ، بدل أن تموت وتفنى فى أحضان الجوع والعرى . . وإذا لم يكونوا على ما يرجون من نبوغ ، فكفانى أن أخفف عنهم وقع الحقيقة حين يكتشفونها .

قالت آمى :

— هذا صحيح ، وهناك فئة أخرى لا تستطيع أن تمد يدها بالسؤال ، فتتعذب فى صمت . إنى أعرف كثيراً عن هذه الفئة ، لأنى كنت أنتسب إليها قبل أن تجعلنى أميرة ، كما فعل الملك بخادمته فى القصة القديمة . الفتيات الطموحات يتعذبن يا لورى ، وكثيراً ما يخسرن الشباب والصحة والفرص ، لحرمانهن من معونة صغيرة فى الوقت المناسب . ولكنى

كنت أحسن حالا من غيرى ، بفضل عطف الناس علىّ ، وحنانهم بى ، لذلك كلما رأيت فتيات يجاهدن مثلما كنا نجاهد ، أشعر برغبة فى مساعدتهن كما سوعدت فى جهادى .

واستقر رأيه فى هذه اللحظة على إنشاء مؤسسة لمعونة الفتيات الموهوبات فى الفن ، فصاح وهو يلتهب حماسة إلى عمل الخير ، قال .

ــ ستكونين لهم ملك الرحمة ، يا ملك الرحمة ، فليس من حق الأغنياء أن يقبعوا فى أعقار دورهم ، قانعين من الجهاد بجمع المال ، ليبدده من بعدهم أولاد عابثون ، أجمل بالإنسان أن يستغل ماله فى النفع وهو حى ، ويستمتع بإسعاد غيره من الناس ، فإنها رسالة تستحق أن يعيش الغنى من أجلها . . سوف نسعد بحياتنا إن شاء الله ، ونضيف إلى متعنا لذة إشراك غيرنا فيها بأنصبة سخية . فهل لك أن تكونى كإلهة الإغريق الصغيرة التى تجوب البلاد ، لتفرغ سلتها المليئة بالسعادة والراحة ، وتعود بها عامرة بالأعمال الصالحة ؟

قالت :

ــ بكل سرور ، إذا أنت تشبهت بالقديس مارتن ، فرحت تقف عند كل محلة تمر بها فى رحلتك حول العالم ، لتدفئ الفقير والمحروم بعباءتك

قال :

ــ اتفقنا ، والكسب لنا !

وتصافح الزوجان الشابان تأكيداً لاتفاقهما ، ثم استأنفا سيرهما جيئة وذهاباً فى سعادة بالغة ، وقد شعرا بأن بيتهما ازداد نوراً بما سوف يضفيان من نور على بيوت الآخرين ، وأن طريقهما قد ازدهر واتسع بجهودهما فى تعبيد طريق المحتاجين ، وأن قلبيهما قد ارتبطا إلى الأبد بذلك الحب السمح الذى لا تغفل عينه الخيرة عمن حرموا من مثل نصيبهما فى الحياة .

الفصل الخامس والأربعون

ديزى وديمى

لن أشعر ، كمؤرخة متواضعة لأسرة مارش ، أننى أديت واجبى على أكمله ، ما لم أخصص فصلا على الأقل لأهم وأعز عضوين فى الأسرة ، فقد بلغ ديمى وديزى سن الفهم والإدراك الآن ، وفى عصر السرعة الذى نعيش فيه ، يثبت أبناء الثالثة أو الرابعة حقوقهم ، وينالونها أكثر مما يفعل الكبار .

إذا كان هناك توءمان تعرضا لخطر التدليل ، نتيجة لحب الوالدين

المفرط ، فهما توءما بيروك الصغيران . كانا بالتأكيد أعجب طفلين فى الوجود ! فقد مشيا فى الشهر الثامن من عمرهما ، وتكلما بطلاقة فى تمام العام ، وفى العام التالى جلسا إلى مائدة الطعام ، وأحسنا فيها التصرف بشكل أدهش الناس ! وفى الثالثة طلبت ديزى إبرة ، وحاكت حقيبة بثلاث غرزات فقط ، ثم اهتمت بتنظيم شئون البيت وترتيب خزانة الطعام ، واستخدمت موقداً صغيراً للطهو بمهارة أثارت دموع الفرح والفخر فى عينى حنة ! وفى الوقت نفسه تعلم ديمى الحروف الأبجدية من جده الذى ابتكر له طريقة لحفظها بذراعيه وساقيه ، وهكذا جمع بين العلم ورياضة الرأس والرجلين ! وأبدى الطفل منذ حداثته ، نبوغاً فى الميكانيكا سرّ له والده وقلقت أمه ، فقد راح يقلد كل آلة يراها ، مما جعل حجرة الأطفال فى حالة يرثى لها ! قلد ماكينة الخياطة مرة بمجموعة عجيبة من الخيوط والكراسى والدبابيس ، واستعاض عن العجل ببكرات تدور عليها الماكينات ! ومرة علق سلة خلف كرسى كبير ، وحاول أن يضع فيها أخته المطيعة المجاملة ، فلم تسفر التجربة إلا عن حشر رأسها فى السلة ، وبقيت على هذا الحال حتى وجدت المسكينة من ينقذها من مخترعاته ، وعندئذ صاح يقول محتجاً : « وماذا جرى ؟ هذا دلو أريد أن أرفعها من البئر » .

ورغم اختلاف شخصيتى التوءمين ، فقد توافقا معاً بشكل واضح ، وقلما كانا يتشاجران أكثر من ثلاث مرات فى اليوم الواحد . وكان ديمى يتحكم فى ديزى طبعاً ، ولكنه كان يرد عنها اعتداء الآخرين بمنتهى

الشهامة ، وقبلت ديزى أن تكون له مطيعة تعمل بأوامره وتوجيهاته ، ولكنها كانت تحبه وتعتبره أكمل مخلوق على وجه الأرض . وكانت ديزى ذات خدين ممتلئين موردين ، وكانت تعرف كيف تجتذب القلوب ، وتتربع على عروشها ، فأحبها الناس وتعلقوا بها . وكانت كإلهة صغيرة تستهوى الأنظار بجمالها . وتوحى بالرغبة فى تدليلها وتقبيلها ، ولولا بعض الشيطنة التى تربطها بالبشر أحياناً ، لرفعتها فضائلها الحلوة إلى مرتبة الملائكة ، كانت ترى الدنيا صحواً دائماً ، فتتسلق النافذة كل صباح ، وهى ما زالت فى قميص نومها ، وسيان سطعت الشمس أم هطلت الأمطار تقول : « إنه يوم جميل ، جميل جداً » . وكان من عادتها أن تهدى الأغراب قبلاتها بسخاء ، فيلين بطيب معشرها أشد القلوب صلابة ، وتجعل من محبى الأطفال عباداً مخلصين .

وقد قالت ذات مرة ، وهى تفتح ذراعيها ، وفى إحدى يديها ملعقة وفى الأخرى كوب :

ـ أنا أحب الناس كلهم .

وكأنما كانت تريد أن تضم العالم إلى صدرها وتشرك أهله على طعامها .

وكلما كبرت ديزى ، ازدادت أمها شعوراً بالبركة التى تطرد فى « عش الحمائم » بوجود هذه الابنة الهادئة اللطيفة ، وما تسبعه بروحها الحلوة من سعادة على البيت الصغير العتيق ، فتتوجه بقلبها إلى الله ضارعة ألا يريها مكروهاً فيها ، كما حدث لملاكهم بث . وكان جدها يناديها

دائماً « بيث » وجدتها تدللها بعطفها الزائد ، كأنها تريد بذلك أن تكفر عن خطأ قديم لا يعرف بسره سواها .

أما ديمى فكان طفلا أمريكيًّا بمعنى الكلمة : كثير الأسئلة ، محبًّا للاستطلاع ، يريد أن يعرف كل شيء ، يضايقه ألا يحصل على أجوبة مرضية للأسئلة التى لا تخلو من كلمة « ولماذا هذا ؟ »

وكان له أيضاً اتجاه فلسفى أدخل سروراً عظيماً على قلب جده ، الذى اعتاد أن يقضى معه وقتاً طويلا فى جلسات سقراطية ، يتصرف الطفل فيها تصرفات تثير إعجاب نساء العائلة !

دخل ذات ليلة إلى فراشه لينام ، وراح يتأمل ساقيه تحركانه ، ثم جعل يفكر تفكيراً عميقاً ،وأخيراً قال يسأل جده :

— ما الذى يجعل ساقىّ تمشيان يا جدى ؟

أجابه الجد العاقل ، وهو يمسح بيده فى احترام على شعره الأشقر :

— إنه عقلك الصغير يا ديمى .

سأله الطفل :

— وما هو هذا العقل الصغير ؟

قال :

— إنه القوة التى تجعل جسمك يتحرك ، كما يحرك الزمبرك تروس ساعتى التى فتحتها لك وأريتك ما بداخلها .

قال :

ـ إذاً افتحنى يا جدى ، لأرى كيف يشتغل العقل . . .

قال الجد :

ـ لا يمكننى ذلك ، كما لا يمكنك أنت أن تفتح الساعة ، فقد ملأك الله لتسير حتى يوقفك بقدرته .

قال الصبي ، وقد التمعت عيناه لفكرة جديدة طافت بذهنه :

ـ وهل أملأ أنا كما تُملأ الساعة ؟

قال الجد :

ـ نعم

وتحسس دبمى ظهره ، كأنما كان يتوقع أن يجده كظهر الساعة ، ثم قال فى رزانة :

ـ أعتقد أن الله ملأنى وأنا نائم .

وشرح الجد فى عناية ، واستمع الطفل فى انتباه ، مما حدا بالجدة أن تقول فى قلق :

ـ أمن الحكمة يا عزيزى أن تحدث الطفل بهذه الأمور؟ إنك تفتح عيونه وتعلمه أن يسأل فيما لا يمكن الإجابة عليه . .

قال :

ـ مادام قادراً على السؤال ، فهو قادر على الفهم أيضاً . . أنا لا أحشو رأسه بالأفكار ، بل أساعده على تفسير ما يعنّ له منها ، ولست أشك فى أنه يفهم كل كلمة أقولها ، فالأطفال أكثر حكمة مما نظن .

والتفت إلى الطفل يسأله : قل لى الآن يا ديمى ، أين تحتفظ بعقلك ؟

وما كان الجد ليدهش إذا أجاب ديمى بما أجاب به تلميذ سقراط ، عندما قال : « والله لا أعرف ياسقراط » ، ولكن الطفل وقف على إحدى ساقيه كما يفعل طائر البشاروس وراح يفكر قليلاً ، ثم قال بلهجة المقتنع :

— إنه فى بطنى الصغير !

ولم يستطع الجد إلا أنه يشارك زوجته فى ضحكها ، وانتهى درس الميتافيزيقا بما لا يدع مجالاً للشك فى أنه طفل طبيعى بمعنى الكلمة ، بالرغم من اتجاهه الفلسفى الذى كان أحياناً يقلق أمه ، ويدفع حنة إلى التشاؤم ، حتى لتقول متحسرة : « مثل هذا الطفل يمكن أن يعمر طويلاً » . والحق أنه كان بعد نوباته الفلسفية يعود إلى طبيعة عمره فيخرج يلهو ويتمرغ فى الأقذار ، ويرتكب شتى الحماقات التى تعرفها الأمهات جيداً ، فيتضايقن منها ، ويسعدن بها فى الوقت ذاته .

وكانت ميج قد أعدت قواعد خلقية كثيرة ، أرادت أن تطبقها على طفلها ، ولكن أين الأم التى استطاعت أن تمنع مكر الأطفال وخداعهم ، وتتغلب على جرأتهم وتملصهم ؟ وهكذا عجزت ميج عن السيطرة على تصرفات طفلها بعد أن أثبتت التجارب لها أنهما على مكر ودهاء .

وتقول ميج لديمى حين يقف فى المطبخ ، شأنه فى اليوم المخصص لصنع الفطائر :

— كفاك أكلا فى الزبيب يا ديمى ، وإلا مرضت .

فيجيب :

ـ وأنا أريد أن أمرض !

فتقول :

ـ ولكنى لا أريد أن تمرض ، فكفاك أكلاً ، وأسرع إلى مساعدة ديزى فى صنع فطائرها الصغيرة .

ويتلكأ ديمى فى الخروج ، ثم لا يلبث أن يؤنبه ضميره ، فينصرف من المطبخ ، لينتصر على ماما فى أول فرصة مواتية ، بحيلة جديدة أو بمساومة ماكرة .

وبعد أن تطمئن ميج على الفطائر ، تقود الطاهيين الصغيرين إلى الدور العلوى ، وتقول لهما :

ـ لقد كنتما كطفلين مطيعين ، ولذلك سألعب معكما أى لعبة تريدانها .

ويسأل ديمى وقد لمعت فكرة فى ذهنه :

ـ صحيح يا ماما ؟

وتجيب الأم الساذجة ، وهى تظن أنه لن يطالبها ـ على أسوأ الفروض ـ بأكثر من أن تغنى معه « ثلاث قطيطات صغيرات » ست أو سبع مرات :

ـ صحيح ، فاطلبا ما شئتما .

وينتهز ديمى هذا المأزق فيقول بهدوء :

ـ إذاً هيا بنا يا ماما نعود إلى أكل الزبيب !

وكانت الخالة « دودو » صديقة الطفلين وموضع ثقتهما ، فإذا ما اشترك ثلاثتهم فى اللعب ، قلبوا البيت رأساً على عقب ، ولم تكن الخالة آمى عندهم سوى اسم لا مدلول له ، أما الخالة بث ، فقد اختفى اسمها بالتدريج ، وتحولت على مضى الأيام إلى ذكرى سارة غامضة . وظلت الخالة « دودو » مخلصة فى صداقتها للطفلين ، حتى جاء مستر بايرد ، فشغلت عن اللعب معهما ، مما أورثهما الحزن والكآبة . فهذه ديزى التى كانت تجول هنا وهناك سعياً وراء القبل الحنونة ، قد فقدت خير عملائها ، وأدرك ديمى بذكائه أن الخالة « دودو » أصبحت تفضل اللعب مع الرجل بايرد ، فتألم لذلك غاية الألم ، ولكنه آثر أن يخفى ألمه فى نفسه ، خشية أن يفقد محبة « الرجل الدب » الذى يخفى فى جيوبه كنوزاً من الحلوى ، ويملك ساعة يستطيع أن يأخذها منه وقتما يشاء ، ويلعب بها كيفما أراد . وقد يظن بعض الناس أن مستر بايرد يرشو الصبى بهذه الحريات ، ولكن ديمى لم ير الأمر على هذه الصورة ، فواصل رعايته للرجل الدب فى بشاشة لا تخلو من بعض التحفظ ، أما ديزى فقد منحته حبها بعد زيارته الثالثة ، وكانت ترى فى كتفيه عرشاً تعتليه ، وفى ذراعيه ملجأ تلوذ به ، وفى هداياه كنوزا لا نهاية لها .

وأحياناً ما يصاب الرجال بحب مفاجئ للأطفال الذين ينتمون إلى حبيباتهم ، ولكن هذا النوع من الحب المغرض لا يخدع أحداً ، فالناس يرون الزيف بسهولة ، وحتى أصحاب الحب هذا لا يلبثون أن يضيقوا

ذرعاً بمن كانوا يصطنعون حبهم من الأطفال ، ولكن حب مستر باير ظل بإخلاصه حيًّا ، فقد كان الرجل بطبعه مشغوفاً بالأطفال ، يحب مجالستهم وملاعبتهم ، ويجد لذة فى تتبع انفعالات الحزن والفرح فى نفوسهم ، وتباين آثارها فى وجوههم .

وكانت مشاغل باير تمنعه من الحضور فى الصباح ، ولكنها لم تكن تعوقه عن أداء واجبات الزيارة فى المساء . وكان إذا ما حضر بادر بالسؤال عن مستر مارش كأنه جاء خصيصاً من أجله . وانطلت الحيلة على الرجل الطيب ، وظل ممعناً فى وهمه ، حتى أدرك الحقيقة فجأة من إشارة عابرة قالها حفيده الذكى .

فقد حدث ذات ليلة أن حضر مستر باير كعادته ، وبينما هو يسير نحو غرفة المكتبة ، استوقفه فجأة منظر مدهش ، إذ كان مستر مارش راقداً على الأرض وساقاه مرفوعتان فى الهواء ، وبجانبه يرقد ديمى فى شغل شاغل بتقليد جده . وانهمك الاثنان فى تمرينهما ، فلم ينتبها إلى وجود الاستاذ ، حتى ضحك هذا عالياً ، وصاحت چو فى استنكار :

— أبى ! أبى ! إن الأستاذ هنا .

وأنزل الأب ساقيه ، ورفع رأسه الأشيب ليقول فى وقار :

— مساء الخير يا مستر باير ، اسمح لى بلحظة ، حتى نتم درسنا والآن يا ديمى ، ارسم الحرف واذكره .

وبعد محاولات رسم الطفل برجليه رقم « سبعة » ثم قال بسرور :

— أنا أعرفه ! « ڤى » ، إنه حرف « ڤى » يا جدى .

وضحكت چو ، وبينما نهض الأب على قدميه ، وراح ديمى يحاول أن يقف على رأسه ، علامة ابتهاجه بانتهاء الدرس . قال مستر بايبر للطفل وهو يرفعه عن الأرض :

— وما فعلت اليوم يا طفلى العزيز ؟

قال :

— ذهبت لأرى مارى الصغيرة .

سأله بايبر :

— وماذا فعلت هناك ؟

قال ديمى بمنتهى الصراحة :

— قبلتها !

فسأله مستر بايبر محاولا أن يستكمل اعترافات المذنب الصغير ، الذى وقف على ركبتيه وأخذ يبحث فى جيب سترة الأستاذ :

— نشاط مبكر ! وماذا فعلت مارى الصغيرة ؟

قال ديمى مسروراً بقطعة الحلوى التى تملأ فمه :

— اغتبطت وقبلتنى بدورها ، فاغتبطت أنا أيضاً . وهكذا يحب الأولاد الصغار البنات الصغار . أليس هذا جميلاً ؟

فقالت چو وهى تستمتع بمجون الطفل مثل استمتاع الأستاذ به :

— من الذى وضع هذا فى رأسك أيها الكتكوت الماكر ؟

وظن ديمى أنها تسأله عن قطعة الحلوى ، فأخرجها على لسانه ، وقال :

— إنها فى فمى لا فى رأسى !

فقال باير :

— لاتنس أن تحتفظ ببعض الحلوى لصديقتك الصغيرة ، فالحلوى للحلو أيها الرجل الصغير !

وقدم الأستاذ بعض الحلوى لچو ، وفى عينيه نظرة جعلتها تظن أن الشيكولاته رحيق الآلهة ! ولم تفت معانى ابتسامتها عن عينى ديمى الذكى ، فقال يسأل الأستاذ بصراحة :

— وهل يحب الفتيان الكبار الفتيات الكبيرات أيضاً يا أستاذ ؟

ولم يكن من طبع الأستاذ أن يكذب ، فأجاب بكلام غامض مقتضب لفت نظر مستر مارش ، وجعله يترك فرشاة الملابس التى كان يحملها فى يده ، وينظر إلى وجه چو مليًّا ، ثم يغرق فى كرسيه ، وقد بدا له أن الكتكوت الماكر قد نبه ذهنه إلى فكرة جديدة ، فيها من الحلاوة ما فيها من المرارة .

وتواردت على ذهن ديمى بعد ذلك أسئلة كثيرة ، لم يجد لها إجابات شافية : لماذا لم تنهره الخالة دودو وتهزه كعادتها بعنف عندما وجدته ، بعد ما قال بنصف ساعة ، وهو يعبث فى خزانة الخزف ! ولماذا ضمته إلى صدرها وقبلته حتى كادت تعصره وتزهق أنفاسه ؟ ولماذا كافأته بقطعة كبيرة من الخبز والمربى ؟

وظلت هذه المشاكل تحير ذهن ديمى ، حتى يئس من حلها ، فتركها إلى الأبد بدون حل .

الفصل السادس والأربعون

تحت المظلة

فى الوقت الذى كان فيه لورى وآمى يذرعان الغرف ذهاباً وإياباً فوق الأبسطة المخملية ، وهما يرتبان منزل الزوجية الجديد ، ويضعان خطط مستقبلهما السعيد ، كان باير وچو يستمتعان بنزهات من طراز مختلف ، على طول الطرق الموحلة والحقول الغدقة .

كان الوصول إلى بيت ميج له طريقان ، واحتارت چو أيهما تسلك ، ففى كل مرة سارت إلى زيارة أختها فى أحدهما ، لقيت الأستاذ إما ذاهباً

أو عائداً . قالت لنفسها ذات يوم :

— لقد اعتدت أن أسير إلى بيت ميج كل مساء ، فلماذا أعدل عن رياضتى هذه ، لا لسبب إلا أن الأستاذ يتمشى بدوره فى ذات الطريق ؟

وكان من عادة الأستاذ أن يسير مسرعاً ، لايبدو عليه أنه يراها حينما يصبح على بعد خطوات قليلة منها ، كأن نظره الضعيف لا يمكنه من تمييزها إلا فى اللحظة الأخيرة . . ويسألها عن وجهتها ؛ فإن كانت ذاهبة إلى ميج ، قال بأن لديه هدايا صغيرة للأطفال يحب أن يعطيها إياها ، وإن كانت راجعة إلى بيتها ، ادّعى أنه — بعد أن انتهى من رياضته عند النهر — كان فى نيته أن يزورهم ، ما لم يكونوا قد ملوا كثرة تردده .

ولم يكن أمام چو ، إزاء هذه الظروف ، إلا أن تجيبه بلطف وتدعوه إلى رفقتها ؛ وإذا كانت چو قد ملت من زياراته ، فقد أخفت ذلك فى مهارة ، بل إنها كانت تغالى فى العناية بإعداد القهوة بعد العشاء ، لأن فردريك . . أعنى بايير لا يحب الشاى ! !

ولم يمض الأسبوع الثانى إلا وقد اتضح الموقف لجميع أفراد الأسرة ، ولكنهم أغمضوا عيونهم عن التطورات التى طرأت على وجه چو ، فلم يسألها واحد لماذا تغنى أثناء عملها فى البيت ، أو لماذا تمشط شعرها ثلاث مرات يومياً ، أو لماذا تعود من رحلاتها المسائية مشرقة الوجه ، بارقة العينين ! ولم يشك أحدهم فى أن مستر بايير يقصد بمناقشته الفلسفية مع الأب ، تلقين البنت دروساً فى الغرام .

ولم تستطع چو ، بحكم طبعها الجامح ، أن تسلم بالحب لأول وهلة ، ولذلك جاهدت ما وسعها فى إخفاء عواطفها ، فلما لم توفق ، اضطربت حياتها نوعاً ما .كانت فى ذعر شديد من أن يسخر الناس منها إذا استسلمت بعد أن أعلنت مراراً أنها استقلالية لا يمكن أن تخضع لمؤثر . كانت تخاف لورى أكثر من أى شخص آخر ، ولكن الفتى الحكيم أخذ بنصائح آمى ، وتصرف فى أدب ولباقة ، فلم يتحدث عن بايز مطلقاً ، ولم يصفه علناً « بمستر بايز العجوز الممتاز » ، أو يغيظها بالإشارة إلى ما طرأ عليها من تحسن ، بل لم يبد عجباً لتردد الأستاذ بايز كل مساء تقريباً على أسرة مارش . كان يتذرع بالصمت أمام چو ، ويحتفظ بآرائه لحين يخلو بزوجته ، فيبدى لها سروره العظيم بتحسن نفسية أختها ، ويتطلع بشوق إلى اليوم الذى يستطيع فيه أن يهديها درعاً من الصفيح ، منقوشاً عليها صورة دب ، لتتخذها رمزاً للعائلة .

واتخذ الأستاذ سمة العشاق ، فكان يتردد على بيت مارش كل مساء خلال أسبوعين ، ثم غاب ثلاثة أيام كاملة ، لم يظهر له فيها أثر . وأثار انقطاعه اهتمام الأسرة ، وبدت چو فى أول الأمر مفكرة شاردة الذهن ، ثم تملكها الغضب بعد ذلك ، فقد خيل إليها أنها خاتمة قصة حبها وأسفاه.

وذات مساء تأهبت چو للخروج ، ووقفت تنظر إلى البوابة بمنتهى الأسى ، ثم قالت تحدث نفسها :

ــ لا شك أنه سئم الانتظار ، فعاد فجأة من حيث أتى ، وهذا

لايهمنى بطبيعة الحال ، ولكن كان حرياً به أن يسلك مسلك السيد المهذّب ويودعنا قبل رحيله .

قالت لها أمها ، وقد لاحظت أنها ترتدى قبعتها الجديدة :

ــ أرى أن تأخذى مظلة معك ، فالجو ينبئ بالمطر ياعزيزتى .

قالت چو وهى تثبت رباط القبعة أمام المرآة ، لتتحاشى نظرات أمها :

ــ سمعاً وطاعة يا أماه ، إنى ذاهبة لشراء بعض الورق ، فهل تريدين شيئاً من المدينة ؟

قالت :

— نعم أريد قطعة من التُّل المنقوش ، ودستة إبر نمرة تسعة ، ومترين من الشريط البنفسجى الرفيع ، ولكن ، هل انتعلت حذاءك السميك وارتديت ملابس ثقيلة تحت معطفك ؟

أجابت چو وهى شاردة اللب :

— أظن ذلك .

قالت الأم :

— إذا تصادف وقابلت مستر باير ، فادعيه لتناول الشاى معنا ، لأنى مشتاقة لرؤية هذا الرجل العزيز .

ولم تحر چو جواباً ، واكتفت بقبلة أودعتها خد أمها ، ثم انصرفت مسرعة ، وقلبها الحزين يفيض بالشكر لهذه العزيزة التى تقدر إحساسات ابنتها تمام التقدير . قالت چو تحدث نفسها :

— ما أشد عطفها علىّ ! ترى ماذا تفعل من ليس لها أم تعينها على احتمال متاعب الحياة ؟ !

لم تكن محلات بيع الأقمشة فى نفس الحى الذى تقوم فيه المصارف ودور المحاسبة والبيع بالجملة ، والذى يزدحم بالرجال وأصحاب الأعمال ! ومع ذلك وجدت چو نفسها — قبل شراء الأشياء المطلوبة منها — تسير على مهل فى هذا الحى من المدينة ، كأنما تنتظر شخصاً بالذات . وأخذت تتسلى على طول الطريق بالتطلع إلى واجهات حوانيت الأصواف والآلات

الهندسية ، وتبدى اهتماماً بأشياء لا تمت إلى جنسها بصلة ، وتحشر نفسها بين البضائع والبراميل التى يفرغها العمال من العربات ، حتى كادت تقع عليها إحدى البالات المحمولة . وكان رجال الأعمال يسرعون الخطى فيدفعونها فى غير اهتمام ، فإذا نظرت إليهم أبدوا دهشتهم لوجود فتاة مثلها فى هذا المكان . ووسط هذا الزحام ، أحست بقطرات من المطر تتساقط على خدها ، فانتقل تفكيرها من آمالها إلى أشرطة القبعة التى كاد يفسدها المطر . ولما كانت امرأة أولاً ، ثم عاشقة ثانياً ، فقد رأت أن تنقذ قبعتها من التلف ، ما دامت عاجزة عن إنقاذ قلبها من الحب الفاشل . وتذكرت مظلتها الصغيرة التى نسيت فى عجلتها أن تأخذها معها ، ولم تجد فائدة من التأسف عليها ، فالموقف يضطرها إلى الإسراع باقتراض واحدة ، وإلا غرقت فى هذا المطر المنهمر ، وتطلعت إلى السماء ثم إلى الشرائط القرمزية ، وقد اغمق لونها بقطرات المطر ، ثم ألقت نظرة على الطريق الموحل ، وقالت لنفسها وهى تقف أمام مخزن للحديد ، كتب على واجهته « هوفمان وشفارتز وشركاؤهما » :

ــ هذا أقل ما أستحق ، فما الذى يجعلنى أرتدى خير ثيابى ثم أجئ إلى هذا المكان أملا فى رؤية الأستاذ ؟ ! واخجلاه منك يا چو ! لا ، لا يليق بك أن تستعيرى مظلة من هذا المستودع ، أو تسألى فيه عن الأستاذ ، والواجب أن تمضى إلى شراء ما كلفت به ، وإذا تعرضت للموت أو فسدت قبعتك ، فهذا جزاؤك الحق ! !

وحين انتهت من تأنيب نفسها ، اندفعت مسرعة إلى الطريق ، حتى كادت تدهسها إحدى العربات ، لولا أنها سقطت بين ذراعى سيد وقور عجوز ، قال وهو فى غاية من الحرج : « إنى آسف يا سيدتى ! » . وكبحت جو غضبها واعتدلت فى سيرها ، وقد وضعت منديلها فوق قبعتها ، وأسرعت وقد ازداد البلل تحت قدميها ، وأخذت مظلات السائرين تتشابك فوق رأسها . واستوقفت أنظارها مظلة زرقاء باهتة ، طال بقاؤها فوق رأسها ، ولم تتحرك بعيداً كغيرها ، فرفعت بصرها إلى صاحبها ، فإذا بها ومستر باير وجهاً لوجه .

قال :

– أردت أن أعرف تلك السيدة التى تذرع الطريق فى شجاعة ، تحت أنوف الخيول المتواثبة ، ووسط الوحول المتراكمة ؛ فماذا جاء بك إلى هنا يا صديقتى ؟

– جئت أتسوق بعض الأشياء .

وابتسم مستر باير ، وهو ينظر يمينا إلى الشركات وبيوت المال ، ويساراً إلى محلات بيع الجلود بالجملة ؛ ولكنه قال يستدرك فى أدب :

– أنت لا تحملين مظلة ، فهل تسمحين لى أن أرافقك وأحمل لفائفك عنك ؟

قالت وقد اصطبغ وجهها بلون أشرطتها القرمزية :

— نعم وأشكرك .

وراحت تسائل نفسها : ترى ماذا يظن بها الأستاذ ؟ . ولكنها لم تفكر فى هذا السؤال طويلا ، إذ لم تمض دقيقة حتى وجدت نفسها تتأبط ذراعه وقد خامرها شعور بأن الشمس قد أشرقت فجأة بشكل عجيب ، وأن الدنيا قد عادت إلى صفائها ، وأن امرأة فى قمة السعادة تسير تحت الأمطار فى ذلك اليوم . ورأت الأستاذ يطيل النظر إليها ، ولم تكن قبعتها واسعة الحافة لتخفى وجهها عنه ، فخشيت أن يقرأ فى بريق عينيها سر سعادتها ، قالت بسرعة :

— ظننت أنك سافرت !

فنظر إليها فى عتاب وقال :

— وهل تظنيننى الرجل الذى يسافر قبل أن يودع من أغرقوه بعطفهم وحنانهم ؟

وشعرت چوانها أحرجته بكلامها ، فقالت من صميم قلبها :

— لا ، ولكنى أعرف بمشغولياتك الكثيرة ، والحقيقة أننا افتقدناك جميعاً ، خصوصاً أبى وأمى .

قال متسائلا :

— وأنت ؟

قالت :

— يسرنى أن أراك يا سيدى .

وآثرت چو أن تجعل صوتها هادئاً لا أثر للانفعال فيه ، فجاء جوابها البارد خلواً من العاطفة ، ونزلت كلمتها الأخيرة « ياسيدى » على قلب الأستاذ كالثلج ، فغاضت الابتسامة من وجهه ، وقال فى وقار :

ــ أشكرك ، وسوف أزوركم مرة أخرى قبل رحيلى .

قالت :

ــ إذاً فأنت راحل حقاً ؟

قال :

ــ لقد انتهيت من أعمالى هنا ، ولم يبق ما يسوّغ بقائى .

وأحست چو بما فى إجابته المقتضبة من خيبة أمل ومرارة ، فقالت :

ــ آمل أن تكون قد وفقت فى مهمتك ؟

قال :

ــ أظن ذلك ، فقد وجدت طريقاً أكتسب منه عيشى ، وأساعد به الأطفال الصغار .

قالت تسأله بلهفة :

ــ حدثنى عن هؤلاء الأولاد ، فانى أحب أن أعرف عنهم كل شئ .

قال :

ــ عطف منك أن تهتمى بهم ، ويسرنى أن أحدثك بتوفيق ، فقد وجد لى أصدقائى وظيفة فى إحدى الجامعات ، لأدرس كما كنت أفعل فى بلادى ، وبذلك أكتسب ما يوفر الرغد لفرانز وإميل . أليست هذه

نعمة يجب أن أحمد الله عليها ؟

صاحت چو ، وكأن سعادة فرانز وإميل هى سر فرحها الظاهر :

ـ دون شك ! ما أجمل أن تمارس العمل الذى تحبه ، وتستطيع فى ذات الوقت أن نراك أنت والأولاد .

قال :

ـ أخشى أننا لن نتقابل كثيراً ، فالوظيفة فى جامعة بغرب أمريكا .

وأفلت ثوبها من يدها ، وهبطت أطرافه إلى الوحول المتراكمة فى الطريق ،وقالت كمن لا تهتم بثيابها ولا بمصيرها :

ـ أبعيداً إلى هذا الحد ؟ ؟

وكان الأستاذ ضليعاً فى كثير من اللغات ، اللهم إلا لغة أفكار النساء ، وكان يطرى نفسه لمعرفته التامة بشخصية چو ، ولكن الحيرة غلبته فى هذا اليوم أمام المتناقضات التى لمسها فى صوتها ، فبسرعة توالت عليها عواطف متباينة وأمزجة مختلفة ، وفى خلال نصف ساعة تقلبت بين ست أحوال على الأقل : فقد بدت الدهشة عليها عند ما قابلته ، مع أنها جاءت إلى هذا المكان بحثاً عنه ؛ ولما أعطاها ذراعه استندت إليه بمنتهى السعادة والغبطة ، وعند ما سألها إذا كانت قد افتقدته لطول غيابه عنها ، أجابته بفتور حطم قلبه ، وحين أخبرها بالوظيفة هللت وصفقت طرباً ؛ فهل كان سرورها من أجل الأطفال وحدهم ؟ ولما سمعت أخيراً بمقر عمله الجديد أسفت بلهجة يائسة ، أحيت فى نفسه ميت الأمل . ثم لم تكد

تمضى دقيقة ، حتى أذهلته بقولها فى رنة عملية بحتة :

— من هنا سأشترى لوازمى ، ولن أغيب طويلاً فى الحانوت ، فهل تأتى معى ؟

وكانت چو تفخر بمهارتها فى التسوق ، وقد أرادت فى هذه المرة أن تعطى لرفيقها صورة حية عن دقتها وسرعتها فى ذلك . ولكن القلق النفسى الذى كانت تعانيه جعل الأمور تسير على غير هواها : إذ أسقطت دستة الإبر ، ولم تتذكر أن أمها تريد تـُلاً منقوشاً إلا بعد أن قص البائع القماش ، وعند الحساب أخطأت فى دفع الثمن ، ثم حاولت أن تستر اضطرابها بشراء الأشرطة ، ولكنها مع الأسف طلبتها من بائعة الأقمشة الصوفية ، فتعقد الموقف أكثر وأكثر .

ووقف مستر باير يرقبها وهى تمعن فى خجلها وتزداد فى ارتباكها ، وفجأة زايلته حيرته ، واطمأنت نفسه ، إذ بدأ يدرك أن النساء كالأحلام يفسرن بعكس ما يبدو منهن .

وعندما خرجا إلى الطريق ، وضع باير اللفافة تحت إبطه فى غبطة ، وخاض الوحول وبرك الماء فى متعة . وحين وصل إلى واجهة حانوت يبيع الفاكهة والزهور قال لها :

— أتسمحين بأن أشترى للأطفال بعض الأشياء الصغيرة ، لنحتفل الليلة فى بيتكم بزيارتى الأخيرة ؟

وتجاهلت چو الجزء الأخير من عباراته ، وقالت وهى تستنشق عبير

الأزهار بسرور بالغ :

ـ وماذا تشترى لهما ؟

قال مستر باير فى لهجة أبوية :

ـ أيحبان البرتقال والتين ؟

قالت :

ـ ليس أحب إليهما منهما إذا استطاعا الحصول عليهما !

سألها :

ـ وهل تحبين الجوز ؟

قالت :

ـ مثل السنجاب !

قال :

ـ وما رأيك فى عنب هامبورج ؟ إنه يذكرنى ببلادى ، وسنشرب نخبها الليلة .

وأسرف فى الشراء ، فقطبت جو جبينها ، وسألته لماذا لا يعقد الموقف أكثر بشراء صندوق من البلح وبرميل من الزبيب المجفف وزكيبة من اللوز وبذلك يأتى على البقية الباقية له من المال ؟ وأخرجت كيسها تهم بالدفع ، فرده إليها ، واشترى بنقوده عدة أرطال من العنب ، وباقة من الأزهار الجميلة ، وإناء مليئاً بالعسل . ودس مشترياته فى جيوبه ، وترك لها الباقة تحملها ، ثم نشر مظلته القديمة واستأنفا مسيرهما مرة أخرى .

قال بعد أن قطعا مرحلة من الطريق المبلل :

– ألا تولينني معروفاً يا مس مارش ؟

قالت ، وقد تسارعت دقات قلبها وعلت ، حتى خشيت أن يسمعها :

– بكلّ سرور .

قال :

– لم يبق لى وقت طويل فى هذا المكان ، ولدى من الجرأة ما يسمح لى بالكلام رغم هذه الأمطار المنهمرة .

قالت جو ، وهى تضغط بيدها على الزهور حتى كادت تفسدها :

– نعم يا سيدى .

قال :

– أريد أن أبتاع ثوباً للصغيرة « تينا » ، لأنى أجهل الناس بهذه الأمور ، وأخاف أن أشتريه وحدى .

قالت ، وقد نزل كلامه على قلبها بارداً كالثلج :

– نعم ، يا سيدى .

قال :

– ونشترى أيضاً شالا لأمّ تينا ، فهى فقيرة ومريضة وزوجها مثقل بالهموم .

وسكت قليلاً ، ثم قال :

– نعم شال سميك خير ما تهدى به هذه السيدة المريضة .

قالت چو :

ــ بكل سرور يا مستر باير .

وقالت تحدث نفسها :

ــ إنى أتعجل الأمور والمسكين يزداد فى كل لحظة رقةً ولطفاً .

وهزت رأسها كأنها تطرد الأفكار عنها ، ثم دخلت المحل بنشاط ، لتشترى حاجات مستر باير . وترك الرجل الأمر كله لها ، فاختارت ثوباً جميلا لتينا ، ثم طلبت الشيلان ، وكان البائع رجلا متزوجاً ، فتلطف بمن ظنهما زوجين جاءا لشراء لوازم الأسرة . قال البائع وهو ينشر شالاً رمادىّ اللون على كتف چو :

ــ أعتقد أن سيدتى تفضل هذا ، فهو نوع ممتاز وصنعه دقيق ولونه أنيق .

وكانت فرصة تخفى بها انفعالها ، فقالت وهى تولى ظهرها لمستر باير ، حتى يرى الشال جيداً :

ــ أيرضيك هذا يا مستر باير ؟

وتشاغلت بالتقليب فى البضائع ، فقال :

ــ إنه ممتاز جداً ، فلنأخذه .

وقال بعد أن دفع الثمن :

ــ هل نذهب الآن إلى البيت ؟

قالت فى صوت حزين :

— نعم ، فالوقت متأخر وأنا متعبة جداً .

وخيل إليها أن الشمس غابت فجأة ، واكتست الدنيا بكآبة الغسق ، وبدت الأرض موحلة والتعاسة شاملة . وسرت البرودة فى قدميها لأول مرّة ، وأصاب الصداع رأسها ، وتجمد قلبها كقطعة ثلجها الألم .

إن مستر بايرن راحل عنها ، وهو لا يعتبرها أكثر من صديقة ، وقد أخطأت تقدير شعوره نحوها ، وخابت آمالها ، فخير لها أن تنهى الأمور بسرعة ، وتخرج نفسها من ظلام الأوهام .

جالت هذه الخواطر برأسها حين اقتربت منهما مركبة عامة ، فأسرعت چو تشير إليها بالوقوف فى عجلة أطارت الباقة من يدها ، فوقعت الزهور على الأرض وانحلّ رباطها وفسدت أوراقها . وأشار الأستاذ إلى المركبة بمواصلة سيرها ، ثم انحنى على الأرض يجمع الزهور المتناثرة ، وقال :

— هذه السيارة لا تمر بحيّكم .

قالت ، وهى تسبل عينيها لتخفى دموعها المتساقطة ، إذ كانت تفضل الموت على أن تمسح عبراتها علناً :

— متأسفة ! لم أتبين رقمها بوضوح ، ولا يضيرنى أن أمشى ، فأنا معتادة على خوض الوحول .

وأدارت رأسها زعماً عنها ، فقد رأى مستر بايرن العبرات المنهمرة على خديها ، فمس حزنها شغاف قلبه . قال يسألها فجأة فى عطف أثر فى

نفسها أشد التأثير :

— لماذا تبكين ، يا أعز الناس ؟

ولو كان لچو سابق خبرة بهذه المواقف ، ما استعصى عليها أن تنكر بكاءها ، وتدعى أن البرد يوجع رأسها ، أو تختلق عذراً آخر مناسباً ، ولكنها لم تفعل أمراً من هذا ، إنما قالت وهى تنشج :

— لأنك سترحل عنى !

صاح مستر بايرن ، وهو يضم ذراعيه رغم ما يحمله من مظلة ولفائف :

— يا إلهى ! هذا عظيم ! ليس عندى يا چو ما أهديكه سوى حبى ، لقد جئت لأرى إن كنت تهتمين بأمرى ، وانتظرت لأتأكد من أنك تعتبرينى أكثر من صديق ، فهل أنا كذلك ؟ وهل فى مقدورك أن تفسحى من قلبك ولو مكاناً صغيراً لفريتز العجوز ؟

قالت چو :

— نعم !

وأسعده ردها القصير ، وأرضاه أنها عقدت يديها حول ذراعه ، ورفعت إليه وجهاً يفيض بالثقة والهناء ، كأنها تشير بذلك إلى عزمها على السير بجانبه دائماً فى طريق الحياة ، وأن مظلته خير مأوى لها مادام ممسكاً بها .

كانت خطبة تكتنفها المتاعب حقاً : فلم يكن فى مقدور مستر بايرن أن يركع أمامها فى الوحول ، ولا كان يستطيع أن يحتضنها إلا مجازاً ،

بسبب ما يحمله فى كلتا يديه من مظلة ولفائف . كذلك لم يكن من اللائق أن يطارحها الغرام على قارعة الطريق ، وإن كان على وشك أن يفعل ذلك . . ولم يبق أمامه إلا حل واحد يعبر به عن نشوته ، وهو أن ينظر إليها بكل ما فى قلبه من حب وإخلاص ، اكتسى معهما وجهه بزهوة الانتصار ، حتى خيّل لمن ينظر إليه ، أن ألوان قوس قزح كلها ، تظهر خلال قطرات المطر العالقة فوق لحيته . ولو لم يكن يحبها مخلصاً ، ما خطبها فى هذه اللحظة بالذات ، فقد كان حالها يرثى له : ثيابها رثة ، وحذاؤها موحل حتى كعبيه ، وقبعتها مشوشة مشوهة . ولكن مستر بايز ، لحسن الحظ ، كان يراها أجمل امرأة فى الوجود ، وكانت هى أيضاً تراه أقرب إلى الآلهة منه فى أى وقت مضى على الرغم من قبعته المتقلصة بمياه الأمطار ، وقفازه الممزق عند أطراف أصابعه كلها .

وظن المارة أنهما زوجان من المجانين ، فقد نسيا تماماً أمر المركبات العامة وإختارا أن يسيرا فى الطريق متمهلين ، رغم حلكة الغسق وشدة الضباب . وفى الواقع كان رأى الناس لا يهمهما فى غمرة سعادتهما بهذه الساعة المجيدة التى لا تأتى فى العمر إلا مرة واحدة . تلك الساعة التى تخلع على المسنين شباباً ، والدميمين جمالا ، والفقراء ثروة ، وتضىء القلوب البشرية بنور من السماء .

وكان الأستاذ يبدو كأنه غزا الدنيا بأكملها ، وحصل على نعم العالم بأسرها . وكانت چو تسير بجانبه كأنه مكانها الوحيد فى الحياة ، وراحت

تسائل نفسها : كيف كان يمكنها أن تختار زوجاً غيره ! وكانت بطبيعة الحال هى البادئة بالحديث ، بعد الانفعالات الصامتة ، التى تلت موافقتها على الزواج منه ، قالت :

ــ فريدريك ، لماذا لم . . ؟

فصاح الأستاذ ، وقد وقف وسط بركة من مياه الأمطار ، يرمقها سعيداً :

ــ يا إلهى! إنها تنادينى بالاسم الذى لم أسمعه من أحد منذ ماتت أمى .

قالت :

ــ إنى أناديك بهذا الاسم دائماً بينى وبين نفسى ، ولقد انزلق به لسانى ، ولن أعيده إذا لم تكن تحبه .

قال :

ــ أحبه ! ؟ إنه أحلى ما يتردد فى أذنى ، خاطبينى بلا كلفة ، وثقى أنى أحب لغتك مثل لغتى الألمانية تماماً .

قالت :

ــ إنك تحب الكلمات العاطفية . أليس كذلك ؟

قال فى لهجة أقرب إلى الطالب العاشق منها إلى الأستاذ الرزين :

ــ العاطفية ؟ بلا شك ! فنحن الألمان نؤمن بالعاطفة ، لأنها تبعث فينا الشباب الدائم . خاطبينى بلغة العاطفة يا أعز المخلوقات ، فمعانيها أعظم من أن تقدّر .

سألته چو فى خجل :

ــ حسناً ، لماذا لم تخبرنى بكل هذا منذ وقت طويل ؟

قال :

ــ ليس أحب إلىّ من أن أكشف لك عن كل ما فى قلبى ، بعد أن أصبح ملكك . انظرى يا چو العزيزة . . وياله من اسم لطيف حبيب كنت أريد مصارحتك بعواطفى يوم رحيلك من نيويورك ، ولكنى خفت أن تكونى مخطوبة لصديقك الوسيم ، فسكتّ عن الكلام . . أكنت توافقين او خطبتك فى ذلك اليوم ؟

قالت :

ــ لست أدرى ، وأعتقد أننى كنت أرفض ، إذ لم يكن لى قلب حين ذاك .

قال :

ــ بل كان قلبك نائماً حتى أتى أمير أحلامك من غياهب الغابة فأيقظه ! حسناً . . حسناً . . ما الحب إلا للحبيب الأول ! . . وهذا أكثر مما كنت أنتظر .

قالت چو تصحح له الأوضاع :

ــ نعم ، ما الحب إلا للحبيب الأول ، واطمئن إلى أننى لم أحب سواك ، أما تيدى فكان صبيًّا صغيراً ، ولم يلبث أن نسى غرامه بى .

قال :

— يسعدنى غاية السعادة أن أسمع هذا الكلام الجميل ، ولست أشك فى أنك ستمنحيننى حبك كله . لقد طال الانتظار بى ، حتى صرت أنانيًّا كما ترين يا أستاذتى .

صاحت چو مبتهجة باللقب الجديد :

— ما أحب ذلك إلى نفسى .

ثم أردفت تسأله :

— لماذا جئت وأنا فى مسيس الحاجة إليك ؟

وأخرج مستر بارير من جيبه ورقة صغيرة بالية ، وقال :

— هذا ما أتى بى إليك .

وعرفت چو فى الورقة قصيدة كانت إحدى المجلات قد نشرتها لها فى يوم من الأيام ، ثم قالت فى حيرة مما يقصد :

— وكيف جاءت بك هذه القصيدة ؟

قال :

— عثرت عليها بطريق المصادفة ، وعرفتها من الأسماء والحروف الأولى التى وقعت بها ، وكان فيها بيت واحد شعرت أنه دعوة توجهينها إلىّ ، فاقرئى القصيدة ، وحاولى أن تخرجى البيت إن استطعت .

ومرت چو بسرعة على أبيات قصيدتها ، التى جاء فيها :

« بين ثنايا المخلفات »

« أربعة صناديق صغيرة ، كلها فى صف واحد

أبلاها الزمن وعلاها الغبار
صنعت وملئت من وقت بعيد
عبأها شباب اليوم ، عندما كانوا صغاراً
تدلت مفاتيحها الأربعة جنباً إلى جنب
فى أشرطة بهيجة ، أحال لونها الزمن
ربطتها أصابع الصغار فى زهو الطفولة
ذات يوم مطير فى العهد الخالى ،
وعلى كل غطاء اسم من أربعة
حفرته يد بريئة طاهرة .
وتحت الغطاء سجل خفىّ
يضم تاريخ « شلة » سعيدة
كم لعبت هنا ، وكم وقفت فى هدوء
تصغى لترديد نغم جميل
يأتى حيناً ويعود حيناً
مع مطر الصيف المنهمر .

وعلى أول صندوق اسم الجميلة ميج
فنظرت بحب إلى رباط الذكريات
وهو يضمها فى حنان

وقد عقدته بعنايتها المعهودة .
وكان سجلاً لحياة هادئة
فيه هدايا الطفلة والفتاة
لعروس فى ليلة الزفاف ،
وحذاء صغير وخصلة شقراء .
وخلا الصندوق من لعب الصغار
فقد أخذتها بعد طول الزمن
لتنعم بها ميج أخرى صغيرة
وتحييها من زوايا العدم .
أنا أعلم أيتها الأم السعيدة
أنك ما زلت ترددين نغم الطفولة
يعلو حيناً وينخفض حيناً
مع مطر الصيف المنهمر .

وعلى ثانى الصناديق اسم چو
وفيه ترقد مجموعة عجيبة :
عرائس بلا رءوس ، وكتب ممزقة ،
وطيور محنطة ، وأحياء قديمة ،
وتحف جاءتها من أرض الخيال

المحرمة إلا على أقدام الشباب .
مجموعة خلت من أحلام الزواج ،
وتصمنت ذكريات كلها عاطرة ،
قصائد لم تتم ، وقصص عابرة ،
ورسائل فى الربيع دافئة وباردة ،
ويوميات طفلة كلها عزم وأمل ،
وأفكار امرأة تعيش فى بيت وحيد
وتسمع أنغاماً حزينة تقول :
كونى خليقة بالحب ، يأتيك الحب
مع مطر الصيف المنهمر .

عزيزتى بث ، لن يبقى غبار
على الغطاء الذى يحمل اسمك
ستمسحه دموع تنساب من العيون
وتزيله أيد لن تنقطع عن زيارته .
لقد رسم الموت لنا قديسة مخلدة ،
أقرب إلى الآلهة منها إلى البشر ،
وما زلنا نحفظ لها — وعيوننا دامعة —
أجمل الذكرى فى هذا البيت الصغير :

جرس فضى لم يعد يدق
وعباءة صغيرة هى آخر ما ارتدت ،
وأغان كانت تنشدها بلا دموع
وهى حبيسة فى سجن الألم .
ستظل أغانيها هذه تمتزج بحنان
مع مطر الصيف المنهمر .

وعلى صفحة الغطاء الأخير وجدتُ
خرافة جميلة تحققت :
فارس رشيق على درعه نقش
اسم آتى بحروف زرقاء ومذهبة .
وفى داخل الصندوق شبكات رقيقة للشعور
وخُف بلته الأقدام الراقصة ،
وأزهار مجففة حفظت بعناية ، .
ومراوح ذهب عهدها انتهى .
وتمنيات تفيض بلهيب الجوى ،
وتحف صغيرة كان لها دورها
فى آمال الفتاة ومخاوفها وأخطائها .
سجل حافل لقلب عذراء ،

تتعلم الآن حكمة أعمق ،
وتسمع ترديد أنغام شجية
يصاحبها رنين أجراس الزفاف
مع مطر الصيف المنهمر .

أربعة صناديق صغيرة ، مصفوفة معاً ،
علاها الغبار ، وأبلاها الزمن ،
وأربع نساء تعلمن من السعد والألم
ما الحب ، وما العمل فى شرخ الشباب .
أربع أخوات افترقن لحظة ،
وعدن إلى الاجتماع ما عدا واحدة ،
خلدها الحب برباطه السحرى
وقرّبها إلى القلوب عما مضى .
ويوم تتكشف كنوزنا هذه
لعين الإله عز وجل ،
عساها تغنينا بخير الجزاء ،
وتحيل أعمالنا حسنات طيبات ،
فتدق موسيقى نفوسنا إلى الأبد
بقوة تحرك أعماق الروح
وتحلق سعيدة وهى تغنى

تحت شمس تخلد بعد المطر »

ج. م.

قالت چو ، وهى تمزق الوريقة التى احتفظ بها الأستاذ طول هذا الوقت :

ــ هذا شعر ردىء جداً ، ولكنه كان يعبر عن مشاعرى ذات يوم وكنت وحيدة أجلس فوق حقيبة قديمة أقرضه وأنا أبكى أحرّ البكاء ، وما كنت أتوقع أن يفضحنى بهذا الشكل .

قال مستر بايرباسماً ، وهو يرقب تطاير الأوراق الممزقة مع الهواء :

ــ لقد أدت القصيدة رسالتها ، فدعها تذهب ، وسأحصل على أخرى جديدة ، عندما أقرأ الكتاب الأسمر الذى تحتفظين فيه بأسرارك .

قلت لنفسى ، وأنا أقرأ هذه القصيدة : إنها وحيدة وحزينة ، وعزاؤها فى حب صادق ، وبقلبى منه ذخيرة وفيرة ، فلماذا لا أذهب وأقول لها : « إذا لم يكن هذا القلب بدلاً تافهاً لما أرجو أن أناله ، فخذيه بالله عليك » .

وهمست چو :

ــ وهكذا جئت لتجد أنه أثمن ما كنت أتمناه .

فصاح مستر بايرقائلا :

ــ لم أكن أجرؤ على هذا الظن فى البداية ، رغم ما استقبلتنى به من عطف وحفاوة ، ولكن سرعان ما انبعث الأمل فى نفسى ، فانتويت أن

أفوز بك ، ولومت فى سبيل ذلك . وهكذا فزت بك !

وكان يتكلم فى تحدّ ، كأنما الضباب الذى يحيط بهما حواجز عاتية ، إما أن يجتازها أو يهدمها .

واغتبطت چو كل الاغتباط ، وصممت أن تكون خليقة بفارسها ، رغم أنه لم يأتها على جواده وفى كامل عدته .

سألته بعد لحظة ، وهى تجد لذة بسؤاله عنها ، لتلقى إجابات ترضيها :

— ولماذا أطلت غيبتك عنى ؟

قال :

— كان رزقى ضعيفاً ، ولم يطاوعنى قلبى على حرمانك من بيتك السعيد ، قبل أن تطمئن نفسى إلى عمل مضمون ، ولم يتيسر لى هذا العمل إلا بعد وقت وجهاد . فهل كنت تتوقعين أن أطلب منك التضحية بما تعيشين فيه من رغد من أجل عجوز فقير مثلى ، لا يملك غير علمه القليل؟

قالت چو فى عزم :

— إنى سعيدة بفقرك ، وما كان يمكننى أن أحتمل زوجاً ثريًّا .

ثم قالت بصوت ناعم رقيق :

— لا تخف من الفقر ، فقد عرفته طويلاً ، حتى بت لا أخشاه ، ويسعدنى أن أشتغل من أجل من أحب . لست عجوزاً كما تقول ، فالأربعون زهرة العمر ، ولو كنت فى السبعين ما استطعت إلا أن أحبك !

واغرورقت عيناه بالدموع تأثراً . وود لو استطاعت يده أن تصل إلى المنديل ، ليمسح عبراته . ولكنه لم يجد إلى ذلك سبيلا ، فمدت چو يدها بمنديلها وجففت وجنتيه . ثم حملت عنه بعض اللفافات . وقالت ضاحكة :

ــ قد أكون عنيدة صلبة الرأى . ولكنى أحسن القيام بدور المرأة ، فرسالتها الأولى أن تجفف الدموع وتحمل الأعباء : وهأنذا أحمل نصيبى من الواجبين ، وسأحمل نصيبى أيضاً من أعباء الأسرة ، وأعمل لأسهم فى رزق البيت . فكر فى هذا الكلام واتخذ قراراً ، وإلا فلن أذهب معك أبداً .

وكان الحزم واضحاً فى كلماتها ، فقال وهو يسترد منها اللفائف :

ــ سوف نرى ! ولكن أتصبرين على انتظارى طويلا يا چو ؟ يجب أن أذهب أولا لأؤدى عملى وحدى ، وأساعد الأولاد ، فقد وعدت أمهم برعايتهم ، ولا أستطيع التخلى عنهم ولو من أجلك ؛ فهل تغفرين لى ذلك وتبقين سعيدة حتى أعود ؟

قالت :

ــ هذا أسهل ما يكون ، وما دمنا نتبادل الحب ، فكل صعب يهون . هذا إلى أنى ملزمة بأداء بعض الواجبات ، ولن تطيب لى حياة إذا أهملتها ، ولن أهملها حتى من أجلك ، فلا داعى إذاً للتسرع . اذهب إلى واجبك فى الغرب ، وسأبقى مع واجبى هنا . وعلينا أن نسعد بالأمل ، تاركين المستقبل لإرادة الله .

صاح الأستاذ ، وقد غلبته عواطفه :

— إنك تمنحيني الأمل والشجاعة ، وليس عندى ما أجزيك به سوى يدى الفارغتين وقلبي المفعم بحبك .

ولم يكن من طبع چو أن تتصرف بلباقة ، فما إن انتهى الأستاذ من كلامه ، وهما واقفان على درج البيت ، حتى وضعت يديها فى يديه ، وهمست فى أذنه برقة :

— لم تعد يداك فارغتين الآن !

ثم انحنت على رجلها فردريك تقبله تحت المظلة . وكان هذا تصرفاً لايليق ، ولكنها كانت قد سارت شوطاً بعيداً ، ولم يعد يهمها سوى

سعادتها الحاضرة ، وما كانت لتنزل عن الاستمتاع بهذه الفرصة النادرة ، حتى لو تحولت صفوف العصافير التى تتراقص فوق السور إلى آدميين .

والحق أن هذه الفرصة السعيدة ، التى توجت حياتها ، جاءت فى بساطة وسهولة ، فتحولت وحشة الليل وقسوة العاصفة ومرارة الوحدة ، إلى نور وضياء ، يغمر البيت الذى كان فى انتظارهما .

قالت جو لحبيبها ، وهى تقوده إلى داخل المنزل ، وتغلق الباب خلفه :

ـ أهلا بك . وعلى الرحب فى بيتك .

الفصل السابع والأربعون

الحصاد

مضت سنة كاملة ، كان الأستاذ وچو خلالها يعملان وينتظران ، يتحابان ويأملان ، يتقابلان بين حين وآخر ، ويكتبان رسائل مستفيضة قال عنها لورى إنها تسببت فى ارتفاع ثمن الورق. وبدأ العام الثانى فى جوّ من الحزن ، فشروعاتها لم تزدهر ، وماتت العمة مارش فجأة ، وقد حزن عليها جميع أفراد الأسرة ، رغم سلاطة لسانها ، فلما هدأت أحزانهم ، جدت عليهم أمور سارة ، إذ تركت العمة قصر « بلومفيد » لچو ،

فجاءت هبتها نعمة تمكن الفتاة الفقيرة من الاستمتاع بكثير من المسرّات.

وبعد مضى أسابيع ، جلس أفراد الأسرة يتحدثون فى هذا الموضوع ذات يوم ، فقال لورى :

— إنه بيت قديم جميل ، ولا شك أنك ستبيعينه بمبلغ محترم .

قالت چو بحزم :

— لا ، لن أبيعه .

قال :

— لا أظنك ستقيمين فيه ؟

قالت :

— بل سأقيم فيه .

قال :

— ولكنه بيت كبير جداً يا فتاتى العزيزة ، ولا بد من مال كثير للعناية به . فالمزرعة والحديقة يحتاجان وحدهما إلى رجلين أو ثلاثة . والزراعة ليست من اختصاص باير كما أعلم .

قالت :

— سيتدرب عليها إذا أردت .

قال :

— أو تأملين أن تعيشى من دخل هذا المكان ؟ حديثك عنه يجعلنى أتصوره جنة ، ولكنك ستجدين العمل بالغ المشقة . .

قالت وهى تضحك :

— وسيكون محصوله مجزياً .

سألها :

— ومن أين يأتى هذا المحصول المجزى ؟

قالت :

— من الأولاد ! فأنا أفكر فى فتح مدرسة للصغار ، تشبه فى روحها البيت ، وتتوافر فيها أسباب الراحة والسعادة ، وسأشرف عليها ، وأترك مهمة التدريس لفرتز .

وتوجه لورى بحديثه إلى الأسرة ، وقال يناشدهم الرأى ، وتكلم فى دهشة عظيمة :

— أهذا مشروعك يا چو ؟ إن له طابع چو من كل الوجوه !

فقالت مسز مارش بلهجة التأكيد :

— هذا مشروع يعجبنى .

وقال مستر مارش ، وقد وجدها فرصة ليجرب طريقته « السقراطية » فى تعليم النشء :

— وأنا أيضاً .

وقالت ميج ، وهى تربت بيدها على رأس ابنها المشغول بنفسه دائماً :

— ولكن . . . سيكون العبء ثقيلاً على چو !

وقال مستر لورنس ، وبنفسه رغبة فى معونة الحبيبين ، وإن كان

يخشى رفضهما . :

— ليس أكفأ من چو لهذا العمل ، وسوف تؤديه سعيدة راضية . . إنها فكرة عظيمة ، فحدثينا بتفاصيلها .

قالت چو :

— كنت واثقة من تأييدك ياسيدى أنت وآمى ، فإنى أرى الرضا فى عينيها ، رغم ما يبدو عليها من رغبة فى التروى قبل الكلام . ثقوا أيها الأعزاء أن هذه الفكرة ليست جديدة علىّ ، فطالما فكرت فيها ، وتمنيت تحقيقها . كنت أرجو — قبل أن يأتى فريتز ، ويوم يستغنى البيت عن خدماتى — أن أقتصد ما يكفى لاستئجار بيت كبير أجمع فيه صغار اليتامى ، الذين يعيشون فى أحضان الوحدة والإهمال ، ثم أعنى بهم وأسعد حياتهم قبل فوات الأوان ، لقد رأيت كثيرين يحيق بهم الدمار ، لأن أحداً لم يساعدهم فى الوقت المناسب ، ولأمثال هؤلاء أحب أن أفعل شيئاً . إنى أحس بإحساساتهم ، وأعطف على متاعبهم وآلامهم ، وبودى أن أكون أمًّا لهم .

ومدت مسز مارش يدها إلى چو ، فأمسكتها باسمة ، والدموع تترقرق فى عينيها ، فضت الفتاة فى حديثها تقول بحماسة لم تبد منها منذ زمن طويل :

— وقد حدثت فريتز عن مشروعى هذا ، فأكد أنه أقصى ما يتمناه ، واتفق معى على تنفيذه عندما نصبح أثرياء . . ليبارك الله نفسه الطاهرة !

فهذا ما كان يفعله طول حياته ، أقصد مساعدة الفقراء ، لا السعى إلى الثراء ، لأنه لن يكون فى يوم من الأيام غنيا ، فما من مال يبقى فى جيبه ليدخره . أما الآن ، فقد صرت غنية بفضل عمتى الطيبة التى أحبتنى أكثر مما أستحق ، أو هذا ما أشعر به على الأقل . وإذا وفقت فى إنشاء مدرسة كان فى الإمكان أن نعيش على خير حال فى « باومفياد » — والواقع أنه خير مكان يلائم الأطفال : فأثاثه بسيط متين ، وبداخله متسع لكثيرين ، وفى خارجه حديقة فسيحة يستطيع الأولاد — خلال أوقات فراغهم — أن يعملوا فيها ، فيساعدونا ، وهو مجهود يفيدهم صحيًّا ، أليس كذلك يا سيدى؟ أما التدريس ، ففريتز خير من يقوم به ، وربما عاونه أبى فى ذلك ، وسأقوم أنا بدور الأم التى تعنى بأولادها عن كثب . طالما اشتقت أن يكون لى عدد كبير من الأولاد ولم يكن هناك سبيل إلى ذلك ، ولكنى أستطيع الآن أن أملأ البيت بهم ، وأطرب قلبى بإعزازهم . ألا ما أسعدنى بما أتانى من ترف ! قصر كبير أملكه ، وجيش من الأولاد أرعاه !

ولوحت چو بيديها سروراً ، وتهدت فى نشوة وارتياح ، وانفجرت الأسرة فى عاصفة من الضحك ، اشترك فيها مستر لورنس حتى كاد يغمى عليه ، وحين هدأت العاصفة قالت چو فى وقار :

— ماذا يضحك فى هذا الموضوع ؟ ليس أليق بأستاذى من أن يفتح مدرسة ، ولا بى من أن أقيم فى مزرعتى الخاصة !

قال لورى وهو يعتبر المشروع كله مزحة لطيفة :

ـ لقد بدأت تنفخ أوداجها عظمة وتكبراً ! ولكن ، من أين تمولين هذه المؤسسة ! إذا كنت ستختارين تلاميذك من اليتامى الصعاليك ، فلن يكون محصولك المالى مربحاً يا مسز بايز !

قالت :

ـ لاتثبط عزيمتى يا تيدى ! سأبدأ طبعاً بأولاد الأثرياء ، وعندما تستقيم أمور المدرسة أضم إليها صعلوكاً أو اثنين لأسعد نفسى بوجودهم . إن أولاد الموسرين كأولاد الفقراء يحتاجون إلى العناية والراحة ، ولقد رأيت كثيرين من أبناء الأثرياء يتركون للخدم ، ورأيت غيرهم ممن تخلفوا فى إدراكهم الذهنى ، يدفعهم أهلهم إلى الأمام فى قسوة . منهم أيضاً من فقدوا أمهاتهم ، أو أهملت تربيتهم فاعوج سلوكهم . هذا إلى ما يحتاج إليه الأطفال جميعاً من صبر وحنان خلال المرحلة الأولى من عمرهم ، فمن عادة الناس أن يسخطوا الأطفال فى هذه المرحلة ، ويضيقوا بتصرفاتهم ، فيخفوهم عن العيون ، تاركين للزمن مهمة تحويلهم إلى رجال نافعين . ويحتمل الأطفال البواسل متاعبهم هذه صامتين لا يشكون ، وأنا أقدر متاعبهم حق قدرها ، لأننى مررت بها ، ولذلك يهمنى أن أعنى بهم عناية خاصة ، وأحب أن أكشف لهم عن إحساسى بما تنطوى عليه صدورهم من قلوب دافئة أمينة مخلصة ، على الرغم من أجسامهم غير المتناسقة وأفكارهم المشوشة . ثم إن لى سابق مجهود فى هذا الميدان ، ألم أنشئ صبياً أصبح

اليوم فخر أسرته وموضع اعتزازها ؟

قال لورى شاكراً مقدراً الجميل :

ـ أشهد أنك حاولت ذلك .

قالت :

ـ ونجحت نجاحاً يفوق ما كنت أتوقع ، فهأنتذا رجل أعمال ماهر ، تؤدى أعمالا نافعة كثيرة . فتنهال عليك الدعوات الصالحات بدل الدولارات . ثم إنك لست رجل أعمال فحسب ، إنما أنت محسن أيضاً ، تحب أن تفعل الخير ، وتستمتع بلذة إشراك غيرك فى نعمك ، شأنك معنا فيما مضى . إنى فخورة بك ياتيدى ، ويسعدنى أن أراك تزداد مع السنين كرماً وطيبة ، وكلنا يشعر بذلك ، وإن كنت تكره أن نعترف لك به .

وسكتت لحظة ثم عادت تقول :

ـ نعم ، عندما أجمع قطيعى الصغير ، سأشير إليك وأقول لهم : هذا مثلكم الأعلى فاحتذوه أيها الصغار !

واحتار لورى أين يدير وجهه ، فرغم رجولته الناضجة ، طغى عليه الخجل أمام ثنائها الجزيل ، وأمام نظرات الرضا التى أحاطه بها الموجودون ، قال بلهجة الصبيان القديمة :

ـ هذا كثير جداً يا چو ! فلقد فعلتم من أجلى أكثر مما أستطيع أن أشكركم عليه ، وعهدى لكم أن أبذل جهدى فى الاحتفاظ بتقديركم . لن أخيب ظنكم فىّ ، وإذا كنت قد نبذتنى أخيراً يا چو ، فقد شاء الله

أن يعوضني بخير المعونة والتوجيه ، فاشكرى لهذين العزيزين فضلهما العميم علىّ .

ووضع لورى إحدى يديه على رأس جده الأشيب ، ووضع الأخرى على شعر آمى الذهبى .

قالت چو فى انشراح عظيم :

— الأسرة أجمل ما فى الدنيا كلها ، وأملى أن تسعد أسرتى — يوم يكون لى واحدة — سعادة هؤلاء الأصدقاء الأعزاء الثلاثة . . والله لولا غياب جون وفريتز لأصبحت جلستنا هذه جنة على الأرض .

وحين أوت چو إلى مخدعها فى تلك الليلة ، بعد الجلسة العائلية العامرة بأغلى النصائح والآمال والمشروعات ، وجدت قلبها يفيض بالغبطة والسعادة ، فعملت على تهدئته بالركوع إلى جانب الفراش الخالى ، الذى كانت بث تحتله فى يوم من الأيام ، وراحت تفكر فى الراحلة العزيزة ، تستعيد أرق ذكرياتها وأجملها .

كانت تلك السنة ، على العموم ، فريدة فى تطور أحداثها السعيدة ، فقبل أن يمضى وقت طويل ، وجدت چو نفسها تعيش مع زوجها مستقرة فى قصر « بلومفيلد » ، ومعها أسرة مكونة من ستة أو سبعة أولاد ، سرعان ما زاد عددهم من بين الأغنياء والفقراء على السواء . وكان الفضل كل الفضل فى ذلك لمستر لورنس الذى دأب على تغذية المدرسة بأولاد الفقراء ، راجياً من آل باير أن يحيطوهم بالرعاية ، وكان يدفع نفقاتهم

بسخاء ، وبهذه الوسيلة الماهرة ، استطاع السيد العجوز أن يعين چو بدون أن يخدش كبرياءها .

وكان العمل فى المدرسة شاقًّا أول الأمر ، ولم تبرأ چو من الوقوع فى أخطاء عجيبة . ولكن حكمة الأستاذ كانت تقودها دائماً إلى شاطئ الأمان ، فتأتى لها أن تروض أشد الأولاد مروقاً وشراسة . وكم استمتعت چو بهذا الجيش البرئ من الأولاد ! وكم فكرت فى ثورة العمة مارش ، لوكان العمر قد امتد بها ، لترى الأقدام الصغيرة الشاردة تدوس أراضيها المقدسة . ولعلها عدالة جميلة أراد الله بها الانتقام للأطفال الذين كانت العمة تخيفهم بما تنشره من رعب حول قصرها الكبير ، فقد فتحت لهم چو أبواب الأرض المحرمة على سعتها ، وتركتهم يمرحون فيها ما شاءوا ، بل حولت لهم أيضاً مرعى البقرة الشرسة إلى ملعب جميل للكريكيت . وهكذا أصبح المكان جنة للأولاد ، وكان والحق يقال ، جنة بمعنى الكلمة حتى إن لورى اقترح تسمية القصر « حدائق باير » تكريماً للأستاذ الطيب الذى يشرف عليه .

ولم تكن المدرسة كغيرها من المدارس الحديثة ، ولم يكسب الأستاذ من ورائها ثروة ولا مالا ؛ ولكنها كانت كما أرادت چو تماماً : مكاناً مؤنساً سعيداً يجد الأطفال فيه حاجتهم من العلم والرعاية والحنان . وسرعان ما امتلأت غرف البيت كلها بالتلاميذ الجدد ، ووجد كل ركن فى الحديقة من يزرعه ، وشغل المخزن والحظيرة بالحيوانات الأليفة . وكانت

چو تبتسم لرجلها فريتز ثلاث مرات فى اليوم ، وهى تتصدر المائدة الطويلة ، التى يزين جانبيها صفان من الأولاد السعداء ، الذين يتجهون إلى الأم « باير » بقلوب تفيض ثقة وعرفانا بالجميل . لقد أصبح لديها الآن كفايتها من الأولاد ، ولكنها لم تملّ منهم أو تتعب ، رغم أنهم كانوا أبعد ما يكونون عن الملائكة ؛ فمنهم من كبّدها هى والأستاذ شتى ألوان القلق والمتاعب ، ولكن إيمانها بطيب معدن الأطفال ، كان يعينها فى الوقت الملائم . وما كان طفل يستطيع أن يثبت على عناده طويلا تحت نظرات الأب باير ، التى تشع رحمة وحناناً ودفئاً كأشعة الشمس ، ولا أمام الأم باير التى تصفح عن الأخطاء سبعاً وسبعين مرة ! وكانت چو تعتز بصداقة الأولاد ، وكان مما يزيدهم قرباً إلى قلبها ، دموع الاستغفار والندم ، وهمسات التوبة بعد الأخطاء ، وثقتهم البالغة بها ، وحماستهم الغالبة فيما يبنون للمستقبل من آمال ومشروعات . وكان بين تلاميذ المدرسة متخلفون وخجلون وضعاف البنية وشياطين ، كما كان بينهم من يلثغون أو يتأتئون ، وكذلك أعرج أو أعرجان وزنجىّ مولد لا يمكن أن يقبل فى مدرسة أخرى ، ولكن روضة باير رحبت به ، رغم خوف بعض الناس من أن يقضى وجوده بين البيض على سمعة المدرسة .

وعلى الرغم من العمل الشاق ، والقلق الشديد ، والضجة التى لا تنقطع عاشت چو فى مدرستها هذه سعيدة إلى أقصى حد ، وكانت تتحف بقصصها الشائقة صغارها المؤمنين بها ، فإذا هتفوا شكراً لها ، أحست أنها

امتلكت الدنيا كلها .

ومع مضى السنوات ، رزقت بولدين ازدادت بهما حياتها سعادة على سعادة ، وقد أسمت الأول باسم جده ، والثانى تيد . وكان هذا الأخير طفلا لطيفاً ، يجمع بين بساطة أبيه وحيوية أمه . أما كيف أمكن أن يشب هذان الطفلان بين ضجيج الأولاد فمعجزة سرها عند جدتهما وخالاتهما ، ولكن حياتهما على كل حال تفتحت كأزهار الربيع ، تحت إشراف أولئك السيدات المحبات ، وفى رعايتهن القويمة .

وكان يتخلل الحياة فى بلومفيلد عطلات طويلة ، أكثرها مرحاً عطلة موسم جنى التفاح ، إذ كان آل مارش ولورنس وبروك وباير يجتمعون فى كامل هيئتهم ليحتفلوا بهذا اليوم أبهج احتفال . وبعد خمس سنوات من زواج چو ، جاء يوم الحصاد فى شهر أكتوبر ، وكان الهواء عليلا منعشاً ، والأشجار محملة بأطيب الثمار ، فتدفقت الحماسة فى عروق أفراد الأسرة وراحوا يرقصون فى البستان ، بين أشجار الزهور المتناثرة ، وشجيرات اللبلاب المتسلقة . وشاركتهم الكائنات كلها فى فرحتهم : فغنى الصرصور بصوت كأنه ناى سحرى ، وتسارعت السناجب إلى جمع نصيبها من المحصول وشدت العصافير بأنغامها الشجية من فوق أشجار الحور العالية . وكانت كل شجرة فى الحديقة على أتم الاستعداد لإفراغ حمولتها من التفاح الأحمر والذهبى عند أول هزة ، وكانت سعادة الموجودين شاملة بهذا اليوم الفريد ، فضحكوا وغنوا وتسلقوا الدوح وتساقطوا مرحاً من فوقها . وكم أكدوا أنهم لم

يستمتعوا فى حياتهم بمثل هذا اليوم البهيج ، وكانوا صادقين بعد ما اغترفوا من المتع والمسرات ، كأن دنياهم خلت من الهموم والأحزان .

وكان مستر مارش يسير الهوينى مع مستر لورنس ، ويصغى إلى مقتطفات من الشعر الجميل ، والأستاذ باير يقطع الأرض الخضراء جيئة وذهاباً ، ليراقب التلاميذ فى لعبهم ويوجههم ، وكأنه بقامته الطويلة فارس تيوتونى أصيل يحمل بدل الرمح عصا . وكرس لورى نفسه لرعاية الأسرة ، فأركب ابنته الصغيرة فى عربة السلال ، وحمل ديزى إلى عش العصافير لتراها ، وأنقذ روب المغامر من أن يسقط فيدقّ عنقه . وجلست مسز مارش وميج بين أكوام التفاح تفرزان أنواعه ، وانصرفت آمى إلى رسم كل مجموعة من الثمار ، وكانت بين آن وآخر تلقى نظرة عامرة بالعطف والحنان على طفل شاحب ، يجلس بعيداً وقد ألقى بعكازه جانباً .

أما جو فكانت فى هذا اليوم أصدق مثال للسعادة ، تجرى هنا وهنالك وقد شمرت ثوبها ، وخلعت قبعتها ، واحتضنت ابنها تحت إبطها فى استعداد تام لأى مغامرة يقتضيها الموقف . ولقد تمتع تيد الصغير بنصيبه من مباهج اليوم ، ومن حسن الحظ لم يحدث له حادث ، حين علقه أحد الصبيان بين أفرع شجرة ، ولا حين حمله صبي آخر على ظهره وراح يقفز به فى أرجاء الحديقة ، ولا عندما أطعمه أبوه نوعاً من التفاح الحامض ، مطمئناً — على اعتقاد أهل بلاده — بقدرة الأطفال على هضم الكرنب والأزرار والمسامير ، وحتى الأحذية التى يلبسونها . وتركت جو تيد الصغير

على سجيته ، واثقة بأنه سيعود إلى البيت فى الوقت المناسب ، سالماً هادئاً قذراً مورد الخدين ، فتستقبله كالعادة بفيض حبها الذى يشمل الأطفال كلهم .

وفى الساعة الرابعة ، حلت فترة هدوء ، حين جلس جامعو التفاح بجوار السلال الفارغة ، يستريحون ويتحدثون عما كوفئوا به من قروش وخدوش . وقامت چو وميج مع فريق من الصبيان الكبار بإعداد الطعام فوق الحشائش الخضراء ، فجاء تناول وجبة الشاى فى الهواء الطلق ، خير ختام لهذا اليوم البهيج . ولم تلبث الأرض أن امتلأت بالعسل واللبن ، إذ كانت الحرية أهم مبدأ فى دستور هذا الاحتفال ، فاستغلها الأولاد إلى أبعد حد ، وجلسوا على سجيتهم يتناولون الحلوى والمرطبات . ولم يكن هناك ما يمنعهم من أن يفعلوا ما يريدون ، فحاول بعضهم أن يجرب شرب اللبن وهو واقف على رأسه ، وعمل بعضهم الآخر على الجمع بين اللعب والأكل فكنت ترى أولاداً يلتهمون الشطائر وهم يقفزون ، أو ينثرون الكعك على الأرض كالحبوب ، أو يصفون التفاح على فروع الأشجار كأنه طيور . أما البنات الصغيرات فقد أعدت لهن وليمة خاصة ، ولكن بيتر الصغير لم يشأ أن يتركهن فى سلام ، فصال وجال بين المآكل ينتهب منها على هواه .

وعندما انتهى المجتمعون من الأكل ، وامتلأت بطونهم حتى لم يبق فيها مكان لمزيد ، اقترح الأستاذ — على ما اعتادوا فى مثل هذه المناسبات — أن يشربوا النخب الأول فى ذكرى أفضال العمة مارش رحمها الله ، وقد

شربه مع الأولاد الذين عليهم أن يحتفظوا بذكراها حية فى قلوبهم . ثم شربوا نخب الجدة بمناسبة بلوغها الستين ، وهتفوا جميعاً بحياتها ثلاثاً : هذا العيد الستون للجدة . تعيش الجدة . . تعيش . . تعيش . . تعيش ، واندمجوا فى هتافاتهم بقلوبهم وأرواحهم ، حتى صعب إسكاتهم عن تحية السيدة الطيبة التى يخلصون لها الحب والتقدير . وتوالت الأنخاب بعد ذلك فى صحة مستر لورنس راعى المدرسة ، وفى صحة غيره من الأصدقاء ، حتى الأرنب الذى خرج من جحره يبحث عن صاحبه الصغير . وقدم ديمى — بصفته أكبر الأحفاد سناً — إلى جدته ، ملكة الحفلة ، مجموعة كبيرة من الهدايا ، احتاج الأمر إلى نقلها فى عربة يد صغيرة . وكانت الهدايا كلها من صنع الأطفال ، فجاءت مضحكة قد تنبو عنها العين ، ولكن الجدة كانت تراها غير ذلك ، فقد قالت عن المنديل الذى طرزته ديزى بأناملها الساذجة إنه قطعة من الفن الرفيع ! وعن صندوق الأحذية الذى صنعه ديمى ولم ينجح فى تثبيت غطائه إنه معجزة لم يرد لها مثيل ! وعن الكرسى الصغير الذى صنعه روب على أرجل غير متساوية إنه مريح إلى أبعد حد ! أما الكتاب الذى قدمته ابنة آمى ، فلم يكن فيه أثمن من الصفحة التى كتبت عليها بحروف كبيرة « إلى جدتى العزيزة ، من الصغيرة بث » .

وبينما أفراد الأسرة فى شغل بهذا الاحتفال ، اختفى أولاد المدرسة بشكل غامض ، وعندما قامت مسز مارش تشكر أسرتها ، والدموع تندى

عينيها ، فيمسحها لها تيد الصغير بمنديله ، بدأ الأستاذ يغنى فجأة ، وإذا بأصوات الصبيان تعلو من فوقه ، وإذا بالغناء يصدر من شجرة بعد شجرة ، حيث اختفى الأولاد بين الغصون ، وراحوا كلهم ينشدون بحماسة مقطوعة وضعتها چو ، ولحنها لورى ، وتدرب الأولاد على غنائها تحت إشراف الأستاذ بايز . وكانت الأغنية طريفة بمعنى الكلمة ، وجاء إخراجها الناجح مفاجأة سارة لمسز مارش ، فأصرت على أن تصافح كل صبي ممن اشتركوا فى هذه الحفلة ، من الطويلين فرانز وإميل إلى الزنجى الصغير صاحب أجمل الأصوات كلها .

وبعد هذا ، تفرق الصبيان مرة أخرى فى أرجاء الحديقة يستكملون لعبهم ولهوهم ، تاركين مسز مارش وبناتها تحت شجرة الحفلة . قالت مسز بايز ، وهى تخرج إصبع تيد الصغير من إبريق اللبن الذى كان يعبث فيه مسروراً :

ــ لن ألعن سوء حظى ، بعد أن تحققت كل آمالى ، بهذا الشكل المفرح البهيج .

قالت ، آمى وهى ترقب لورى وجون فى لعبهما مع الأولاد :

ــ ومع ذلك حياتك تختلف اليوم كل الاختلاف عن الصورة التى كنت ترسمينها فى الماضى ، أتذكرين القصور التى كنا نبنيها فى الهواء

والتفتت چو إلى حيث تنظر آمى ، وقالت فى حنان :

ــ يا للرجال الأعزاء ! كم يسرنى أن أراهم ينسون أعمالهم ، ويقضون

يوماً فى المرح واللعب ! نعم . . أذكر تلك القصور يا آمى ، وأرى الآن آمالى الماضية مفرطة فى الوحشة والأنانية ، ولكنى ما زلت أرجو أن أؤلف كتاباً قيماً ، ولن يضيرنى الانتظار ، فوراءه من الخبرة والتجارب التى أستقيها من حياتى خير كثير .

وأشارت إلى الأولاد الذين يمرحون بعيداً فى نشاط ، وإلى أبيها الذى يعتمد على ذراع الأستاذ وهما يسيران تحت أشعة الشمس ذهاباً وإياباً ، وقد استغرقا فى حديث طويل ممتع ، ثم إلى أمها وقد أحاط بها بناتها وأحفادها ، وتطلعت إليها عيونهم ، كأنها تستمد العون والبركة من الشعر الفضى والوجه الصبيح الذى لم تفسد حسنه الأيام .

قالت ميج فى قناعة ، وهى تربت على رأس ابنتها :

ــ أما قصرى أنا ، فقد تحقق على وجه أقرب ما يكون إلى الأصل . حقيقة أننى كنت أتوق إلى أجمل الأشياء وأفخمها ، ولكنى كنت أومن فى قرارة نفسى بأننى سأقنع راضية ببيت صغير ، وزوج طيب ، وأطفال أعزاء كهذين . ولقد فزت بآمالى ولله الحمد ، وأصبحت أسعد امرأة فى الوجود .

وقالت آمى :

ــ أما قصرى فقد جاء مختلفاً عما تخيلت ، ولكنى لا أحب أن أغيره لأننى مثل چو لم أتخل عن آمالى الفنية نهائيًّا ، ولم أقطع نفسى لمساعدة الآخرين على تحقيق أحلامهم ! إنما أحاول أن أجمع بين الاثنين . وقد

بدأت بالفعل فى صنع تمثال لطفلتى ، ويؤكد لورى أنه أجمل ما أنتجت ، وأنا أوافقه على ذلك ؛ وفى نيتى أن أنحته من رخام ، حتى تبقى لى صورة من ابنتى مهما حدث .

وانحدرت دمعة كبيرة من عينى آمى ، وسقطت على الشعر الذهبى لطفلتها النائمة بين ذراعيها ، وكانت الطفلة العزيزة ، ضعيفة البنية واهنة القوة ، مما يعكر صفو أمها بسحابة من القلق والخوف . وكان الشعور بالقلق على الطفلة ، يقرب بين الأم والأب ، فالحب الواحد ، والخوف الواحد ، يوثقان الصلة برباط أبدى .

وكانت آمى قد ازدادت نضجاً وحساسية ولطفاً ، كما صار لورى جاداً حازماً قوياً . والفضل للأيام التى علمتهما أن الجمال والشباب والثراء ، وحتى الحب نفسه ، لن يجنبهما الهموم والآلام وفقدان الأحياء ، أو كما قيل :

« فى كل حياة ، لا بد أن تسقط بعض الأمطار
وتسود أيام بالحزن والوحشة » .

قالت مسز مارش ، عندما انحنت ديزى اللطيفة على ابنة خالتها ، ووضعت خدها المتورد على خدها الباهت :

— إنى أراها فى تقدم صحى مطرد ، فلا تقنطى يا عزيزتى ، وكونى دائماً مستبشرة متفائلة .

قالت آمى :

— لن أقنط ، يا أماه ، وأنت بجانبي ترفهين عني ، ولوري معي يحمل أكثر العبء ، ولا يدعني أحس بما يعانيه من قلق ومخاوف . إنه يخفي آلامه في قلبه ، ويتفانى في رعاية بث ، ويلقاني دائماً بوجه صبور بشوش ، وبذلك يبعث في نفسي سكينة واطمئناناً . لن أوفيه حقه من الحب مهما فعلت ، فعليّ أن أقول مع ميج — رغم السحابة التي تخيم على حياتنا — حمداً لله فأنا امرأة سعيدة .

وأردفت چو ، وهي تنقل بصرها بين زوجها الفاضل وولديها القويين اللذين يتقلبان بجوارها على الحشائش مسرورين :

— لا أظنني في حاجة إلى الكلام ، فكلكم يرى أنني أسعد مما أستحق ، إن فريتز يزداد سمنة ومشيباً ، وأنا أصبحت نحيلة كالظل ، وقد بلغت الثلاثين ولا أمل في أن نصبح أثرياء ، ولا أستبعد أن تأكل النيران يوماً « بلومفيلد » ، ما دام الشيطان تومي بانجز يصر على التدخين تحت ملاءة سريره ، وبعد أن أحرق نفسه ثلاث مرات من قبل ! ومع هذه الحقائق المزعجة ، فأموري تسير على ما يرام ، و« انبساطي » اليوم لم يرد له مثيل في حياتي . ومعذرة إذ استعملت هذا التعبير الصبياني في كلامي ، فمن يعش مع الصبيان ، فلا بد أن يتشبه بهم أحياناً !

قالت مسز مارش وهي تطرد صرصوراً كبيراً أسود أخاف تيد الصغير :

— نعم يا چو ، وسيكون محصولك طيباً على ما أعتقد .

وهتفت چو في حماستها المحبوبة ، التي لم تتخل عنها رغم تقدم السن :

— ولكنه لن يبلغ جودة محصولك على كل حال . فها نحن أولاء بين يديك ، وليس بمقدورنا أن نوفيك حقك من الشكر على ما فعلت منذ بذرت حتى جنيت .

وقالت آمى فى حنان بالغ :

— أرجو أن يزداد القمح ويقل التبن عاماً بعد عام !

وأضافت ميج بصوتها الحنون :

— إنها سنابل ضخمة يا أماه ، ولا شك أن فى قلبك متسع لها .

وغلب التأثر مسز مارش ، وعقد العطف لسانها عن الكلام فبسطت ذراعيها كأنها تريد أن تضم بناتها وأحفادها إلى صدرها ، قالت فى أمومة عامرة بالتواضع والحنان :

— مهما امتد العمر بكنّ يا بناتى العزيزات ، فلن أرجو لكن أكثر من هذه السعادة الغامرة .

رقم الإيداع	١٩٨٣ / ٤٧٦٣
الترقيم الدولى ISBN	٩٧٧-٠٢-٠٦٢٣-٧

١ / ٨٣ / ١٧٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)